

ت.ق التبيان في أقسام القرآن، تأليف محمد بن ابي بكر بن ايوب بن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ). كتبت في القرن الثالث عشر الهجري تقديرا.

٩٨ ق ٢٢ س ٢٥×١٧٫٥ سم

١٦٨٧ نسخة حسنة، خطها معتاد، بها نقص في الاثناء والآخر، طبع.

الأعلام ٦ : ٢٨٠، معجم المطبوعات ١ : ٢٢٣

١- مباحث قرآنية اخرى أ- ابن قيم الجوزية، محمد بن ابي بكر - ٧٥١هـ ب- تاريخ النسخ ج- اقسام القرآن والكلام على ذلك.

التبيان في اقسام القرآن

لابن قيم الجوزيه

المسمى بالتبيان

كتاب اقسام القرآن للعلامة الاوحد الحافظ
شمس الدين ابي عبد الله الدمشقي الحنبلي
المعروف بابن القيم رحمه الله
ونفعنا بعلومه
آمين

لعثمان قدري ابن عبد الله [illegible] واحد قيمة [illegible]

(علم اقسام القرآن) جمع قسم بمعنى اليمين جعله السيوطي
نوعا من انواع علوم القرآن وتبعه صاحب مفتاح السعادة حيث
اورده من فروع علم التفسير وقال صنف فيه ابن القيم
مجلدا سماه التبيان اقسم الله تعالى بنفسه في القرآن في
القرآن في سبعة مواضع والباقي كله قسم بمخلوقاته و
قد اجابوا عنه بوجوه انتهى كشف الظنون من حرف الالف

مصححه غفر الله له آمين

وقال مؤلف الكشف ايضا في حرف التاء التبيان في اقسام القرآن
لشمس الدين محمد بن ابي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي
المتوفى سنة ٧٥١ احدى وخمسين وسبعمائة وهو في مجلد جمع
فيه ما ورد بمعنى القسم والايمان وذكر الكلام عليها.
اوله الحمد لله رب العالمين

انتهى مصححه

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين الحمد لله رب العالمين

فصل في اقسام القران وهو سبحانه يقسم بامور على امور وانما يقسم بنفسه
الموصوفه بصفاته وباياته المستلزمه لذاته وصفاته واقسامه ببعض المخلوقات
دليل على انه من عظيم اياته فالقسم اما على جملة خبريه وهو الغالب كقوله تعالى فورب
السموات والارض انه لحق واما على جملة طلبيه كقوله تعالى فوربك لنسالنهم اجمعين
عما كانوا يعملون مع ان هذا القسم قد يراد به تحقيق المقسم عليه فيكون من باب
الخبر وقد يراد به تحقيق القسم والمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه فلا
بد ان يكون مما يحسن فيه ذلك كالامور الغايبه والخفيه اذا اقسم على ثبوتها فاما
الامور الظاهرة المشهوره كالشمس والقمر والليل والنهار والسماء والارض
فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها وما اقسم عليه الرب فهو من اياته فيجوز ان يكون
مقسما به ولا ينعكس فهو سبحانه يذكر جواب القسم تارة وهو الغالب وتارة يحذفه
كما يحذف جواب لو كثيرا كقوله تعالى كلا لو تعلمون علم اليقين وقوله ولو ان قرانا
سيرت به الجبال او قطعت به الارض ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة
ولو ترى اذ فزعوا فلا فوت ولو ترى اذ وقفوا على ربهم ومثل هذا حذفه من
احسن الكلام لان المراد انك لو رايت ذلك لرايت هولا عظيما فليس في ذكر الجواب
زيادة على ما دل عليه الشرط وهذه عادة الناس في كلامهم اذا راوا امورا عجيبة
وارادوا ان يخبروا بها الغايب عنها يقول احدهم لو رايت ما جرى يوم كذا بموضع
كذا ومنه قوله تعالى ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب ان القوة لله جميعا
وان الله شديد العذاب فالمعنى في اظهر الوجهين لو يرى الذين ظلموا

في الدنيا

في الدنيا اذ يرون العذاب في الاخرة والجواب محذوف ثم قال ان القوة
لله جميعا كما قال تعالى ولو ترى اذ فزعوا فلا فوت ولو ترى اذ يتوفى
الذين كفروا الملائكة اي لو ترى ذلك الوقت وما فيه واما القسم لما كان
فانه صح
قد يحلف على الشي ثم يكرر القسم فلا يعيد المقسم عليه لانه قد عرف
ما يحلف عليه فيقول والله ان لي عليه الف درهم ثم يقول ورب السموات
والارض والذي نفسي بيده وحق القران العظيم ولا يعيد المقسم عليه
لانه قد عرف المراد والقسم لما كان يكثر في الكلام اختصر فصار فعل القسم
يحذف ويكتفى بالباء ثم عوض من البا الواو في الاسماء الظاهرة
وبالتاء في اسماء الله كقوله وتالله لاكيدن اصنامكم وقد نقل ترب
الكعبة واما الواو فكثيرة

فصل

اذا عرف هذا
فهو سبحانه يقسم على اصول الايمان التي يجب على الخلق معرفتها تارة يقسم
على التوحيد وتارة يقسم على ان القران حق وتارة على ان الرسول حق وتارة على
الجزا والوعيد وتارة على حال الانسان فالاول كقوله والصافات
والوعد
صفا الى قوله ان الهكم لواحد والثاني كقوله فلا اقسم بمواقع النجوم الى قوله
كريم وقوله حم والكتاب المبين انا انزلناه في ليلة مباركة وانا جعلناه
قرانا عربيا اذا جعل ذلك جواب القسم كما هو الظاهر وقيل ان الجواب محذوف
كما في قوله ص والقران ذي الذكر فانه هنا حذف الجواب ومن قال ان
الجواب هو قوله ان ذلك لحق تخاصم اهل النار فقد ابعد النجعة والقسم
على الرسول كقوله يس والقران الحكيم انك لمن المرسلين على صراط مستقيم
اذا قيل هو الجواب وان قيل الجواب محذوف كان كما ذكر ومنه ن والقلم
وما يسطرون ما انت بنعمة ربك بمجنون وان لك لاجرا غير ممنون ومنه
والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى الى اخر القصة

باقي في وجه ثاني

ومنه قوله فلا اقسم بما تبصرون وما لا تبصرون انه لقول رسول كريم وما هو
بقول شاعر قليلا ما تؤمنون الى قوله ذي قوة عند ذي العرش مكين
واما القسم على الجزاء والوعد والوعيد ففي مثل قوله والذاريات ذروا الى قوله
انما توعدون لصادق وان الدين لواقع ثم ذكر تفصيل الجزاء وذكر الجنة والنار
وذكر ان في السماء رزقكم وما توعدون ثم قال فورب السماء والارض انه
لحق مثل ما انكم تنطقون ومثل قوله والمرسلات عرفا الى قوله انما توعدون
لواقع ومثل والطور وكتاب مسطور الى قوله ما له من دافع وقد امر نبيه
ان يقسم على الجزاء والمعاد في ثلاث ايات فقال تعالى زعم الذين
كفروا الى قوله لتبعثن وقال تعالى وقال الذين كفروا لا تاتينا الساعة قل بلى
وربي لتاتينكم وقال تعالى ويستنبئونك احق هو قل اي وربي انه
لحق وما انتم بمعجزين وهذا لان المعاد انما يعلمه عامة الناس باخبار
الانبياء وان كان من الناس من قد يعلمه بالنظر وقد تنازع النظار في ذلك
فقالت طائفة انه لا يمكن علمه الا بالسمع وهو الخبر وهو قول من لا يرى
تعليل افعال الله تعالى ويقولون لا ندري ما يفعل الله الا بعادة او خبر كما يقوله
جهم ومن اتبعه والاشعري واتباعه وكثير من اهل الكلام في الفقه والحديث
من اتباع الائمة الاربعة بخلاف العلم بالصانع فان الناس متفقون
على انه لا يعلم بالعقل وان كان ذلك مما نبهت الرسل عليه وصفاته
قد تعلم بالعقل وتعلم بالسمع ايضا كما قد بسط في موضع اخر واما القسم على
احوال الانسان فكقوله والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى الى قوله
ان سعيكم لشتى الاية ولفظ السعي هو العمل لكن يراد به العمل الذي يهتم به
صاحبه ويجتهد فيه بحسب الامكان فانه ان كان يفتقر الى عدو بدنه
عدا وان كان يفتقر الى جمع اعوانه جمع وان كان يفتقر الى تفرغ له وترك

غير

غير نحو ذلك فلفظ السعي في القران جاء بهذا الاعتبار ليس هو مراد
اللفظ كما ظنه طائفة بل هو عمل مخصوص يهتم به صاحبه ويجتهد فيه
ولهذا قال في الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وهذه احسن من قراءة من قرا
فامضوا الى ذكر الله وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا
اقيمت الصلاة فلا تاتوها تسعون واتوها تمشون وعليكم بالسكينة
فما ادركتم فصلوا وما فاتكم فاتموا فلم ينه عن السعي الى الصلاة فان الله امر
بالسعي اليها بل نهاهم ان ياتوا اليها يسعون فنهاهم عن الاتيان المتصف
بسعي صاحبه والاتيان فعل البدن وسعيه عدو البدن وهو منهي عنه
واما السعي المامور به في الاية فهو الذهاب اليها على وجه الاهتمام بها
والتفرغ لها عن الاعمال الشاغلة من بيع وغيره والاقبال بالقلب على السعي
اليها وكذلك قوله في قصة فرعون لما قال له موسى هل لك الى ان تزكى الى قوله
ثم ادبر يسعى فحشر فنادى فهذا اهتمام واجتهاد في حشر رعيته ومناداته
فيهم وكذلك قوله واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها هو عمل بهمة و
اجتهاد ومنه سمي الساعي على الصدقة والساعي على الارملة واليتيم ومنه
قوله ان سعيكم لشتى وهو العمل الذي يقصده صاحبه ويعتني به ليترتب
عليه ثواب او عقاب بخلاف المباحات المعتادة فانها لم تدخل في هذا السعي
قال تعالى فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى واما من بخل
واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ومنه قوله تعالى ومن اراد الا
خرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن وقوله انما جزاء الذين يحاربون الله و
رسوله ويسعون في الارض فسادا

فصل

اقسم على صفة الانسان بقوله والعاديات ضبحا الى قوله ان الانسان لربه
لكنود واقسم على عاقبته وهو قسم على الجزاء في قوله والعصر الى قوله وتواصوا

بالصبر في قوله والتين والزيتون وطور سينين الى قوله لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وحذف جواب القسم لانه قد علم بانه يقسم على هذه الامور وهي متلازمة فمتى ثبت ان الرسول حق ثبت القرآن والمعاد ومتى ثبت ان القرآن حق ثبت صدق الرسول الذي جاء به ومتى ثبت ان الوعد والوعيد حق ثبت صدق الرسول الذي جاء به ومتى ثبت ان الوعد والوعيد حق ثبت صدقه وصدق الكتاب الذي جاء به والجواب يحذف تارة ولا يراد ذكره بل يراد ذكر المقسم به وانه مما يحلف به كقول النبي صلى الله عليه وسلم من كان حالفا فليحلف بالله او ليصمت وكقوله هذا يذكر مع الفعل دون مجرد حرف القسم كقولك فلان يحلف بالله وحده وانا احلف بالخالق لا بالمخلوق ونحو ذلك والنصراني يحلف بالصليب والمسيح وفلان اكذب ما يكون اذا حلف بالله وقد يكون هذا النوع بحرف القسم مجردا كما في الحديث كانت اكثر يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ومقلب القلوب وكان بعض السلف اذا اجتهد في يمينه قال والله الذي لا اله الا هو وتارة يحذف الجواب وهو مراد اما لكونه قد ظهر وعرف اما بدلالة الحال كمن قيل له كل فقال لا والله الذي لا اله الا هو او بدلالة السياق واكثر ما يكون هذا اذا كان في نفس المقسم به ما يدل على المقسم عليه وهي طريقة القرآن فان المقصود يحصل بذكر المقسم به فيكون حذف المقسم عليه ابلغ واوجز كمن اراد ان يقسم على ان الرسول حق فقال والذي ارسل محمدا بالهدى ودين الحق وايده بالآيات البينات واظهر دعوته واعلى كلمته ونحو ذلك فلا يحتاج الى ذكر الجواب استغناء عنه بما في القسم من الدلالة عليه او كمن اراد ان يقسم على التوحيد وصفات الرب ونعوت جلاله فقال والله الذي لا اله

الا هو

تعظيم ع

الا هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم الاول الاخر الظاهر الباطن ومن اراد ان يقسم على علوه فوق عرشه فقال والذي استوى على عرشه فوق سمواته يصعد اليه الكلم الطيب وترفع اليه الايدي وتعرج الملائكة والروح اليه ونحو ذلك وكذلك من حلف لشخص انه يحبه ويعظمه فقال والذي ملأ قلبي من محبتك واجلالك ومهابتك ونظاير ذلك لم يحتج الى جواب القسم وكان في المقسم به ما يدل على المقسم عليه ومن هذا قوله تعالى ص والقرآن ذي الذكر فان في المقسم به من تعظيم القرآن ووصفه بانه ذي الذكر المتضمن لتذكير العباد وما يحتاجون اليه والشرف والقدر ما يدل على المقسم عليه وكونه حقا من عند الله غير مفترى كما يقوله الكافرون وهذا معنى قول كثير من المفسرين متقدميهم ومتاخريهم ان الجواب محذوف تقديره ان القرآن لحق وهذا مطرد في كل ما شانه ذلك واما قول بعضهم ان الجواب قوله تعالى كم اهلكنا من قبلهم من قرن فاعترض بين القسم وجوابه بقوله بل الذين كفروا في عزة وشقاق فبعيد لان كم لا يتلقى بها القسم فلا تقول والله كم انفقت مالا وبالله كم اعتقت عبدا وهؤلاء لم يخف عليهم ذلك احتاجوا ان يقدروا ما يتلقى بها الجواب اي لكم اهلكنا وابعد من هذا قول من قال الجواب قوله ان ذلك لحق تخاصم اهل النار واقرب ما قيل في الجواب لفظا وان كان بعيدا معنا ما ذكر عن قتادة وغيره ان في قوله بل الذين كفروا كما قال ق والقرآن المجيد بل عجبوا ان جاءهم منذر منهم وشرح صاحب النظم هذا القول فقال معنى بل توكيد الخبر الذي بعده فصار كان الشديدة في تثبيت ما بعدها قيل ههنا بمنزلة ان لانه يوكد ما بعده من الخبر وان كان له معنى سواه في نفي خبر متقدم فكانه عز وجل قال ص والقرآن ذي الذكر ان الذين كفروا في عزة وشقاق كما تقول ان زيدا

[illegible]

وسعو

لقائم قال واحتج لصاحب هذا القول بان هذا النظم وان لم يكن العربية
فيه اصل ولا لها فيه رسم فيحتمل ان يكون نظما احدثه الله عز وجل لما بينا
من احتمال بل بمعنى ان انتهى وقال ابو القسم الزجاجي قال النحويون ان بل تقع في جواب
كما تقع ان لان المراد بها تاكيد الخبر وهذا القول اختيار ابي حاتم وحكاه
الاخفش عن الكوفيين وقرر بعضهم بانه قال اصل الكلام بل الذين كفروا
في عزة وشقاق والقرآن ذي الذكر فلما قدم القسم ترك على حاله قال الاخفش
وهذا يقوله الكوفيون وليس بجيد في العربية لو قلت والله قام
وانت تريد قام والله لم يحسن وقال النحاس هذا خطا على مذهب النحويين
لانه اذا ابتدا بالقسم وكان الكلام معتمدا عليه لم يكن بد من الجواب واجمعوا انه
لا يجوز والله قام عمرو بمعنى قام عمرو والله لان الكلام يعتمد على القسم وذكر الاخفش
وجها اخر في جواب القسم فقال يجوز ان يكون صاد معنى يقع عليه
القسم لا تدري بمعنى ما هو كانه يقول الحق والله قال ابو الحسن الواحدي وهذا
الذي قاله الاخفش صحيح المعنى على قول من يقول ص الصادق الله او صدق
محمد وذكر الفراء هذا الوجه ايضا فقال ص جواب القسم وقال هو كقولك
وجب والله ونزل والله فهي جواب لقوله والقرآن وذكر النحاس وغيره وجها
اخر في الجواب وهو انه محذوف تقديره والقرآن ذي الذكر ما الامر كما يقوله
هؤلاء الكفار ودل على المحذوف قوله تعالى بل الذين كفروا وهذا اختيار ابن
جرير وهو مخرج من قول قتادة وشرحه الجرجاني فقال بل رافع لخبر
قبله ومثبت لخبر بعده فقد ظهر ما بعده ولم يظهر ما قبله وما بعده دليل على ما قبله
فالظاهر يدل على الباطن فاذا كان كذلك وجب ان يكون قوله بل الذين كفروا
في عزة وشقاق مخالفا لهذا المضمر فكانه قيل والقرآن ذي الذكر ان الذين
كفروا ابن عمرو انهم على الحق وكلاهما في هذا المعنى ومناسبة اوجه سلمنا

بدنا

ما بيّنا به في جواب القسم والله اعلم ونظير هذا قوله تعالى ق والقرآن
المجيد بل عجبوا وقيل جواب القسم قد علمنا وقال الاكثر المحذوف دل عليه
قوله ائذا متنا اي لتبعثن وقيل هو بل عجبوا كما تقدم بيانه

فصل ومن ذلك قوله لا اقسم بيوم القيمة ولا
اقسم بالنفس اللوامة فقد تضمن هذا الاقسام ثبوت الجزاء ومستحق
الجزاء وذلك يتضمن اثبات الرسالة والقرآن والمعاد وهو سبحانه يقسم على
هذه الامور الثلاثة ويقررها ابلغ التقرير لحاجة النفوس الى معر
فتها والايمان بها وامر رسوله ان يقسم عليها كما قال تعالى ويستنبئونك
احق هو قل اي وربي انه لحق وقال تعالى وقال الذين كفروا لا تاتينا
الساعة قل بلى وربي لتاتينكم وقال تعالى زعم الذين كفروا ان لن يبعثوا
قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير فهذه ثلاثة مواضع
لا رابع لها امر نبيه ان يقسم على ما اقسم عليه هو سبحانه من النبوة والقرآن والمعاد
فاقسم سبحانه لعباده وامر اصدق خلقه ان يقسم لهم واقام البراهين القطعية
على ثبوت ما اقسم عليه فابى الظالمون الا جحودا او تكذيبا واختلف
في النفس المقسم بها هاهنا هل هي خاصة او عامة على قولين بناء على الا
قوال الثلاثة في اللوامة فقال ابن عباس كل نفس تلوم نفسها يوم القيمة
يلوم المحسن نفسه ان لا يكون ازداد احسانا ويلوم المسيء نفسه ان لا يكون
رجع عن اساءته واختار الفراء ليس من نفس برة ولا فاجرة الا وهي
تلوم نفسها ان كانت عملت خيرا قالت هلا ازددت خيرا وان كانت عملت
سوءا قالت يا ليتني لم افعل والقول الثاني انها خاصة قال الحسن هي النفس
المؤمنة وان المؤمن والله لا تراه الا يلوم نفسه على كل حال لانه يستقصرها
في كل ما تفعل فيندم ويلوم نفسه وان الفاجر يمضي قدما لا يعاتب نفسه

والقول الثالث انها النفس الكافرة وحدها قاله قتادة ومقاتل وهي
النفس الكافرة تلوم نفسها في الآخرة على ما فرطت في امر الله قال
شيخنا والاظهر ان المراد نفس الانسان مطلقا فان نفس كل انسان لوامة
كما اقسم بجنس النفس في قوله ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها
فانه لابد لكل انسان ان يلوم نفسه او غيره على امر ثم هذا اللوم قد يكون محمودا
وقد يكون مذموما كما قال تعالى فاقبل بعضهم على بعض يتلاومون قالوا يا
ويلنا انا كنا طاغين وقال تعالى يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة
لائم فهذا اللوم غير محمود وفي الصحيحين في قصة احتجاج ادم وموسى
اتلومني على امر قدره الله علي قبل ان اخلق فحج ادم موسى فهو سبحانه يقسم
على صفة النفس اللوامة كقوله ان الانسان لربه لكنود وعلى اجزائها كقوله
فوربك لنسألنهم اجمعين وعلى تباين عملها كقوله ان سعيكم لشتى
وكل نفس لوامة فالنفس السعيدة تلوم على فعل الشر وترك الخير فتبادر
الى التوبة والنفس الشقية بالضد من ذلك وجمع سبحانه في القسم بين محل
الجزاء وهو يوم القيمة ومحل الكسب وهو النفس اللوامة ونبه سبحانه
بكونها لوامة على شدة حاجتها وفاقتها وضرورتها الى من يعرفها الخير و
الشر ويدلها عليه ويرشدها اليه ويلهمها اياه فيجعلها مريدة للخير
مرشدة له كارهة للشر مجانبة له لتتخلص من اللوم ومن سوء ما
تلوم عليه ولانها متلومة مترددة لا تثبت على حال واحدة فهي محتاجة
الى من يعرفها ما هو انفع لها في معاشها ومعادها فتؤثره وتلوم نفسها
عليه اذا فاتها فتتوب منه ان كانت سعيدة ولتقوم عليها حجة عدله
فيكون لومها في القيمة لنفسها عليه لوما حق قد اعذر الله خالقها و
فاطرها اليها فيه ففي صفة اللوم تنبيه على ضرورتها الى التصديق

بالرسالة

بالرسالة والقرآن وانها لا غنا لها عن ذلك ولا اصلاح ولا فلاح بدونه البتة
ولما كان يوم معادها هو محل ظهور هذا اللوم وترتب اثره عليه قرن
بينهما في الذكر

فصل

ومن ذلك قوله
تعالى والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها والنهار اذا جلاها الى قوله فالهمها فجورها
وتقواها قال الزجاج وغيره جواب القسم قد افلح من زكاها ولما طال الكلام حسن
حذف اللام من الجواب وقد تضمن هذا القسم الاقسام بالخلاق و
المخلوق فاقسم بالسماء وبانيها والارض وطاحيها والنفس ومسويها
وقد قيل ان ما مصدرية فيكون الاقسام بنفس فعله تعالى فيكون قد اقسم
بالمصنوع الدال عليه وبصنعته الدالة على كمال علمه وقدرته وحكمته وتو
حيده ولما كانت حركة الشمس والقمر والليل والنهار امرا يشهده الناس حد
وثه شيئا فشيئا ويعلمون ان الحادث لابد له من محدث كان العلم بذلك منزلا
منزلة ذكر المحدث له لفظا فلم يذكر الفاعل في الاقسام الاربعة ولهذا لا
يسلك طائفة من النظار الا الاستدلال بالاحداث على الصانع وهو استدلال
صحيح قد نبه عليه القران في غير موضع كقوله ان في خلق السموات والارض
لايات لاولي الالباب ولما كانت السماء والارض ثابتتين حتى ظن من
ظن انهما قديمتان ذكر مع الاقسام بهما بانيهما ومبدعهما وكذلك
النفس فان غير مشهود حتى ظن بعضهم قدمها فذكر مع الاقسام بها
مسويها وفاطرها هنا مع ما في ذكر بناء السماء وطحو الارض وتسوية
النفس من الدلالة على الرحمة والحكمة والعناية بالخلق فان بناء السماء
يدل انها كالقبة العالية على الارض وجعلها سقفا لهذا العالم وطحو
هو مد الارض وبسطها وتوسيعها ليستقر عليها الانام والحيوان
ويمكن فيها البناء والغراس والزرع وهو متضمن لنضوب الماء عنها

حدوثها صح

وهو ما حير عقول الطبايعيين حيث كان مقتضى الطبيعة ان يغمرها
كثرة الماء فبرز من جانب منها على الماء على خلاف مقتضى الطبيعة وكونه
هذا الجانب المعين دون غيره مع استوا الجوانب في الشكل الكري يقتضي
تخصيصا فلم يجدوا بدا بان يقولوا عناية الصانع اقتضت ذلك فلنا
فنواد او ليكن عناية من لا مشيئة له ولا ارادة ولا اختيار ولا علم بمعين
اصلا كما تقولونه فيه محال فعنايته تقتضي ثبوت صفات كماله ونعوت
جلاله وانه الفعال بفعل باختياره ما يريد وكذلك النفس اقسم بها بعلها
وبمن سواها والهمها فجورها وتقواها فان من الناس من يقول
قديمة لا مبدع لها ومنهم من يقول بل هي التي تبدع فجورها وتقواها
فذكر سبحانه انه هو الذي سواها وابدعها وانه هو الذي الهمها الفجور
والتقوى فاعلمنا انه خالق نفوسنا واعمالها وذكر لفظ التسوية كما ذكره
في قوله ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك وفي قوله فاذا
سويته ونفخت فيه من روحي ايذانا بدخول البدن في لفظ النفس كقوله
وهو الذي خلقكم من نفس واحدة وقوله فسلموا على انفسكم ولا تقتلوا
انفسكم ولولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بانفسهم خيرا ونظايره
وباجتماع الروح مع البدن تصير النفس فاجرة او تقية وان فالروح
بدون البدن لا فجور لها وقوله قد افلح من زكاها الضمير مرفوع في زكاها
عايد على من وكذلك هو في دسّها والمعنى قد افلح من زكى نفسه وقد خاب
من دسّها هذا هو القول الصحيح وهو نظير قوله قد افلح من تزكى وهو
سبحانه اذا ذكر الفلاح علقه بفعل المفلح كقوله قد افلح المؤمنون الذين هم
في صلاتهم خاشعون الى اخر الايات وقوله الذين يؤمنون بالغيب و
يقيمون الصلوة ومما رزقناهم ينفقون الى قوله اولئك هم المفلحون

وقوله

وقوله انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا
سمعنا واطعنا واولئك هم المفلحون ونظايره قال الحسن قد افلح من
زكى نفسه وحملها على طاعة الله وقد خاب من اهلكها وحملها على معصية
الله وقاله قتادة وقال ابن قتيبة يريد افلح من زكى نفسه اي انماها
واعلاها بالطاعة والبر والصدقة واصطناع المعروف وقد خاب من دساها
اي نقصها واخفاها بترك عمل البر وركوب المعاصي والفاجر ابدا خفي المكان
زمن المروة غامض الشخص ناكس الراس فكان المتصف بالرذايل دس
نفسه وقمعها ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها وكانت اجواد
العرب تنزل الربى ويفاع الارض لتشهر انفسها للمعتفين وتوقد النيران
في الليل للطارقين فاولئك اعلوا انفسهم وزكوها واولئك اخفوا انفسهم
ودسوها وانشد

وبوّءت بيتك في مَعْلَم رحيب المباحات والمسرح
كفيت العفاة طلاب القرا ونبح الكلاب لمستنبح

وقال ابو العباس سالت ابن الاعرابي عن قوله وقد خاب من دسيها
فقال دس معناه دس نفسه مع الصالحين وليس منهم وعلى هذا فالمعنى اخفى
نفسه في الصالحين يري الناس انه منهم وهو منطو على غير ما ينطوي عليه
الصالحون وقالت طايفة اخرى الضمير يرجع الى الله سبحانه قال ابن عباس في
رواية عطاء قد افلحت نفس زكاها الله واصلحها وهذا قول مجاهد وعكرمة
والكلبي وسعيد ابن جبير ومقاتل قالوا سعدت نفس وافلحت نفس اصلحها
الله وطهرها ووفقها للطاعة حتى عملت بها وخابت وخسرت
نفس اضلها الله واغواها وابطلها واهلكها قال ارباب هذا القول
اقسم الله بهذه الاشياء التي ذكرها لانها تدل على وحدانيته وعلى فلاح

وكانت العرب الاجواد [illegible] للطارقين [illegible]

ابلغ الضمير

من طهرة وخسارة من خذله حتى لا يطمع احد انه هو الذي يتولى تطهير
نفسه واهلاكها بالمعصية من غير قدر سابق وقضاء متقدم قالوا
وهذا ابلغ في التوحيد الذي سيقت له هذه السورة قالوا ويدل
عليه قوله فالهمها فجورها وتقواها قالوا ويشهد له حديث رسول الله
صلى الله عليه وسلم نافع بن عمر عن ابن ابي مليكة عن عائشة انها قالت
انتبهت ليلة فوجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول رب اعط نفسي
تقواها وزكها انت خير من زكاها انت وليها ومولاها قالوا فهذا الدعاء
هو تاويل الاية بدليل الحديث الاخر ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا قرا قد
افلح من زكاها وقف ثم قال اللهم ات نفسي تقواها انت وليها و
مولاها وزكها انت خير من زكاها قالوا وفي هذا ما يبين ان الامر
كله له سبحانه فانه هو خالق النفس وملهمها الفجور والتقوى وهو
مزكيها ومدسيها فليس للعبد في الامر شيء ولا هو مالك من امر
نفسه شيئا قال ارباب القول الاول هذا القول وان كان جائزا في
العربية حملا للضمير المنصوب على معنى من وان كان لفظها مذكرا
كما في قوله ومنهم من يستمعون اليك جمع الضمير وان كان لفظ من
مفردا حملا على معناها فهذا انما يحسن حيث لا يقع لبس في مفسر الظاهر
وههنا قد تقدم لفظ من والضمير المرفوع في زكاها يستحق لفظا
ومعنى فهو اولى به ثم يعود الضمير المنصوب على النفس التي هي اولى
به لفظا ومعنى فهذا هو النظم الطبيعي الذي يقتضيه سياق
الكلام ووضعه واما عود الضمير الذي يلي من على الموصول السابق
وهو قوله وما سواها واخلا جاره الملاصق له وهو عين ما يليه
ثم عود الضمير المنصوب وهو مؤنث على من ولفظها مذكر دون

النفس

النفس المؤنثة فهذا يجوز لو لم يكن للكلام محمل غيره احسن منه
فاما اذا كان سياق الكلام ونظمه يقتضي خلافه ولم تدع الضرورة اليه
فالحمل عليه ممتنع قالوا والقول الذي ذكرناه ارجح من جهة المعنى لوجوه
احدها ان فيه اشارة الى ما تقدم من تعليق الفلاح على فعل العبد واختياره
كما هي طريقة القران الثاني ان فيه زيادة فائدة وهي اثبات فعل
العبد وكسبه وما يثاب وما يعاقب عليه وفي قوله فالهمها فجورها و
تقواها اثبات القضا والقدر السابق فتضمنت الايتان هذين
الاصلين العظيمين وهما كثيرا ما يقترنان في القران كقوله ان هذه
تذكرة فمن شاء ذكره وما يذكرون الا ان يشاء الله وقوله لمن شاء منكم
ان يستقيم وما تشاؤن الا ان يشاء الله رب العالمين فتضمنت الايتا
ن الرد على القدرية والجبرية الثالث ان قولنا يستلزم قولكم دون
العكس فان العبد اذا زكى نفسه ودساها فانما يزكيها بعد تزكية الله
لها بتوفيقه واعانته وانما يدسيها بعد تدسية الله لها بخذلانه و
التخلية بينه وبين نفسه بخلاف ما اذا كان المعنى على القدر السابق
المحض لم يبق للكسب وفعل العبد ههنا ذكر البتة

فصل

وذكر في هذه السورة ثمود دون غيرهم من الامم المكذبة فقال شيخنا
هذا والله اعلم من باب التنبيه بالادنى على الاعلى فانه لم يكن في الامم
المكذبة اخف ذنبا وعذابا منهم اذ لم يذكر عنهم من الذنوب ما ذكر عن عاد ومد
ين وقوم لوط وغيرهم ولهذا لما ذكرهم وعادا قال فاما عاد فاستكبروا في
الارض بغير الحق وقالوا من اشد منا قوة اولم يروا ان الله الذي خلقهم
هو اشد منهم قوة وكانوا باياتنا يجحدون واما ثمود فهديناهم فاستحبوا
العمى على الهدى وكذلك اذا ذكرهم مع الامم المكذبة لم يذكر عنهم ما ذكر عن

بعد ما ذكر

اوليك من التجبر والتكبر وان عمال السيئة كاللواط وبخس المكيال
والميزان والفساد في الارض كما في سورة هود والشعرا وغيرهما
فكان في قوم لوط مع الشرك اتيان الفاحشة التي لم يسبقوا اليها وفي قوم
عاد مع الشرك التجبر والتكبر والتوسع في الدنيا وشدة البطش و
قولهم من اشد منا قوة وفي اصحاب مدين مع الشرك الظلم في الاموال
وفي قوم فرعون مع الشرك الفساد في الارض والعلو وكان عذاب كل امة
بحسب ذنوبهم وجرائمهم فعذب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية التي
لا يقوم لها شيء وعذب قوم لوط بانواع العذاب لم يعذب بها امة غيرهم
فجمع لهم بين الهلاك والرجم بالحجارة من السماء وطمس الابصار وقلب
ديارهم عليهم بان جعل عاليها سافلها والخسف بهم الى اسفل سافلين
وعذب قوم شعيب بالنار التي احرقتهم واحرقت تلك الاموال التي
اكتسبوها بالظلم والعدوان واما ثمود فاهلكوا بالصيحة فماتوا في الحال
فاذا كان هذا عذاب هؤلاء وذنبهم مع الشرك عقر الناقة التي جعلها
الله اية لهم فمن انتهك محارم الله واستخف باوامره ونواهيه وعقر عبا
ده وسفك دماءهم كان اشد عذابا ومن اعتبر احوال العالم قديما وحديثا
وما يعاقب به من سعى في الارض الفساد وسفك الدماء بغير حق
واقام الفتن واستهان بحرمات الله علم ان النجاة في الدنيا والاخرة للذين
امنوا وكانوا يتقون قلت وقد يظهر في تخصيص ثمود ههنا
بالذكر دون غيرهم معنى اخر وهو انهم ردوا الهدى بعدما تيقنوه وكا
نوا مستبصرين به قد تلجلجت له صدورهم واستيقنته انفسهم فا
ختاروا عليه العمى والضلالة كما قال تعالى في وصفهم واما ثمود فهديناهم
فاستحبوا العمى على الهدى وقال واتينا ثمود الناقة مبصرة اي حجة

بلغ

لهم التبصرة

لهم التبصرة واليقين وان كان جميع الامم المهلكة هذا شانهم فان الله
لم يهلك امة الا بعد قيام الحجة عليها لكن خصت ثمود من ذلك الهدى
والبصيرة بمزيد ولهذا لما قرنهم بقوم عاد قال فاما عاد فاستكبروا في
الارض بغير الحق وقالوا من اشد منا قوة ثم قال فاما ثمود فهديناهم
فاستحبوا العمى على الهدى ولهذا امكن عاد المكابرة وان يقولوا لنبيهم
ما جئتنا ببينة ولم يمكن ثمود اذ قد راوا البينة عيانا وصارت لهم بمنزلة
روية الشمس والقمر فردوا الهدى بعد تيقنه والبصيرة التامة فكان في
تخصيصهم بالذكر تحذير لكل من عرف الحق ولم يتبعه وهذا داء اكثر الها
لكين وهو اعم الادوا واغلبها على اهل الارض والله اعلم **فصل**
ومن ذلك قوله تعالى والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل اذا يسر
هل في ذلك قسم لذي حجر قيل جوابه ان ربك لبالمرصاد وهذا ضعيف
لوجهين احدهما طول الكلام والفصل بين القسم وجوابه بجمل كثيرة
والثاني قوله ان ربك لبالمرصاد ذكر تقرير عقوبة الله الامم المذكورة
وهي عاد وثمود وفرعون فذكر عقوبتهم ثم قال مقررا ومحذرا ان ربك
لبالمرصاد فلا يتعلق بذلك دون القسم والحسن من هذا ان يقال
ان الفجر في الليالي العشر من يتضمن افعالا معظمة من المناسك وامكنة
معظمة وهي محلها وذلك من شعاير الله المتضمنة خضوع العبد لربه
فان الحج والنسك عبودية محضة لله وذل وخضوع لعظمته وذلك ضد
ما وصف به عاد وثمود وفرعون من العتو والتكبر والتجبر فان النسك
يتضمن غاية الخضوع لله وهؤلاء الامم عتوا وتكبروا عن امر ربهم وفي
صحيح البخاري عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما من ايام العمل
الصالح فيهن احب الى الله من هذه الايام العشر قيل يا رسول الله ولا ا

قالوا ولا الجهاد في سبيل الله ص

الجهاد في سبيل الله الا رجل خرج بنفسه وماله لم يرجع من ذلك بشيء فالزمان
المتضمن لمثل هذه الاعمال اهلا ان يقسم الرب عز وجل به والفجر ان اريد
به جنس الفجر كما هو ظاهر اللفظ فانه يتضمن وقت صلاة الصبح التي هي اول
الصلوات فافتتح القسم بما يتضمن اول الصلوات وختمه بقوله
والليل اذا يسر المتضمن لآخر الصلوة وان اريد بالفجر فجر مخصوص فهو فجر
يوم النحر وليلته التي هي ليلة عرفة فتلك الليلة من افضل ليالي العام و
ما رؤي الشيطان في ليلة ادحر ولا احقر ولا اغيظ منه فيها وذلك الفجر فجر
يوم النحر الذي هو افضل الايام عند الله كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال افضل الايام عند الله يوم النحر رواه ابو داود باسناد صحيح وهو
اخر ايام العشر وهو يوم الحج الاكبر كما ثبت في صحيح البخاري وغيره وهو اليوم
الذي اذن فيه مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله بريء من المشركين
ورسوله وان لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ولا خلاف
ان المؤذن اذن بذلك في يوم النحر لا يوم عرفة وذلك بامر رسول الله صلى الله عليه
وسلم امتثالا وتأويلا للقرآن وعلى هذا فقد تضمن القسم المناسك و
الصلوة وهما المختصان بعبادة الله والخضوع له والتواضع لعظمته ولهذا
قال الخليل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين وقيل لخاتم
الرسل فصل لربك وانحر بخلاف حال المشركين المتكبرين الذين لا يعبدون
الله وحده بل يشركون به ويستكبرون عن عبادته كحال من ذكر في
هذه السورة من قوم عاد وثمود وفرعون وذكر سبحانه من جملة هذه
الاقسام الشفع والوتر اذ هذه الاشياء المعظمة منها شفع ومنها
وتر في الامكنة والازمنة والاعمال فالصفا والمروة شفع والبيت وتر
والجمرات وتر ومنى ومزدلفة شفع وعرفة وتر واما الاعمال فالطواف

وتر وركعتاه شفع والطواف بين الصفا والمروة وتر ورمي الجمار وتر كل ذلك
سبع سبع وهو اصل فان الله وتر يحب الوتر والصلوة منها شفع ومنها
وتر والوتر يوتر الشفع فتكون كلها وترا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم صلاة
الليل مثنى مثنى فاذا خشيت الصبح فاوتر بواحدة توتر لك ما قد صليت واما
الزمان فان يوم عرفة وتر ويوم النحر شفع وهذا قول اكثر المفسرين وروى
مجاهد عن ابن عباس الوتر ادم وشفع بزوجته حوى وقال في رواية اخرى
الشفع ادم وحوى والوتر الله وحده وعنه رواية ثالثة الشفع يوم النحر و
الوتر اليوم الثالث وقال عمران بن حصين وقتادة الشفع والوتر هي الصلاة
وروي فيه حديث مرفوعا وقال عطية العوفي الشفع الخلق قال الله تعالى
وخلقناكم ازواجا والوتر هو الله وهذا قول الحكم قال كل شيء شفع والله وتر
وقال ابو صالح خلق الله من كل شيء زوجين اثنين والله وتر واحد وهذا قول مجاهد
ومسروق وقال الحسن الشفع والوتر العدد كله من شفع ووتر وقال ابن زيد
الشفع والوتر الخلق كله من شفع ووتر وقال مقاتل الشفع الايام والليالي
والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده وهو يوم القيمة وذكرت اقوال اخر هذه اصولها
ومدارها كلها على قولين احدهما ان الشفع والوتر نوعا المخلوقات والمأمورات
والثاني ان الوتر الخالق والشفع المخلوق وعلى هذا القول فيكون قد جمع في
القسم بين الخالق والمخلوق فهو نظير ما تقدم في قوله والشمس وضحاها وفيما
ذكر في قوله وشاهد ومشهود وما ذكر في قوله والليل اذا يغشى والنهار
اذا تجلى وما خلق الذكر والانثى وقال ههنا والليل اذا يسر وفي سورة
المدثر اقسم بالليل اذ ادبر وفي سورة التكوير اقسم بالليل اذا عسعس
وقد فسر باقبل وفسر بادبر فان كان المراد اقباله فقد اقسم باحوال
الليل الثلاث وهي حالة اقباله وحالة امتداده وسريانه وحالة ادباره

وهي من آيات الدالة عليه سبحانه وعرف الفجر باللام اذ كل احد يعرفه ونكر الليالي
الليالي العشر لانها انما تعرف بالعلم والبعض فان التنكير يعظمها فان التنكير
يكون للتعظيم وفي تعريف الفجر ما يدل على شهرته وانه الفجر الذي يعرفه كل
احد ولا يجهله فلما تضمن هذا القسم ما جاء به ابراهيم ومحمد صلى الله
عليهما وسلم كان في ذلك ما دل على المقسم عليه ولهذا اعقب القسم بقوله تعالى هل
في ذلك قسم لذي حجر فان عظمة هذا المقسم به يعرف بالنبوة وذلك
يحتاج الى حجر يحجر صاحبه عن الغفلة واتباع الهوى ويحمله على اتباع
الرسل لئلا يصيبه ما اصاب من كذب الرسل كعاد وفرعون
وثمود ولما تضمن ذلك مدح الخاضعين والمتواضعين ذكر حال
المستكبرين المتجبرين الطاغين ثم اخبر انه صب عليهم عذاب ونكره
اما للتعظيم واما لانه بعض من عذابه استأصلهم واهلكهم ولم يكن معه
بقاء ولا ثبات ثم ذكر حال الموسع عليهم في الدنيا والمقتر عليهم وان خبره
توسعته على من وسع عليه وان كان اكرامًا له في الدنيا فليس ذلك اكرامًا
على الحقيقة ولا يدل على انه كريم عنده من اهل كرامته ومحبته وان
تقتيره على من قتر عليه لا يدل على اهانته له وسقوط منزلته عنده بل يوسع
ابتلاء وامتحانًا ويقتر ابتلاء وامتحانًا فيبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب فهو
سبحانه هو يبتلي عبده بنعمة تجلب له نقمة وبنعمة تجلب له نعمة وبنقمة
تجلب له نقمة اخرى وبنقمة تجلب له نعمة اخرى فهذا شأن نعمه ونقمه سبحانه
وتضمنت هذه السورة ذم من اغتر بقوته وسلطانه وماله وهم هؤلاء
الامم الثلاثة قوم عاد اغتروا بقوتهم وثمود اغتروا بجناتهم وعيونهم وزروعهم
وبساتينهم وقوم فرعون اغتروا بالمال والرياسة فصارت عاقبتهم الى ما قص الله علينا
وهذا شأنه دائمًا مع كل من اغتر بشيء من ذلك لا بد ان يفسده عليه ويسلبه اياه

ثم ذكر

ثم ذكر سبحانه حال الانسان في معاملته لمن هو اضعف منه كا
اليتيم والمسكين فلا يكرم هذا ولا يحض على اطعام هذا ثم ذكر حرصه على جمع
المال واكله وحبه له وذلك هو الذي اوجب له عدم رحمته لليتيم والمسكين
ثم ختم السورة بمدح النفس المطمئنة وهي الخاشعة المتواضعة لربها وما تؤول
اليه من كرامته ورحمته كما ذكر قبلها حال النفس الامارة وما تؤول اليه
من شدة عذابه ووثاقه **فصل** واما سورة
لا اقسم بهذا البلد فذكر فيها جواب القسم وهو قوله لقد خلقنا الانسان
في كبد وفسر الكبد بالاستواء وانتصاب القامة قال ابن عباس في رواية
مقسم منتصبًا على قدميه وهذا قول ابي صالح والضحاك وابراهيم وعكرمة
وعبد الله بن شداد قال المنذر سمعت ابا طالب يقول الكبد الاستواء والا
ستقامة وفسر بالنصب هذا قول مجاهد وسعيد ابن جبير والحسن
ورواية علي عن ابن عباس قال الحسن لم يخلق الله خلقه يكابد ما يكابد
ابن آدم وقال سعيد ابن ابي الحسن يكابد مصائب الدنيا وشدائد الا
خرة وقال قتادة يكابد امر الدنيا والآخرة فلا تلقاه الا في مشقة
وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال يعني حمله وولادته ورضاعه
وفصاله ونبت اسنانه وحياته ومعاشه ومماته كل ذلك شدة قال
مجاهد حملته امه كرهًا ووضعته كرهًا ومعيشته في شدة فهو يكابد
ذلك وعلى هذا الكبد من مكابدة الامر وهي معاناة شدته ومشقته
والرجل يكابد الليل اذا قاسى هوله وصعوبته والكبد شدة الامر ومنه
تكبد اللبن اذا غلظ واشتد ومنه الكبد لانها دم يغلظ ويشتد والاستواء و
انتصاب القامة والاستواء من ذلك لانه انما يكون عن قوة وشدة فان
الانسان مخلوق في شدة بكونه في الرحم ثم في القماط والرباط ثم هو على

لعله خلقا

خطر عظيم عند بلوغه حال التكليف ومكابدة المعيشة والامر والنهي
ثم مكابدة الموت وما بعده في البرزخ وموقف القيمة ثم مكابدة
~~العذاب~~ النار ولا راحة له الا في الجنة وفسر الكبد بشدة الخلق
واحكامه وقوته ومنه قول لبيد

عين هلا بكيت اربد ... اذ قمنا وقام الخصوم في كبد

اي في شدة وعنا وهذا يشبه قوله تعالى نحن خلقناهم وشددنا اسرهم
قال ابن عباس اي خلقهم وقال ابو عبيدة الاسر شدة الخلق يقال فرس شديد
الاسر قال وكل شيء شددته من قتب او غبيط فهو ماسور وقال المبرد الاسر
القوى كلها وقال الليث الاسر قوة المفاصل والاوصال وشد الله اسر فلان
اي قوى خلقه وكل شيء جمع طرفاها فشد احدها بالاخر فقد اسر وقال الحسن
شددنا اوصالهم بعضهم الى بعض بالعروق والعصب وقال مجاهد هو الشرج
يعني موضع البول والغائط اذا خرج الاذى تقبضا والمقصود
انه سبحانه اقسم في سورة البلد على حال الانسان واقسم سبحانه بالبلد
الامين وهو مكة ام القرى ثم اقسم بالوالد وما ولد وهو آدم وذريته
في قول جمهور المفسرين وعلى هذا فقد تضمن القسم اصل المكان واصل
الانسان فمرجع البلاد الى مكة ومرجع العباد الى آدم وقوله وانت حل بهذا
البلد فيه قولان احدهما انه من الاحلال وهو ضد الاحرام والثاني
انه من الحلول وهو ضد الظعن فان اريد به المعنى الاول فهو حال
ساكني البلد بخلاف المحرم الذي يحج ويعتمر ويرجع ودلالة امنه انما تظهر به
الحرمة عند الحل من ان حرام وانه في حال انه حرام هم في امانه والحرمة
هناك للفعل لا للمكان والمقصود هو ذكر حرمة المكان وهي انما
تظهر بحال الحلال الذي لم يتلبس بما يقتضي امنه وعلى هذا ففيه

تنبيه

لعله بين

تنبيه فانه اذا اقسم به وفيه الحلال فاذا كان فيه الحرام فهو اولى بالتعظيم
والامن وكذلك اذا اريد المعنى الثاني وهو الحلول فهو متضمن
لهذا التعظيم مع تضمنه امرا آخر وهو اقسامه ببلد مشتمل على
رسوله وعبده فهو خير البقاع وقد اشتمل على خير العباد فجعل بيته
هدى للناس ونبيه اماما وهاديا لهم وذلك من اعظم نعمه واحسانه
الى خلقه كما هو اعظم آياته ودلائل وحدانيته وربوبيته فمن اعتبر حال
بيته وحال نبيه وجد ذلك من اظهر ادلة التوحيد والربوبية لمن
اعتبر حال وفي الآية قول ثالث وهو ان المعنى وانت مستحل منك
واذا اخذك من هذا البلد الامين الذي يامن فيه الطير والوحش والجاني
وقد استحل قومك فيه حرمتك وهم لا يعضدون به شجرة ولا ينفرون به
صيدا وهذا مروي عن شرحبيل بن سعد وعلى كل حال فهي جملة اعتراض
في اثناء القسم موقعها من احسن موقع والطفه فهذا القسم متضمن لتعظيم
بيته ورسوله ثم انكر سبحانه على الانسان ظنه وحسبانه ان لن يقدر
عليه من خلقه كذلك في هذا الكبد والشدة والقوة التي يكابدها الامور فان
الذي خلقه كذلك اولى بالقدرة منه واحق فكيف يقدر غيره من لم يكن
قادرا في نفسه فهذا برهان مستقل بنفسه مع انه متضمن للجزاء الذي
مناطه القدرة والعلم فنبه على ذلك بقوله ايحسب ان لن يقدر عليه احد
وبقوله ايحسب ان لم يره احد فيحصي عليه ما عمل من خير وشر ولا يقدر عليه
فيجازيه بما يستحق ثم انكر سبحانه على الانسان قوله اهلكت مالا لبدا
وهو الكثير الذي يلبد بعضه فوق بعض فافتخر هذا الانسان باهلاكه
وانفاقه في غير وجهه اذ لو انفقه في وجوهه التي امر بانفاقه فيها و
وضعه مواضعه لم يكن ذلك اهلاكا له بل تقربا به الى ربه وتوصلا به الى

ببلده

رضاه وثوابه وذلك ليس باهلاك له فانكر سبحانه افتخاره وتبجحه بانفاق
المال في شهواته واغراضه التي انفاقه فيها اهلاك له ثم وبخه سبحانه بقوله
ايحسب ان لم يره احد واتى ههنا بلم الدالة على المضي في مقابلة قوله اهلكت
مالا لبدا فان ذلك في الماضي افيحسب ان لم يره احد فيما انفقه وفيما اهلكه
ثم ذكر برهانا مقررا انه سبحانه احق بالرؤية واولى من هذا العبد الذي له
عينان يبصر بهما فكيف يعطيه البصر من لم يره وكيف يعطيه آلة البيان
من الشفتين واللسان فينطق ويبين عما في نفسه ويامر وينهى
من لا يتكلم ولا يكلم ولا يخاطب ولا يامر ولا ينهى وهل كمال المخلوق مستفاد
الا من كمال الخالق ومن جعل غيره عالما بنجدي الخير والشر وهما طريقاهما
اولى واحق بالعلم منه ومن هداه الى هذين الطريقين كيف يليق به
ان يتركه سدى لا يعرفه ما يضره وما ينفعه في معاشه ومعاده وهل
النبوة والرسالة الا لتكميل هداية النجدين فدل هذا كله على اثبات الخالق
وصفات كماله وصدق رسله وعده ووعيده وهذه اصول الايمان
التي اتفقت عليها جميع الرسل من اولهم الى اخرهم اذا تامل الانسان حاله
وخلقه وجده من اعظم الادلة على صحتها وثبوتها فيكفي الانسان فكرته
في نفسه وخلقه والرسل بعثوا مذكرين بما في الفطر والعقول مكملين له
لتقوم على العبد حجة الله بفطرته ورسالته ومع هذا فقامت عليه حجته
ولم يقتحم العقبة التي بينه وبين ربه التي لا يصل اليه حتى يقتحمها
بالاحسان الى الخلق بفك الرقبة وهو تخليصها من الرق ليخلصه الله من
رق نفسه ورق عدوه واطعام اليتيم والمسكين في يوم المجاعة وبالا
خلاص له سبحانه بالايمان الذي هو خالص حقه عليه وهو تصديق خبره وطاعة
امره وابتغاء وجهه وبنصيحة غيره ان يوصيه بالصبر والرحمة ويقبل وصية

من اوصاه

من اوصاه بها فيكون صابرا رحيما في نفسه معينا لغيره على الصبر والرحمة
فلم يقتحم هذه العقبة وهلك دونها هلك منقطعا عن ربه غير واصل
اليه بل محجوبا عنه والناس قسمان ناج وهم من قطع العقبة وصار
ورآها وهالك وهو من دون العقبة وهم اكثر الخلق ولا يقتحم هذه
الا المصرون فانها عقبة كؤود شاقة لا يقطعها الا خفيف الظهر وهم
اصحاب الميمنة والهالك دون العقبة الذين لم يصدقوا الخبر ولم يطيعوا
الامر فهم اصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة قد اطبقت عليهم فلا
يستطيعون الخروج منها كما اطبقت عليهم اعمال الغي والاعتقادات
الباطلة المنافية لما اخبرت به رسله فلم تخرج قلوبهم منها كذلك اطبقت
عليهم هذه النار فلم تستطع اجسامهم الخروج فتامل هذه السورة على
اختصارها وما اشتملت عليه من مطالب العلم والايمان وبالله التوفيق
وايضا فان طريقة القرآن بذكر العلم والقدرة تهديدا وتخويفا لترتب الجزاء عليهما
كما قال تعالى قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا وقوله تعالى ارايت الذي
ينهى عبدا اذا صلى الى قوله الم يعلم بان الله يرى وقوله تعالى وقل اعملوا فسيرى الله عملكم
ورسوله والمؤمنون وقال ام يحسبون انا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا
لديهم يكتبون وهذا كثير جدا في القرآن وليس من المراد به مجرد الاخبار بالقدرة
والعلم لكن الاخبار مع ذلك بما يترتب عليهما من الجزاء بالعدل فانه اذا كان
قادرا امكن مجازاته واذا كان عالما امكن ذلك بالقسط والعدل
ومن لم يكن قادرا لم يمكن مجازاته واذا كان قادرا لكنه غير عالم بتفاصيل
الاعمال ومقادير جزائها لم يجاز بالعدل والرب تعالى موصوف
بكمال القدرة وكمال العلم فالجزاء منه موقوف على مجرد مشيئته وارادته فحينئذ
يجب على العاقل ان يطلب النجاة منه بالاخلاص والاحسان

العقبة

ثم اقتحام العقبة المتضمن للتوبة الى الله تعالى والاحسان الى الخلق وقال
فلا اقتحم العقبة وهو فعل ماض ولم يكرر معه لا وانما استعمال الاداة
لا كاستعمالها واما اجراء لهذا الفعل مجرى الدعاء نحو فلا سلم ولا عاش و
نحو ذلك واما لان العقبة قد فسرت بمجموع ذلك امور فاقتحامها فعل كل واحد
منها فاغنى ذلك عن تكريرها فكانه قال فلا فك رقبة ولا اطعم ولا كان
من الذين آمنوا وقراءة من قرا فك رقبة بالفعل كانها ارجح من قراءة
من قراها بالمصدر لان قوله وما ادراك ما العقبة على حد قوله وما
ادراك ما الحاقة وما ادراك ما يوم الدين وما ادراك ماهيه نار حامية ونظائرها
تعظيما لشان العقبة وتفخيما لامرها وهي جملة اعتراض بين المفسر
والمفسر فان قوله فك رقبة او اطعام الى قوله ثم كان من الذين آمنوا
تفسير لاقتحام العقبة وليس هو تفسير النفس العقبة فان العقبة
مكان شاق كؤود يقتحمه الناس حتى يصلوا الى الجنة واقتحامه بفعل هذه
الامور فمن فعلها فقد اقتحم العقبة ويدل على ذلك قوله تعالى ثم كان من
الذين آمنوا وهذا عطف على قوله فك رقبة ولا احسن تناسب هذه الجمل
المعطوفة التي هي تفسير ما ذكر ولا بد فان من قراها بالمصدر المضاف
فلا بد له من تقدير وهو وما ادراك ما اقتحام العقبة واقتحامها فك رقبة
وايضا فمن قراها بالفعل فقد طابق بين المفسر وجميع ما فسره ومن قراها
بالمصدر فقد طابق بين المفسر وبعض ما فسره فان التفسير ان كان لقوله
اقتحم طابق بقوله ثم كان من الذين آمنوا وما بعده دون فك رقبة وما يليه
وان كان لقوله العقبة طابق فك رقبة واطعام دون قوله ثم كان من
الذين آمنوا وما بعده وان كانت المطابقة حاصلة معنى فمطابقتها لفظا
ومعنى اتم واحسن واختلف في هذه العقبة هل هي في الدنيا او في

الآخرة

بلغ

الآخرة فقالت طائفة العقبة ههنا مثل ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس
والشيطان في اعمال البر وحكوا عنه ذلك عن الحسن ومقاتل قال الحسن
عقبة والله شديدة مجاهدة الانسان نفسه وهواه وعدوه والشيطان
وقال مقاتل هذا مثل ضربه الله يريد ان المعتق رقبة والمطعم اليتيم
والمسكين يقاحم نفسه وشيطانه مثل ان يتكلف صعود العقبة فشبه
المعتق رقبة في شدته عليه بالمكلف صعود العقبة وهذا قول
ابي عبيدة وقالت طائفة بل هي عقبة حقيقية يصعدها الناس قال
عطاء هي عقبة جهنم ~~وقال مجاهد والضحاك هي الصراط يضرب على جهنم وهذا~~
~~لعله قول الكلبي~~ وقال الكلبي هي عقبة بين الجنة والنار وهذا قول
مقاتل انها عقبة جهنم وقال مجاهد والضحاك هي الصراط يضرب على جهنم
وهذا لعله قول الكلبي وقول هؤلاء اصح نظرا واثرا ولغة قال قتادة فانها
عقبة شديدة فاقتحموها بطاعة الله وفي اثر معروف ان بين ايديكم عقبة
كؤودا لا يقتحمها الا المخفون او نحو هذا وان الله سمى الايمان به وفعل ما امر
وترك ما نهى عقبة فكثيرا ما يقع في كلام السلف الوصية بالتخفف لاقتحام
العقبة وقال بعض الصحابة وقد حضره الموت فجعل يبكي ويقول ما لي لا
ابكي وبين يدي عقبة كؤود اهبط منها اما الى الجنة واما الى النار وهذا القول
اقرب الى الحقيقة والآثار السلفية والمألوف من عادة القرآن في استعماله
وما ادراك في الامور الغائبة العظيمة كما تقدم والله اعلم

فصل ومن ذلك اقسامه بالتين والزيتون
وطور سينين وهذا البلد الامين فاقسم سبحانه بهذه الامكنة الثلاثة
العظيمة التي هي مظاهر انبيائه ورسله اصحاب الشرائع العظام والامم
الكثيرة فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين ومنبتهما

بلغ

وهو ارض بيت المقدس فانها اكثر البقاع زيتونا وتينا وقد قال جماعة
من المفسرين انه سبحانه اقسم بهذين النوعين من الثمار لمكان العبرة
فيهما فان التين فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص لا عجم له وهو على
مقدار اللقمة وهو فاكهة وقوت وغذاء وادم ويدخل في الادوية ومزاجه
من اعدل الامزجة وطبعه طبع الحياة الحرارة والرطوبة وشكله من
احسن الاشكال ويفضل اكله والنظر اليه في باب المفرحات وله لذة يمتاز
بها عن سائر الفواكه ويزيد في القوة ويوافق الباه ويمنع من البواسير
والنقرس ويؤكل رطبا ويابسا واما الزيتون ففيه من الايات ما هو
ظاهر لمن اعتبر فان عوده يخرج ثمرا يعصر منه هذا الدهن الذي هو
مادة النور وصبغ للآكلين وطيب ودواء وفيه من مصالح الخلق ما لا
يخفى وشجره باق على مر السنين المتطاولة وورقه لا يسقط وهذا الذي
قالوه حق ولا ينافي ان يكون منبته مرادا فان منبت هاتين الشجرتين
حقيق بان يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة فيكون الاقسام
قد تناول الشجرتين ومنبتهما وهو مظهر عبد الله ورسوله وكلمته وروحه
عيسى بن مريم كما ان طور سينين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى فانه
الجبل الذي كلمه عليه وناجاه وارسله الى فرعون وقومه ثم اقسم بالبلد الا
مين وهو مكة مظهر خاتم انبيائه ورسله سيد ولد آدم وترقى
في هذا القسم من الفاضل الى الافضل فبدأ بموضع مظهر المسيح ثم ثنى
بموضع مظهر الكليم ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله واكرم الخلق عليه
ونظير هذا بعينه في التوراة التي انزلها الله على كليمه موسى جاء الله من
طور سينا واشرق من ساعير واستعلن من فاران فمجيئه من طور
سينا بعثته لموسى بن عمران وبدأ به على حكم الترتيب الواقع ثم ثنى بنبوة

المسيح

المسيح ثم ختمه بنبوة محمد وجعل نبوة ~~محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم بعدها~~ موسى
بمنزلة مجيء الصبح ونبوة المسيح بعده بمنزلة طلوع الشمس واشراقها
ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم بعدها بمنزلة استعلائها وظهورها للعالم
ولما كان الغالب على بني اسرائيل حكم الحس ذكر ذلك مطابقا للواقع ولما كان
على الامة المحمدية حكم العقل ذكرها على الترتيب العقلي واقسم بها على بداية
الانسان ونهايته فقال لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم اي
في احسن صورة وشكل واعتدال معتدل القامة مستوي الخلقة كامل
الصورة احسن من كل حيوان سواه والتقويم تصيير الشيء على ما ينبغي ان
يكون في التاليف والتعديل وذلك صنعه تبارك وتعالى في قبضة
من تراب وصنعه بالمشاهدة في نطفة من ماء وذلك من اعظم الايات
الدالة على وجوده وقدرته وحكمته وعلمه وصفات كماله ولهذا يكررها كثيرا في
القرآن لمكان العبرة بها والاستدلال باقرب الطرق على وحدانيته وعلى
المبدأ والمعاد وتضمن اقسامه بتلك الامكنة الثلاثة الدالة عليه وعلى علمه
وحكمته وعنايته بخلقه بان ارسل منها رسلا انزل عليهم وانزل عليهم كتبه
يعرفون العباد بربهم وحقوقه عليهم وينذرونهم باسه ونقمته ويدعونهم
الى كرامته وثوابه ثم لما كان الناس في اجابة هذه الدعوة فريقين منهم
من اجاب ومنهم من ابى ذكر حال الفريقين فذكر حال الاكثرين و
هم المردودون الى اسفل سافلين والصحيح انها النار قاله مجاهد والحسن
وابو العالية قال علي بن ابي طالب رضي الله عنه هي النار بعضها اسفل من
بعض وقالت طائفة منهم قتادة وعكرمة وعطاء والكلبي وابراهيم انه
ارذل العمر وهو مروي عن ابن عباس والصواب القول
الاول لوجوه احدها ان ارذل العمر لا يسمى اسفل سافلين لا في لغة ولا عرف

وانما اسفل سافلين هو سجين الذي هو مكان الكفار الفجار كما ان
عليين مكان الابرار الثاني ان المردودين الى اسفل العمر بالنسبة الى نوع
الانسان قليل جدا فاكثرهم يموت ولا يرد الى ارذل العمر الثالث ان
الذين آمنوا وعملوا الصالحات يستوون هم وغيرهم في رد من طال
عمره منهم الى ارذل العمر فليس ذلك مختصا بالكفار حتى يستثني منهم المؤمنين
الرابع ان الله سبحانه لما اراد ذلك لم يخصه بالكفار بل جعله لجنس بني ادم فقال
ومنكم من يرد الى ارذل العمر يتوفى ومنكم من يرد الى ارذل العمر لكيلا يعلم
من بعد علم شيئا فجعلهم قسمين قسم متوفى قبل الكبر وقسما مردود الى
ارذل العمر ولم يسمه اسفل سافلين الخامس انه لا يحسن المقابلة بين ار
ذل العمر وبين اجر المؤمنين وهو سبحانه قابل بين جزاء هؤلاء و
جزاء اهل الايمان فجعل جزاء الكفار اسفل سافلين وجزاء المؤمنين اجر
غير ممنون السادس ان قول من فسره بارذل العمر يستلزم خلو الاية
عن جزاء الكفار وعاقبة امرهم وتفسيرها بامر محسوس فيكون قد
ترك الاخبار عن المقصود الاهم واخبر عن امر يعرف بالحس والمشاهدة
وفي ذلك هضم لمعنى الاية وتقصير بها عن المعنى اللائق بها فبين انه
سبحانه ذكر حال الانسان في مبداه ومعاده فمبدا خلقه في احسن
تقويم ومعاده رده الى اسفل سافلين او الى اجر غير ممنون وهذا موافق
لطريقة القران وعادته في ذكر مبدا العبد ومعاده فما لارذل العمر وهذا
المعنى المطلوب المقصود اثباته والاستدلال عليه الثامن ان من
ارباب القول الاول مضطرون الى مخالفة الحس واخراج الكلام عن
ظاهره والتكلف البعيد له فانهم ان قالوا ان الذي يرد الى ارذل العمر
هم الكفار دون المؤمنين كابروا الحس وان قالوا ان النوعين من يرد

الى ارذل العمر

الى ارذل العمر احتاجوا الى التكلف لصحة الاستثناء منهم من قدر ذلك
بان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تبطل اعمالهم اذا ردوا الى ارذل
العمر بل تجري عليهم اعمالهم التي كانوا يعملونها في الصحة فهذا وان كان حقا
فان الاستثناء انما وقع من الرد لا من الاجر والعمل ولما علم ارباب هذا القول
ما فيه من التكلف خص بعضهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات بقراءة القران
خاصة فقالوا من قرا القران لا يرد الى ارذل العمر وهذا ضعيف من وجهين
احدهما ان الاستثناء عام في المؤمنين قارئهم واميهم الثاني انه لا دليل على ما ادعي
وهذا لا يعلم بالحس ولا خبر يجب التسليم له يقتضيه والله اعلم التاسع
انه سبحانه ذكر نعمته على الانسان بخلقه في احسن تقويم وهذه النعمة توجب
عليهم ان يشكروها بالايمان وعبادته وحده لا شريك له فينقلهم
حينئذ من هذه الدار الى اعلى عليين فاذا لم يؤمن به واشرك به وعصى
رسله نقله منها الى اسفل سافلين وبدله بعد هذه الصورة التي هي في احسن
تقويم صورة من اقبح الصور في اسفل سافلين فتلك نعمته عليه وهذا
عدله فيه وعقوبته على كفران نعمته العاشر ان نظير هذه الاية قوله تعالى
فبشرهم بعذاب اليم الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم اجر غير ممنون
فالعذاب الاليم هو اسفل سافلين والمستثنون هنا هم المستثنون هناك
والاجر غير ممنون هناك هو المذكور هنا والله اعلم وقوله غير ممنون
اي غير مقطوع ولا منقوص ولا مكدر عليهم وهذا هو الصواب وقالت
طائفة غير ممنون به عليهم بل هو جزاء اعمالهم ويذكر هذا عن عكرمة ومقاتل
وهو قول كثير من القدرية قالوا هو لان المنة تكدر النعمة فتمام النعمة
ان يكون غير ممنون بها على المنعم عليه وهذا القول خطأ قطعا
الجأ اربابه من تشبيه نعمة الله على عبده بانعام المخلوق على المخلوق

وهذا من ابطل الباطل فان المنة التي تكدر النعمة هي منة المخلوق على
المخلوق واما منة الخالق على المخلوق فبها تمام النعمة ولذتها وطيبها
فانها منة حقيقية قال تعالى يمنون عليك ان اسلموا قل لا تمنوا علي اسلامكم
بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين وقال تعالى ولقد مننا
على موسى وهرون ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم فتكون منته عليهما
بنعمة الدنيا دون نعمة الاخرة وقال لموسى ولقد مننا عليك مرة اخرى
وقال اهل الجنة فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم وقال تعالى لقد من
الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا منهم الاية وقال ونريد ان نمن على
الذين استضعفوا في الارض الاية وفي الصحيح ان النبي صلى الله عليه
وسلم قال للانصار الم اجدكم ضلالا فهداكم الله بي الم اجدكم عالة فاغناكم
الله بي فجعلوا يقولون الله ورسوله امن فهذا جواب العارفين
بالله ورسوله وهل المنة كل المنة الا لله المنان بفضله الذي جميع الخلق في
منته وانما قبحت منة المخلوق لانها منة بما ليس منه وهي منة يتاذى
بها الممنون عليه واما منة المنان بفضله التي ما طاب العيش الا بمنته
وكل نعمة منه في الدنيا والاخرة فهي منة يمن بها على من انعم عليه فتلك
لا يجوز نفيها وكيف يجوز ان يقال انه لا منة لله على الذين امنوا وعملوا
الصالحات في دخول الجنة وهل هذا الا من ابطل الباطل فان قيل هذا
القدر لا يخفى على من قال هذا القول من العلماء وليس مرادهم ما ذكرتم وانما مرادهم
انه لا يمن عليهم به وان كانت لله فيه المنة عليهم فانه لا يمن عليهم به
بل يقال هذا جزاء اعمالكم التي عملتموها في الدنيا وهذا اجركم فانتم
تستوفون اجوركم اعمالكم لا نمن بها عليكم بما اعطيناكم قبل وهذا
ايضا هو الباطل بعينه فان ذلك الاجر ليست الاعمال ثمنا له ولا معاوضة

عن

عنه وقد قال اعلم الخلق بالله لن يدخل احد منكم الجنة بعمله قالوا ولا انت
يا رسول الله قال ولا انا الا ان يتغمدني الله برحمة منه وفضل فاخبر ان دخول
الجنة برحمة الله وفضله وذلك محض منته عليه وعلى سائر عباده وكما انه
سبحانه المان بارسال رسله وبالتوفيق لطاعته وبالاعانة عليها فهو
المان باعطاء الجزاء وذلك كله محض منته وفضله وجوده لا حق لاحد عليه
بحيث اذا وفاه اياه لم يكن له عليه منة فان كان في الدنيا باطل فهذا منه
فان قيل كيف تقولون هذا وقد اخبر رسوله عنه بان حق العباد عليه
اذا وحدوه ان لا يعذبهم وقد اخبر عن نفسه ان حقا عليه نصر المؤمنين قيل لعمر الله
وهذا من اعظم منته على عباده ان جعل على نفسه حقا بحكم وعده الصادق
ان يثيبهم ولا يعذبهم اذا عبدوه ووحدوه فهذا من تمام منته فانه لو عذب
اهل سمواته وارضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولكن منته اقتضت ان احق على
نفسه ثواب عابديه واجابة سائليه

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا ولا سعي لديه ضائع
ان عذبوا فبعدله او نعموا ... فبفضله وهو الكريم الواسع

وقوله سبحانه فما يكذبك بعد بالدين اصح القولين انه خطاب للانسان
اي فما يكذبك بالجزاء والمعاد بعد هذا البيان وهذا البرهان فتقول
انك لا تبعث ولا تحاسب ولو تفكرت في مبدا خلقك وصورتك لعلمت ان الذي
خلقك اقدر على ان يعيدك بعد موتك وينشئك خلقا جديدا وان ذلك لو
اعجزه لاعجزه واعياه خلقك الاول وايضا فان الذي كمل خلقك في احسن
تقويم بعد ان كنت نطفة من ماء مهين كيف يليق به ان يتركك سدى
لا يكملك بالامر والنهي وبيان ما ينفعك ويضرك ولا ينقلك الى دار هي اكمل
من هذه ويجعل هذه الدار طريقا لك اليها فحكمة احكم الحاكمين تابى ذلك

وتقتضي خلافه قال منصور قلت لمجاهد فما يكذبك بعد بالدين عني به محمداً
فقال معاذ الله انما عني به الانسان وقال قتادة الضمير للنبي صلى الله عليه وسلم
واختاره الفرا وهذا موضع يحتاج الى شرح وبيان يقال كذب الرجل وكذب بحق
اذا قال الكذب وكذبته انا اذا نسبته الى الكذب ولو اعتقدت صدقه وكذ
بته اذا اعتقدت كذبه وان كان صادقا قال تعالى وان يكذبوك فقد كذبت
رسل من قبلك وقال فانهم لا يكذبونك فالاول بمعنى وان ينسبوك الى الكذب
والثاني بمعنى لا يعتقدون انك كاذب ولكنهم يعاندون ويدفعون الحق بعد
معرفته جحوداً وعناداً هذا اصل هذه اللفظة ويتعدى الفعل الى الخبر عنه
بنفسه والى الخبر بالبا او بفي فيقال كذبته بكذا وكذبته فيه والاول
اكثر استعمالا ومنه قوله بل كذبوا بالحق لما جاءهم وقوله
وكذبوا باياتنا اذا عرف هذا فقوله فما يكذبك اختلف في ما هل هي بمعنى
اي شيء يكذبك او بمعنى من الذي يكذبك فمن جعلها بمعنى اي شيء تعين
على قوله ان يكون الخطاب للانسان اي فاي شيء يجعلك بعد هذا البيان
مكذبا بالدين وقد وضحت لك دلائل الصدق والتصديق ومن جعلها
بمعنى من الذي يكذبك جعل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم قال الفرا كأنه
يقول من يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب بعدما تبين له من خلق
الانسان ما وصفناه وقال قتادة فمن يكذبك ايها الرسول بعد هذا بالدين
وعلى قول قتادة والفرا اشكال من وجهين احدهما اقامة ما مقام من
والامر سهل والثاني ان الجار والمجرور يستدعي متعلقا وهو يكذبك
اي فمن يكذبك بالدين فلا يخلو اما ان يكون المعنى فمن يجعلك كاذبا
بالدين او مكذبا به ولا يصح واحد منهما اما الثاني والثالث فظاهر فانه
كذبته ليس معناه جعلته مكذبا او مكذبا وانما معناه نسبته الى الكذب

فالمعنى

فالمعنى على هذا فمن يجعلك بعد كاذبا بالدين وهذا انما يتعدى اليه بالبا الفعل
المضاعف لا الثلاثي فلا يقال كذب بكذا وانما يقال كذب به وجواب هذا
الاشكال ان قوله كذب بكذا معناه كذب المخبر به ثم حذف المفعول به
لظهور العلم به حتى كأنه نسي منسي وعدوا الفعل الى المخبر به فاذا قيل
من يكذبك بكذا فهو بمعنى كذبوك بكذا سوى اي نسبوك الى الكذب
في الاخبار به بل الاشكال في قول مجاهد والجمهور فان الخطاب اذا كان
للانسان وهو المكذب اي فاعل التكذيب فكيف يقال له ما يكذبك
اي يجعلك مكذبا والمعروف كذبه اذا جعله كاذبا لا مكذبا ومثل فسقه
اذا جعله فاسقا لا مفسقا لغيره وجواب هذا الاشكال ان صدق
وكذب بالتشديد يراد به معنيان احدهما النسبة وهي انما تكون للمفعول
كما ذكرتم والثاني الداعي والحامل على ذلك وهو يكون للفاعل قال الكسائي
يقال ما صدقك بكذا او ما كذبك بكذا اي ما حملك على التصديق والتكذ
يب قلت وهو نظير ما جراك على هذا اي ما حملك على ان جترا عليه وما قدمك
وما اخرك اي ما دعاك وحملك على التقديم والتاخير وهذا استعمال سائغ
موافق للعربية وبالله التوفيق ثم ختم السورة بقوله اليس الله باحكم الحا
كمين وهذا تقرير لمضمون السورة من اثبات النبوة والتوحيد والمعاد
وحكمه يتضمن نصره رسوله على من كذبه وجحد ما جاء به بالحجة والقدرة و
الظهور عليه وحكمه بين عباده في الدنيا وشرعه وامره وحكمه بينهم في الاخرة
بثوابه وعقابه وان احكم الحاكمين لا يليق به تعطيل هذه الاحكام بعدما
ظهرت حكمته في خلق الانسان في احسن تقويم ونقله في اطوار التخليق حالا
بعد حال الى اكمل احواله فكيف يليق باحكم الحاكمين ان لا يجازي المحسن باحسانه
والمسيء باسائته وهل ذلك الا قدح في حكمه وحكمته فلله ما اخصر لفظ هذه

السورة واعظم شانها واتم معناها والله اعلم **فصل**
ومن ذلك قسمه سبحانه وتعالى بالليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى وما خلق
الذكر والانثى وقد تقدم ذكر المقسم عليه وانه سعي الانسان في الدنيا وجزاه
في العقبى فهو سبحانه يقسم بالليل في جميع احواله اذ هو من اياته الدالة عليه
فاقسم به وقت غشيانه واتى بصيغة المضارع لانه يغشى شيا بعد شي
واما النهار فانه اذا طلعت الشمس ظهر وتجلى وهلة واحدة ولهذا
قال في سورة الشمس وضحاها والنهار اذا جلاها والليل اذا يغشاها و
اقسم به وقت سريانه كما تقدم واقسم به وقت ادباره واقسم به اذا
عسعس فقيل معناه ادبر فيكون مطابقا لقوله والليل اذ ادبر و
الصبح اذا اسفر وقيل معناه اقبل فيكون كقوله والليل اذا يغشى والنهار
اذا تجلى فيكون قد اقسم باقبال الليل والنهار وعلى الاول يكون القسم واقعا
على انصرام الليل ومجي النهار عقيبه وكلاهما من ايات ربوبيته ثم اقسم
بخلق الذكر والانثى وذلك يتضمن الاقسام بالحيوان كله على اختلاف
اصنافه ذكره وانثاه وقابل بين الذكر والانثى كما قابل بين الليل
والنهار وكل ذلك من ايات ربوبيته فان اخراج الليل والنهار بواسطة
الاجرام العلوية كاخراج الذكر والانثى بواسطة الاجرام السفلية
فاخرج من الارض ذكور الحيوان واناثه على اختلاف انواعه كما اخرج
من السماء الليل والنهار بواسطة اجرام الشمس فيها واقسم سبحانه
بزماني السعي وهو الليل والنهار وبالساعي وهو الذكر والانثى على
اختلاف السعي كما اختلف الليل والنهار والذكر والانثى وسعيه وزمانه
مختلف وذلك دليل على اختلاف جزائه وثوابه وانه سبحانه لا يسوي
بين من اختلف سعيه في الجزاء كما لا يسوي بين الليل والنهار والذكر

والانثى ثم اخبر عن تفريقه بين عاقبة سعي المحسن وعاقبة سعي المسي فقال
فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى واما من بخل
واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى فتضمنت الايتان ذكر
شرعه وقدره وذكر الاعمال وجزائها وحكمة القدر في تيسير هذا
لليسرى وهذا للعسرى وان العبد ميسر باعماله لغاياتها ولا يظلم ربك
احدا وذكر للتيسير لليسرى ثلاثة اسباب احدها اعطا العبد وحذف
مفعول الفعل ارادة للاطلاق والتعميم اي اعطى ما امر به وسمحت به
طبيعته وطاوعته نفسه وذلك يتناول اعطاه من نفسه الايمان
والطاعة والاخلاص والتوبة والشكر واعطاه الاحسان والنفع
بماله ولسانه وبدنه ونيته وقصده فتكون نفسه نفسا مطيعة
باذلة لا لئيمة مانعة فالنفس المطيعة هي النافعة المحسنة التي
طبعها الاحسان واعطاء الخير اللازم والمتعدي فتعطي خيرها لنفسها
ولغيرها فهي بمنزلة العين التي ينتفع الناس بشربهم منها وسقي دوابهم
وانعامهم وزرعهم فهم ينتفعون بها كيف شاوا فهي ميسرة لذلك و
هكذا الرجل المبارك ميسر للنفع حيث حل فجزا هذا ان ييسره الله لليسرى
كما كانت نفسه ميسرة للعطا السبب الثاني التقوى وهي
اجتناب ما نهى الله عنه وهذا من اعظم اسباب التيسير وضده من
اسباب التعسير فالمتقي ميسر عليه امور دنياه واخرته وتارك التقوى
وان يسرت عليه بعض امور دنياه تعسر عليه من امور اخرته بحسب ما تركه
من التقوى واما تيسير ما تيسر عليه من امور الدنيا فلو اتقى الله لكان
تيسيرها عليه اتم ولو قدر انها لم تتيسر له فقد يسر الله له من الدنيا
ما هو انفع له مما ناله بغير التقوى فان طيب العيش ونعيم القلب ولذة الروح

وفرحها وابتهاجها من اعظم نعيم الدنيا وهو اجل من نعيم ارباب الدنياه
بالشهوات واللذات وقال تعالى ومن يتق الله يجعل له من امره يسرى
فاخبر انه ييسر على المتقي ما لا ييسر على غيره وقال تعالى ومن يتق الله يجعل
له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب وهذا ايضا تيسير عليه بتقواه
وقال تعالى ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له اجرا وهذا تيسير عليه
بازالة ما يخشاه واعطائه ما يحب ويرضاه وقال يا ايها الذين
آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم و
يغفر لكم وهذا تيسير بالفرقان المتضمن النجاة والنصر والعلم والنور
الفارق بين الحق والباطل وتكفير السيئات ومغفرة الذنوب وذلك
غاية التيسير وقال تعالى واتقوا الله لعلكم تفلحون والفلاح غاية
اليسر كما ان الشقا غاية العسر وقال تعالى يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله
وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به
ويغفر لكم فضمن لهم سبحانه بالتقوى ثلاثة امور اعطاهم نصيبين من
رحمته نصيبا في الدنيا ونصيبا في الآخرة وقد يضاعف لهم نصيب
الآخرة فيصير نصيبين الثاني اعطاهم نورا يمشون به في الظلمات
الثالث مغفرة ذنوبهم وهذا غاية التيسير فقد جعل سبحانه التقوى
سببا لكل يسر وترك التقوى سببا لكل عسر السبب الثالث
التصديق بالحسنى وفسرت بلا اله الا الله وفسرت بالجنة وفسرت
بالخلف وهي اقوال السلف واليسرى صفة لموصوف محذوف اي
الحالة والخلة اليسرى وهي فعلى من اليسر والاقوال الثلاثة
ترجع الى افضل الاعمال وافضل الجزا فمن فسرها بلا اله الا الله فقد
فسرها بمفرد يأتي بكل جمع فان التصديق الحقيقي بلا اله الا الله

يستلزم

يستلزم التصديق بشعبها وفروعها كلها وجميع اصول الدين وفروعه
من شعب هذه الكلمة فلا يكون العبد مصدقا بها حقيقة
التصديق حتى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ولا يكون
مؤمنا بالله اله العالمين حتى يؤمن بصفات جلاله ونعوت كماله
ولا يكون مؤمنا بان الله لا اله الا هو حتى يسلب خصائص الالهية
عن كل موجود سواه ويسلبها عن اعتقاده وارادته كما هي منفية
في الحقيقة والخارج ولا يكون مصدقا بها من نفى الصفات العليا
ولا من نفى كلامه وتكليمه ولا من نفى استواءه على عرشه وانه يرفع
اليه الكلم الطيب والعمل الصالح وانه رفع المسيح اليه واسرى برسوله صلى الله
عليه وسلم اليه وانه يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه الى سائر
ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ولا يكون مؤمنا بهذه
الكلمة مصدقا بها على الحقيقة من نفى عموم خلقه لكل شيء وقدرته على كل
شيء وعلمه بكل شيء وبعثه الاجساد من القبور ليوم النشور ولا
يكون مصدقا بها من زعم انه يترك خلقه سدى لم يأمرهم ولم ينههم
على السنة رسله وكذلك التصديق بها يقتضي الاذعان والاقرار
بحقوقها وهي شرائع الاسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة بالتصديق
بجميع اخباره وامتثال اوامره واجتناب نواهيه هو تفصيل لا اله الا الله
فالمصدق بها على الحقيقة الذي يأتي بذلك كله وكذلك لم تحصل عصمة
المال والدم على الاطلاق الا بها وبحقها فالعقوبة في الدنيا والا
خرة على تركها او ترك حقها ومن فسر الحسنى بالجنة فسرها باعلى انواع
الجزاء وكماله ومن فسرها بالخلف ذكر نوعا من الجزاء فهذا جزاء دنيوي
والجنة الجزاء في الآخرة فرجع التصديق بالحسنى الى التصديق

وكذلك لا يحصل الغنى الحقيقي الا بعد الغنى على الاطلاق الا بها وبحقها ونعيمها صح

بالقيام صح

بالايمان وجزائه والتحقيق انها تتناول الامرين وتأمل ما اشتملت
عليه هذه الكلمات الثلاث وهي الاعطا والتقوى والتصديق بالحسنى
من العلم والعمل وتضمنته من الهدى ودين الحق فان النفس لها ثلاث
قوى قوة البذل والاعطا وقوة الكف والامتناع وقوة الادراك
والفهم ففيها قوة العلم والشعور ويتبعها قوة الحب والارادة وقوة
البغض والنفرة فهذه القوى الثلاثة عليها مدار صلاحها وسعادتها
وبفسادها يكون فسادها وشقاوتها ففساد قوة العلم والشعور
~~ويتبعها قوة الحب والارادة وقوة البغض~~ يوجب له التكذيب با
لحسنى وفساد قوة الطلب والارادة يوجب له ترك الاعطا وفساد قوة
البغض والنفرة يوجب له ترك الاتقا فاذا كملت قوة حبه وارادته باعطائه
ما امر به وقوة بغضه ونفرته باتقائه ما نهي عنه وقوة علمه وشعوره
بتصديقه بكلمة الاسلام وحقوقها وجزائها فقد زكى نفسه واعدها
لكل حالة يسرى فصارت النفس بذلك ميسرة لليسرى ولما كان الدين
يدور على ثلاث قواعد فعل المامور وترك المحظور وتصديق الخبر وان شئت
قلت الدين طلب وخبر والطلب نوعان طلب فعل وطلب ترك تضمنت هذه
الكلمات الثلاث مراتب الدين اجمع فان الاعطا فعل المامور والتقوى
ترك المحظور والتصديق بالحسنى تصديق الخبر فانتظم ذلك الدين كله
واكمل الناس من كملت له هذه القوى الثلاث ودخل النقص بحسب
نقصانها او بعضها فمن الناس من يكون قوة اعطائه وبذله اتم من قوة
انكفافه وتركه فقوة الترك فيه اضعف من قوة الاعطا ومن الناس
من يكون قوة الترك والانكفاف اتم من قوة الاعطا والمنع ومن الناس
من يكون فيه قوة ~~الترك والا~~ التصديق اتم من قوة الاعطا والمنع

[margin: العلم الحب] [margin: فيهم]

فقوته

فقوته العلمية والشعورية اتم من قوته الارادية وبالعكس فيدخل له
النقص بحسب ما نقص من قوة هذه القوى الثلاث ويفوته من
التيسير لليسرى بحسب ما فاته منها ومن كملت له هذه القوى يسر لكل
يسرى قال ابن عباس فسنيسره لليسرى اي نهيئه لعمل الخير نيسر عليه
اعمال الخير وقال مقاتل والكلبي والفرا نيسره للعود الى العمل الصالح وحقيقة
اليسرى انها الخلة والحالة السهلة النافعة الواقعة له وهي ضد العسرى و
ذلك يتضمن تيسيره للخير واسبابه فيجري الخير وييسر على قلبه ويديه
ولسانه وجوارحه فتصير خصال الخير ميسرة عليه مذللة له منقادة لا
تستعصي عليه ولا تستصعب لانه مهيأ لها ميسر لفعلها يسلك سبلها
ذللا وتنقاد له علما وعملا فاذا خالفته قلت هو الذي قيل فيه

مبارك الطلعة ميمونها … يصلح للدنيا وللدين

واما من بخل فعطل قوة الارادة والاعطا عن فعل ما امر به واستغنى
بترك التقوى عن ربه فعطل قوة الانكفاف والترك عن فعل ما نهي عنه
وكذب بالحسنى فعطل قوة العلم والشعور عن التصديق بالايمان وجزائه
فنيسره للعسرى قال عطا سوف احول بين قلبه وبين الايمان بي وبر
سولي وقال مقاتل نعسر عليه ان يعطي خيرا وقال عكرمة عن ابن عباس نيسره
للشر قال الواحدي وهذا هو القول لان الشر يؤدي الى العذاب فهو الخلة
العسرى والخير يؤدي الى اليسر والراحة في الجنة فهو الخلة اليسرى يقول
سنهيئه للشر بان نجريه على يديه قال الفرا العرب تقول قد يسرت
غنم فلان اذا تهيأت للولادة وكذلك اذا ولدت وغزرت البانها
اي يسرت ذلك على اصحابها انتهى والتيسير للعسرى يكون بامرين احدهما
ان يحول بينه وبين اسباب الخير فيجري الشر على قلبه ونيته ولسانه

وجوارحه والثاني ان يحول بينه وبين الجزاء الذي يسر له حال بينه وبين
اسبابه فان قيل كيف قابل اتقى باستغنى وهل يكون العبد ان يستغني
عن ربه طرفة عين قيل هذا من احسن المقابلة فان المتقي لما استشعر
فقره وفاقته وشدة حاجته الى ربه اتقاه ولم يتعرض لسخطه وغضبه ومقته
بارتكاب ما نهاه عنه فان من كان شديد الحاجة والضرورة الى شخص
فانه يتقي غضبه وسخطه عليه غاية التقوى ويجانب ما يكرهه غاية المجانبة
ويعتمد فعل ما يحبه ويؤثره فقابل التقوى بالاستغنا تشنيعا لحال تارك
التقوى ومبالغة في ذمه بان فعل فعل المستغني عن ربه لا فعل الفقير
المضطر اليه الذي لا ملجا له الا اليه ولا غنى له عن فضله وجوده وبره طرفة
عين فلله ما احلا هذه المقابلة وما اجمع ها تين الايتين للخيرات كلها
واسبابها والشرور كلها واسبابها فسبحان من تعرف الى خصائص عباده
بكلامه وتجلى لهم فيه ثم لا يطلبون اثرا بعد عين ولا يستبدلون الحق با
الباطل والصدق بالمين وقد تضمنت ها تان الايتان فصل الخطاب
في مسئلة القدر وان التي كل لبس واشكال فيها وذلك بين بحمد الله لمن
وفق لفهمه ولهذا اجاب بها النبي صلى الله عليه وسلم لما اورد عليه سوال الذي
لا يزال الناس يلهجون به في القدر فاجاب بفصل الخطاب وازال الا
شكال ففي الصحيحين من حديث علي بن ابي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى
الله عليه وسلم انه قال ما منكم من احد الا وقد علم مقعده من الجنة والنار
قيل يا رسول الله افلا ندع العمل ونتكل على الكتاب قال اعملوا فكل ميسر
لما خلق له ثم قرا فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره
لليسرى فقد تضمن هذا الحديث الرد على القدرية والجبرية واثبات
القدر والشرع واثبات الكتاب الاول المتضمن لعلم الله سبحانه الا شيا

قبل كونها

بلغ

قبل كونها واثبات خلق الفعل بجزائه دون الابتداء هدم اصلهم ونقض
قاعدتهم والنبي صلى الله عليه وسلم اخبر بمثل ما اخبر به الرب تعالى ان العبد ميسر
لما خلق له لا مجبور فالجبر لفظ بدعي والتيسير لفظ القرآن والسنة وفي
الحديث دلالة على ان الصحابة كانوا اعلم الناس باصول الدين فانهم تلقوها
عن اعلم الخلق بالدين على الاطلاق وكانوا اذا استشكلوا شيا سالوا عنه
وكان يجيبهم بما يزيل الاشكال ويبين الصواب فهم العارفون باصول
الدين حقا لا اهل البدع والاهوا من المتكلمين ومن سلك سبيلهم وفي
الحديث استدلال النبي صلى الله عليه وسلم على مسائل اصول الدين بالقران
وارشاده الصحابة الى استنباطها منه خلافا لمن زعم ان كلام الله ورسوله
لا يفيد العلم بشي من اصول الدين ولا يجوز ان يستفاد معرفة الله واسمائه
وصفاته وافعاله منه وعبر عن ذلك بقوله ان الادلة اللفظية لا تفيد اليقين
وفي الحديث بيان ان من الناس من خلق للسعادة ومنهم من خلق للشقا
وة خلافا لمن زعم انهم كلهم خلقوا للسعادة ولكن اختاروا الشقاوة ولم يخلقوا
لها وفيه اثبات الاسباب وان العبد ميسر للاسباب الموصلة الى ما
خلق له وفيه دليل على اشتقاق السنة من الكتاب ومطابقتها له فتامل
قوله اعملوا فكل ميسر لما خلق له ومطابقته لقوله تعالى فاما من اعطى واتقى
الى اخر الايتين كيف انتظم الشرع والقدر والسبب والمسبب وهذا الذي
ارشد اليه النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي فطر الله عليه عباده بالحيوان البهيم
بل مصالح الدنيا وعمارتها بذلك فلو قال كل احد ان قدر لي كذا وكذا فلا بد
ان اناله وان لم يقدر فلا سبيل الى نيله فلا اسعى ولا اتحرك لعد من السفها
الجهال ولم يمكنه طرد ذلك ابدا وان اتى به في امر معين فهل يمكنه ان
يطرد ذلك في مصالحه جميعها من طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه

وهو يبطل اصول القدرية الذين يمنعون خلق الفعل مطلقا ومن اقر منهم بخلق الفعل الجزاء دون الابتداء صح

بلغ

وهو به ما يضاد بقاه وينافي مصالحه ام يجد نفسه عن منفعة البتة
عن قول النبي صلى الله عليه وسلم اعملوا فكل ميسر لما خلق له فاذا كان هذا في
مصالح الدنيا واسباب منافعها فالموجب للتعطيل في مصالح الآخرة و
اسباب السعادة والفلاح ورب الدنيا والآخرة واحد فكيف يعطل ذلك
في شرع الرب وامره ونهيه ويستعمل في ارادة العبد واغراضه وشهواته
وهل هذا الا محض الظلم والجهل والانسان ظلوم جهول ظلوم لنفسه
جهول بربه فهذا الذي ارشد اليه النبي صلى الله عليه وسلم وتلى عنده هاتين الآيتين
يتبين موافقا لما جعل الله في عقول العقلاء وركب عليه فطر الخلائق حتى الحيوان
البهيم وارسل به جميع رسله وانزل به جميع كتبه ولو اتكل العبد على القدر ولم
يعمل لتعطلت الشرائع ولتعطلت مصالح العالم وفسد امر الدنيا والدين وانما
يستروح الى ذلك معطلوا الشرائع ومن خلع ربقة الاوامر والنواهي عن عنقه
وذلك ميراث من اخوانهم المشركين الذين دفعوا امر الله ونهيه وعارضوا الشرع
بقضائه وقدره كما حكى الله سبحانه ذلك عنهم في غير موضع من كتابه كقوله
تعالى سيقول الذين اشركوا لو شاء الله ما اشركنا ولا اباؤنا ولا حرمنا من
شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا باسنا قل هل عندكم من علم
فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان انتم الا تخرصون قل فلله الحجة البالغة
فلو شاء لهداكم اجمعين وقال تعالى وقال الذين اشركوا لو شاء الله ما عبدنا
من دونه من شيء نحن ولا اباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل
الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البلاغ المبين وقال تعالى ولو شاء الرحمن
ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون وقال تعالى واذا قيل لهم انفقوا
مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا انطعم من لو يشاء الله اطعمه
ان انتم الا في ضلال مبين فان قيل فالله عطى واتقى وصدق بالحسنى

هي من اليسرى

قالوا

بلغ ٤

بلغ ٤

هي من اليسرى بل هي اصل اليسرى من يسرها للعبد اولا وكذلك اضدادها قيل
الله سبحانه هو الذي يسر للعبد اسباب الخير والشر وخلق خلقه قسمين اهل
سعادة فيسرهم لليسرى واهل شقاوة فيسرهم للعسرى واستعمل هؤلاء في
الاسباب التي خلقوا لغاياتها لا يصلحون لسواها وهؤلاء في الاسباب
التي خلقوا لغاياتها لا يصلحون لسواها وحكمته الباهرة تابى ان يضع عقوبته
في موضع لا تصلح له كما تابى ان يضع كرامته وثوابه في محل لا يصلح له ولا يليق به بل
حكمة احاد خلقه تابى ذلك ومن جعل محل المسك والرجيع واحدا فهو من
اسفه السفهاء فان قيل فلم جعل هذا لا يليق به الا الكرامة وهذا لا يليق به
الا الاهانة قيل هذا سؤال جاهل لا يستحق الجواب كانه يقول لم خلق ابه كذا وكذا
فان قيل وعلى هذا فهل لهذا الجاهل من جواب لعله يشفى من جهله قيل نعم شان
الربوبية خلق الاشياء واضدادها وخلق الملزومات ولوازمها وذلك هو محض
الكمال فالعلو لازم وملزوم للسفل والليل لازم وملزوم للنهار وكمال هذا
الوجود بالحر والبرد والصحو والغيم ومن لوازم الطبيعة الحيوانية الصحة والمرض
واختلاف الارادات فالمرادات ووجود اللازم بدون ملزومه ممتنع ولولا خلق
المتضادات لما عرف كمال القدرة والمشيئة والحكمة ولما ظهرت احكام الاسماء و
الصفات وظهور احكامها وآثارها لابد منه اذ هو مقتضى الكمال المقدس
والملك التام واذا اعطيت اسم الملك حقه ولن تستطيع علمت ان الخلق والامر
والثواب والعقاب والعطاء والحرمان امر لازم لصفة الملك وان صفة
الملك تقتضي ذلك ولابد وان تعطل هذه الصفة امر ممتنع فالملك الحق
يقتضي ارسال الرسل وانزال الكتب وامر العباد ونهيهم وثوابهم وعقابهم واكرام
من يستحق الاكرام واهانة من يستحق الاهانة كما تستلزم صفة الملك علمه
وارادته وقدرته وسمعه وبصره وكلامه ورحمته ورضاه وغضبه واستواءه

على سرير ملكه يدبر امر عباده وهذه الاشارة تكفي اللبيب في مثل هذا
الموضع ويطلع منها على رياض مونقة وكنوز من المعرفة وبالله التوفيق

فصل ثم قال تعالى ان علينا للهدى وان لنا للآخرة
والاولى قيل معناه ان علينا ان نبين طريق الهدى من طريق الضلالة
قال قتادة على الله البيان بيان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته اختاره
ابو اسحق وهو قول مقاتل وجماعة وهذا المعنى حق ولكن مراد الآية شيء
اخر وقيل المعنى ان علينا للهدى والاضلال قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية
عطاء يريد ارشد اوليائي الى العمل بطاعتي واحول بين اعدائي وبين ان
يعملوا بطاعتي قال الفراء فترك ذكر الاضلال كما قال سرابيل تقيكم الحر اي والبرد
وهذا اضعف من القول الاول وان كان معناه صحيحا فليس هو معنى
الآية وقيل المعنى من سلك الهدى فعلى الله سبيله كقوله وعلى الله قصد السبيل
وهذا قول مجاهد وهو اصح الاقوال في الآية قال الواحدي علينا للهدى
اي ان الهدى يوصل صاحبه الى الله والى ثوابه وجنته وهذا المعنى في القرآن
في ثلاث مواضع ههنا وفي النحل قوله وعلى الله قصد السبيل وفي الحجر في
قوله هذا صراط علي مستقيم وهو معنى شريف جليل يدل على ان سالك طريق
الهدى يوصله طريقه الى الله ولا بد والهدى هو الصراط المستقيم فمن سلكه اوصله
الى الله فذكر الطريق والغاية فالطريق الهدى والغاية الوصول الى الله فهذه اشرف
الوسائل وغايتها اعلى الغايات ولما كان مطلوب السالك الى الله تحصيل مصالح
دنياه واخرته لم يتم له هذا المطلوب الا بتوحيد طلبه والمطلوب منه
فاعلمه سبحانه ان سواه لا يملك من الدنيا والآخرة شيئا وان الدنيا والآخرة
جميعا له وحده فاذا تيقن العبد ذلك اجتمع طلبه ومطلوبه على من يملك
الدنيا والآخرة وحده فتضمنت الآيات اربعة امور هي المطالب العالية

ذكر

ذكر اعلى الغايات وهو الوصول الى الله سبحانه واقرب الطرق والوسائل اليه
وهي طريق الهدى وتوحيد الطريق فلا يعدل عنها الى غيرها وتوحيد المطلوب
وهو الحق فلا يعدل عنه الى غيره فاقتبس هذه الامور من مشكاة هذه
الكلمات فان هذا غاية العلم والفهم وبالله التوفيق والهدى التام يتضمن تو
حيده للمطلوب وتوحيد الطلب وتوحيد الطريق الموصل والانقطاع و
تخلف الوصول يقع من الشركة في هذه الامور او في بعضها فالشركة
في المطلوب تنافي التوحيد والاخلاص والشركة في الطلب تنافي الصدق
والعزيمة والشركة في الطريق تنافي اتباع الامر فالاول يوقع في الشرك
والرياء والثاني يوقع في المعصية والبطالة والثالث يوقع في البدعة ومفا
رقة السنة فتامله فتوحيد المطلوب يعصم من الشرك وتوحيد الطلب
يعصم من المعصية وتوحيد الطريق يعصم من البدعة والشيطان انما
ينصب فخه بهذه الطرق الثلاثة ولما اقام سبحانه الدليل وانار السبيل
واوضح الحجة وبين المحجة انذر عباده عذابه الذي اعده لمن كذب
خبره وتولى عن طاعته وجعل هذا الصنف من الناس هم اشقاهم كما
جعل اسعدهم اهل التقوى والاحسان والاخلاص فهذا الصنف هو
الذي يجنب عذابه كما قال وسيجنبها الاتقى الذي يؤتي ماله يتزكى
فهذا المتقي المحسن ولا يفعل ذلك الا ابتغاء وجه ربه فهو مخلص في
تقواه واحسانه وفي الآية ارشاد الى ان صاحب التقوى لا ينبغي
له ان يتحمل من الخلق نعمهم وان حمل منهم شيئا بادر الى جزائهم عليه لئلا
يبقى لاحد من الخلق عليه نعمة تجزى فيكون بعد ذلك عمله كله لله وحده
ليس جزاء لمخلوق على نعمة وبه يتقوى تجزى على ان نعمة الاسلام التي
لرسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا الاتقى لا تجزى فان كل ذي نعمة يمكن

جزاء نعمة الاسلام فانها لا يمكن المنعم بها عليه ان يجزا بها وهذا يدل
على ان الصديق اول واولى من ذكر في هذه الاية وانه احق الامة
بها فان عليا رضي الله عنه تربى في بيت النبي صلى الله عليه وسلم فلرسول
الله صلى الله عليه وسلم عنده نعمة غير نعمة الاسلام يمكن ان تجزى ونبه
سبحانه بقوله الا ابتغاء وجه ربه الاعلى على ان من ليس لمخلوق عليه
نعمة تجزى لا يفعل ما يفعله الا ابتغاء وجه ربه الاعلى بخلاف من تطوق
نعم المخلوقين ومننهم فانه مضطر الى ان يفعل لاجلهم ويترك لاجلهم ولهذا
كان من كمال الاخلاص ان لا يجعل العبد عليه منة لاحد من الناس
لتكون معاملته كلها لله ابتغاء وجهه وطلب مرضاته فكما ان هذه الغا
يات اجل وهذا المطلوب اشرف المطالب فهذه الطريق اقصد الطرق اليه
واقربها واقومها وبالله التوفيق **فصل** ومن ذلك
اقسامه سبحانه بالضحى والليل اذا سجى على انعامه على رسوله صلى الله عليه وسلم
واكرامه له واعطائه ما يرضيه وذلك متضمن لتصديقه له فهو قسم على صحة
نبوته وعلى جزائه في الاخرة فهو قسم على النبوة والمعاد واقسم بايتين
عظيمتين من اياته دالتين على ربوبيته وحكمته ورحمته وهما الليل
والنهار فتأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام
الليل للمقسم عليه وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه حتى قال اعداؤه
ودع محمدا ربه فاقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره
بعد ظلمة احتباسه واحتجابه وايضا فان فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار
هو الذي يفلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة فهذان للحس
وهذان للعقل وايضا فان الذي اقتضت رحمته ان لا يترك عباده
في ظلمة الليل سرمدا بل هداهم بضوء النهار الى مصالحهم ومعايشهم

لا يليق

لا يليق به ان يتركهم في ظلمة الجهل والغي بل يهديهم بنور الوحي والنبوة الى
مصالح دنياهم واخرتهم فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه
وتأمل هذه الجزالة والروعة التي على هذه الالفاظ والجلالة التي على
معانيها ونفى سبحانه ان يكون ودع نبيه او قلاه فالتوديع الترك والقلى
البغض فما تركه منذ اعتنى به واكرمه ولا ابغضه منذ احبه واطلق سبحانه
ان الاخرة خير له من الاولى وهذا يعم كل احواله وان كل حالة يرقيه
اليها هي خير له مما قبلها كما ان الدار الاخرة خير له مما قبلها ثم وعده
بما تقر به عينه وتفرح به نفسه وينشرح به صدره وهو ان يعطيه
فيرضى وهذا يعم ما يعطيه من القران والهدى والنصر وكثرة الاتباع ورفع
ذكره واعلاء كلمته وما يعطيه بعد مماته وما يعطيه في موقف القيمة وما
يعطيه في الجنة واما ما يغتر به الجهال من انه لا يرضى وواحد من امته
في النار او لا يرضى ان يدخل احد من امته النار فهذا من غرور الشيطان
لهم ولعبه بهم فانه صلوات الله وسلامه عليه يرضى بما يرضى به ربه
تبارك وتعالى وهو سبحانه يدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة ثم
يحد لرسوله حدا يشفع فيهم ورسوله اعرف به وبحقه من ان يقول لا ارضى
ان يدخل احدا من امتي النار او يدعه فيها بل ربه تبارك وتعالى ياذن له فيشفع
فيمن شاء الله ان يشفع فيه ولا يشفع في غير من اذن له ورضيه ثم ذكر
سبحانه نعمه عليه من ايوائه بعد يتمه وهدايته بعد الضلالة واغنائه بعد
الفقر فكان محتاجا الى من يؤويه ويهديه ويغنيه فاواه ربه وهداه
واغناه فامره سبحانه ان يقابل هذه النعم الثلاث بما يليق بها من الشكر
فنهاه ان يقهر اليتيم وان ينهر السائل وان يكتم النعمة بل يحدث بها فاوصاه
سبحانه باليتامى والفقراء والمتعلمين قال مجاهد ومقاتل لا تحقر اليتيم

فقد كنت يتيماً وقال الفراء لا تقهره على ماله فتذهب بحقه لضعفه وكذلك كانت
العرب تفعل في أمر اليتامى تأخذ أموالهم وتظلمهم فغلظ الخطاب في أمر
اليتيم وكذلك من لا ناصر له يغلظ في أمره وهو يعني لجميع المستضعفين وأما
السائل فلا تنهر قال أكثر المفسرين هو سائل المعروف والصدقة لا تنهره
إذا سألك فقد كنت فقيراً فإما أن تطعمه وإما أن ترده رداً ليناً قال الحسن
أما إنه ليس بالسائل الذي يأتيك ولكن طالب العلم وهذا قول يحيى بن آدم
قال إذا جاءك طالب العلم فلا تنهره والتحقيق أن الآية تتناول النوعين
وقوله وأما بنعمة ربك فحدث قال مجاهد بالقرآن وقال الكلبي يعني أظهرها
والقرآن أعظم ما أنعم الله به عليه فأمره أن يقرأه ويعلمه وروى أبو بشر عن مجاهد
حدث بالنبوة التي أعطاك الله وقال الزجاج بلغ ما أرسلت به
وحدث بالنبوة التي آتاك وهي أجل النعم وقال مقاتل اشكر هذه النعمة
التي ذكرت في هذه السورة والتحقيق أن النعم تعم هذا كله فأمره أن يثني
سائل المعروف والعلم وأن يحدث بنعم الله عليه في الدين والدنيا

فصل ومن ذلك إقسامه سبحانه
بالعاديات ضبحاً والموريات قدحاً فالمغيرات صبحاً وقد اختلف
الصحابة ومن بعدهم في ذلك فقال علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود
رضي الله عنهما هي الإبل الحاج تعدو من عرفة إلى مزدلفة ومن مزدلفة إلى منى
وهذا اختيار محمد بن كعب وابن صالح وجماعة من المفسرين وقال عبد الله
ابن عباس هي خيل الغزاة وهذا قول أصحاب ابن عباس والحسن وجماعة
واختاره الفراء والزجاج قال أصحاب الإبل السورة مكية ولم يكن ثم جهاد
ولا خيل تجاهد وإنما أقسم بما يعرفونه ويألفونه وهي الإبل الحاج إذا عدت
من عرفة إلى مزدلفة فهي عاديات والضبح والضبع مد الناقة ضبعها

في السير

في السير يقال ضبحت وضبعت بمعنى واحد وأنشد أبو عبيدة وقد اختار
هذا القول ۞ فكان تكم أجرى جميعاً وأنجحت ۞ بي البازل الوجناء في الآل تضبح
قالوا فهي تعدو ضبحاً فتوري بأخفافها النار من حك الأحجار بعضها
ببعض فتثير النقع وهو الغبار بعدوها فتوسط جمعاً وهو
المزدلفة قال أصحاب الخيل المعروف في اللغة أن الضبح أصوات أنفاس الخيل
إذا عدون والمعنى والعاديات ضابحة فيكون ضبحاً مصدراً على الأول
وحالاً على الثاني قالوا والخيل هي التي تضبح في عدوها ضبحاً وهو صوت
يسمع من أجوافها ليس بالصهيل والحمحمة ولكن صوت أنفاسها في
أجوافها من شدة العدو وقال الجرجاني كلا القولين قد جاء في التفسير
إلا أن السياق يدل على أنها الخيل وهو قوله تعالى فالموريات قدحاً والإيراء
لا يكون إلا للحافر لصلابته وأما الخف ففيه لين واسترخاء انتهى قالوا
والضبح في الخيل أظهر منه في الإبل والإيراء لسنابك الخيل أبين منه لأخفاف
الإبل قالوا والنقع هو الغبار وإثارة الخيل بعدوها أظهر من إثارة
أخفاف الإبل والضمير في به عائد على المكان الذي تعدو فيه قالوا وأعظم
ما يثير الغبار عند الإغارة إذا توسطت الخيل جمع العدو لكثرة حركتها
واضطرابها في ذلك المكان وأما حمل الآية في إثارة الغبار في وادي محسر
عند الإغارة فليس بالبين ولا يثور هناك غبار في الغالب لصلابة
المكان قالوا وأما قولكم إنه لم يكن بمكة حين نزول الآية جهاد ولا خيل تجاهد
فهذا لا يلزم لأنه سبحانه أقسم بما يعرفونه من شأن الخيل إذا كانت في غزو
فأغارت فأثارت النقع وتوسطت جمع العدو وهذا أمر معروف وذكر
خيل المجاهدين أحق ما دخل في هذا الوصف فذكره على وجه التمثيل لا الا
ختصاص فإن هذا شأن خيل المقاتلة وأشرف أنواع الخيل خيل المجاهدين

لا يلزم

والقسم انما وقع بما تضمنه شأن هذه العاديات من الآيات البينات
من خلق هذا الحيوان الذي هو من اكرم البهائم واشرفه وهو الذي
يحصل به العز والظفر والنصر على الاعداء فتعدو طالبا للعدو
وهاربة منه فتثير عدوها الغبار لشدته وتوري حوافرها وسنابكها
النار من الاحجار لشدة عدوها فتدرك الغارة التي طلبتها حتى تتوسط
جمع الاعداء فهذا من اعظم آيات الرب تعالى وادلة قدرته وحكمته فذكرهم
بنعمه عليهم في خلق هذا الحيوان الذي ينتصرون به على اعدائهم ويدركون
به ثارهم كما ذكرهم سبحانه بنعمه عليهم في خلق الابل التي تحمل اثقالهم من
بلد الى بلد فالابل اخص بحمل الاثقال والخيل اخص بنصرة الرجال
فذكرهم بنعمه هنا وهنا وخص الاغارة بالصبح لان العدو لم ينتشروا
اذ ذاك ولم يفارقوا محلهم واصحاب الاغارة حاملون مستريحون يتبصرون
مواقع الغارة والعدو لم ياخذوا اهبتهم بل هم في غرتهم وغفلتهم ولهذا
كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا اراد الغارة صبر حتى يطلع الفجر فان سمع مؤذنا
امسك والا اغار ولما علم اصحاب الابل ان اخفافها العدو شيء من وري
النار تأولوا الاية على وجه بعيد فقال محمد بن كعب هم الحاج اذا اوقدوا
نيرانهم ليلة المزدلفة وعلى هذا فيكون التقدير فالجماعات الموريات
وهذا خلاف الظاهر وانما الموريات هي العاديات وهي المغيرات وروى
سعيد بن جبير عن ابن عباس هم الذين يغيرون فيورون بالليل نيرانهم
لطعامهم وحاجتهم كانهم اخذوه من قوله تعالى افرايتم النار التي تورون
وهذا ان اريد به التمثيل وان الاية تدل عليه فصحيح وان اريد به اختصاص
الموريات فليس كذلك لان الموريات هي العاديات بعينها ولهذا عطفها
عليها بالفاء التي للتسبب فانها عدت فأورت وقال قتادة الموريات

هي

هي الخيل توري نار العداوة بين المقتتلين وهذا ليس بشيء وهو بعيد من معنى
الاية وسياقها واضعف منه قول عكرمة هي الالسنة توري نار العداوة
بعظيم ما تتكلم به واضعف منه ما ذكر عن مجاهد هي افكار الرجال
توري نار المكر والخديعة في الحرب وهذه الاقوال ان اريد ان اللفظ دل
عليها وانها هي المراد فغلط وان اريد انها اخذت من طريق الاشارة و
القياس فامرها قريب وتفسير الناس يدور على ثلاثة اصول تفسير على
اللفظ وهو الذي ينحو اليه المتاخرون وتفسير على المعنى وهو الذي يذكره
السلف وتفسير على الاشارة والقياس وهو الذي ينحو اليه كثير من الصوفية
وغيرهم وهذا لا باس به باربعة شرائط ان لا يناقض معنى الاية وان
يكون معنى صحيحا في نفسه وان يكون في اللفظ اشعار به وان يكون بينه
وبين معنى الاية ارتباط وتلازم فاذا اجتمعت هذه الامور الاربعة
كان استنباطا حسنا واضعف من ذلك كله قول ابن جريج قدحا يعني
فالمنجحات امرا يريد البالغين بنجحهم فيما طلبوه وعطف قوله فاثرن فوسطن
وهما فعلان على العاديات والموريات لما فيه من معنى الفعل وكان ذكر الفعل
في اثرن ووسطن احسن من ذكر الاسم لانه سبحانه قسم افعالها الى قسمين
وسيلة وغاية فالوسيلة هي العدو وما يتبعه من الايراء والاغارة و
الغاية هي توسط الجمع وما يتبعه من اثارة النقع فهي عاديات موريات
مغيرات حتى يتوسطن الجمع ويثرن النقع فالاول شانهن الذي
اعددن له والثاني فعلهن الذي انتهين اليه والله اعلم

فصل فهذا شان القسم واما شان المقسم عليه
فهو حال الانسان وهو كون الانسان كنودا يشهد ربه على نفسه
او شهادة ربه عليه وكونه بخيلا بحب المال والكنود للنعمة وفعله

كند يكند كنودا مثل كفر يكفر كفورا والأرض الكنود التي لا تنبت شيئا
وامراة كندا اي كفور للمعاشرة واصل اللفظ منع الحق والخير ورجل كنود
اذا كان مانعا لما عليه من الحق وعبارات المفسرين تدور على هذا
المعنى قال ابن عباس رضي الله عنه واصحابه رحمهم الله تعالى هو الكفور وقيل
هو البخيل الذي يمنع رفده ويجيع عبده ولا يعطي في النائبة وقال
الحسن هو اللوام لربه يعد المصائب وينسى النعم واما قوله وانه على ذلك
لشهيد فقال ابن عباس يريد ان ربه على ذلك لشهيد وقيل ان الانسان
لشهيد على ذلك ان انكر بلسانه شهد به عليه حاله ويؤيد
هذا القول سياق الضماير فان قوله وانه لحب الخير لشديد للانسان
فافتتح الخبر عن الانسان بكونه كنودا ثم ثناه بكونه شهيدا على ذلك ثم
ختمه بكونه بخيلا بماله لحبه اياه ويؤيد قول ابن عباس رضي الله عنه
انه البعلي فقال وانه على ذلك لشهيد اي مطلع عالم به كقوله ثم الله شهيد
على ما يفعلون ولو اريد شهادة الانسان لاتى بالباء فقيل وانه بذلك
لشهيد كما قال تعالى ما كان للمشركين ان يعمروا مساجد الله شاهدين
على انفسهم بالكفر فلو اراد شهادة الانسان لقال وانه على نفسه لشهيد
فان كنوده المشهود به ونفسه هي المشهود عليها ثم قال تعالى وانه لحب الخير
لشديد والخير ههنا المال باتفاق المفسرين والشديد البخيل من اجل
المال محب المال هو الذي حمله على البخل هذا قول الاكثرين وقال ابن قتيبة
بل المعنى انه لشديد الحب للخير فتكون اللام في قوله لحب الخير متعلقة بقوله
لشديد على حد تعلق قولك انه لزيد لضارب ومنعت طائفة من النحاة
ان يعمل ما بعد اللام فيما قبلها وهذه الايات حجة على الجواز فان قوله
لربه معمول لكنود وقوله على ذلك معمول لشهيد ولا وجه للتكلف البارد

في تقدير

في تقدير عامل مقدم محذوف يفسره هذا المذكور فالحق جواز ان لزيد
لضارب فوصف سبحانه الانسان بكفران نعم ربه وبخله بما اتاه من الخير
فلا هو شكور للنعم ولا محسن الى خلقه بل بخيل بشكره بخيل بماله وهذا
ضد المؤمن الكريم فانه مخلص لربه محسن الى خلقه فالمؤمن له الاخلاص
والاحسان والفاجر له الكفر والبخل وقد ذم الله سبحانه هذين الخلقين
المهلكين في غير موضع من كتابه كقوله فويل للمصلين الذين هم عن
صلاتهم ساهون الذين هم يراؤن ويمنعون الماعون فلا اخلاص
والاحسان وكذلك قوله تعالى والله لا يحب كل مختال فخور الذين يبخلون
ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما اتاهم الله من فضله فاختيا له
وفخره من كفره وكنوده وهذا ضد قوله الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون
الصلاة ومما رزقناهم ينفقون وقوله واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا
وبالوالدين احسانا الاية وكذلك ذكر الخلقين الذميمين في قوله الذين
ينفقون اموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ونظيره وما
ذا عليهم لو امنوا بالله واليوم الاخر وانفقوا مما رزقهم الله ونظيره ويل
لكل همزة لمزة الذي جمع مالا وعدده فان الهمزة واللمزة من الفخر والكبر وجمع
المال وتعديده من البخل وذلك مناف لسر الصلاة والزكوة ومقصودهما
ثم خوف سبحانه الانسان الذي هذا وصفه حين يبعثر ما في القبور ويحصل
ما في الصدور اي ميز وجمع وبين واظهر ونحو ذلك وجمع سبحانه بين القبور
والصدور كما جمع بينهما النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ملا الله اجوافهم وقبورهم
نارا فان الانسان يواري في صدره ما فيه من الخير والشر ويواري قبره جسمه
فيخرج الرب جسمه من قبره وسره من صدره فيصير جسمه بارزا على الارض
وسره باديا على جبينه كما قال تعالى يعرف المجرمون بسيماهم وقال سنسمه

لما نقص [illegible] والمنفق بالمعنى [illegible]

على آخر طوم

فصل ومفعول العلم ان علمت فيه اللام وكسرت لمكان اللام وقيد سبحانه كونه خبيرا بهم ذلك اليوم وهو خبير بهم في كل وقت إيذانا بالجزاء وانه يجازيهم في ذلك اليوم بما يعلمه منهم فذكر العلم والمراد لازمه والله سبحانه وتعالى اعلم

فصل ومن ذلك اقسامه بالعصر على حال الانسان في الآخرة وهذه السورة على غاية اختصارها لها شأن عظيم حتى قال الشافعي رحمه الله لو فكر الناس كلهم فيها لكفتهم والعصر المقسم به قيل هو الوقت الذي يلي المغرب من النهار وقيل هو آخر ساعة من ساعاته وقيل المراد صلاة العصر واكثر المفسرين على انه الدهر وهذا هو الراجح وتسمية الدهر عصرا أمر معروف في لغتهم قال ولن يلبث العصران يوم وليلة اذا طلبا ان يدركا ما تيمما ويوم وليلة بدل من العصران فاقسم سبحانه بالعصر لمكان العبرة والآية فيه فان مرور الليل والنهار على تقدير قدرة العزيز العليم منتظم لمصالح العالم على اكمل ترتيب ونظام وتعاقبهما واعتدالهما تارة واخذ احدهما من صاحبه تارة واختلافهما في الضوء والظلام والحر والبرد وانتشار الحيوان وسكونه وانقسام العصر الى القرون والسنين والاشهر والايام والساعات وما دونها آية من آيات الرب تعالى وبرهان من براهين قدرته وحكمته فاقسم بالعصر الذي هو زمان افعال الانسان ومحلها على عاقبة تلك الافعال وجزائها ونبه بالمبدأ وهو خلق الزمان والفاعلين وافعالهم على المعاد وان قدرته كما لم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المعاد والحكمة التي اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وافعالهم وجعلها قسمين خيرا وشرا تأبى ان يسوي بينهم وان لا يجازي المحسن باحسانه والمسيء باساءته وان يجعل النوعين رابحين او خاسرين بل الانسان من حيث هو انسان

خاسر

يشهده الله وملائكته والانس والجن والوحش من آياته في المشهود من آياته وايضا فكلامه مشهود كما قال تعالى وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار فالمشهود من اعظم آياته وكذلك الشاهد فكل ما وقع عليه اسم شاهد ومشهود فهو داخل في هذا القسم فلا وجه لتخصيصه ببعض الانواع او الاعيان الا على سبيل التمثيل وايضا فكتاب الابرار في عليين يشهده المقربون فالكتاب مشهود والمقربون شاهدون والاحسن ان يكون هذا القسم مستغنيا عن الجواب لان القصد التنبيه على المقسم به وانه من آيات الرب العظيمة ويبعد ان يكون الجواب قتل اصحاب الاخدود الذين فتنوا اولياءه وعذبوهم بالنار ذات الوقود ثم وصف حالهم القبيحة بانهم قعود على جانب الاخدود شاهدين ما يجري على عباد الله تعالى واوليائه عيانا ولا تأخذهم بهم رأفة ولا رحمة ولا يعيبوا عليهم دينا سوى ايمانهم بالله العزيز الحميد الذي له ملك السموات والارض وهذا الوصف يقتضي اكرامهم وتعظيمهم ومحبتهم فعاملوهم بضد ما يقتضي ان يعاملوا به وهذا شأن اعداء الله دائما ينقمون على اوليائه ما ينبغي ان يحبوا ويكرموا لاجله كما قال تعالى قل يا اهل الكتاب هل تنقمون منا الا ان آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل من قبل وان اكثركم فاسقون وكذلك اللوطية نقموا من عباد الله تنزههم عن مثل فعلهم فقالوا اخرجوهم من قريتكم انهم اناس يتطهرون وكذلك اهل الاشراك ينقمون من الموحدين تجريدهم التوحيد واخلاص الدعوة والعبودية لله وحده وكذلك اهل البدع ينقمون من اهل السنة تجريد متابعتها وترك ما خالفها وكذلك المعطلة ينقمون من اهل الاثبات اثباتهم لله صفات كماله ونعوت جلاله وكذلك الرافضة ينقمون على اهل السنة

خالص

محبتهم للصحابة وحبهم وترضيهم عنهم وولايتهم اياهم وتقديمهم من قدمه رسول
الله صلى الله عليه وسلم منهم وتنزيلهم منازلهم التي انزلهم الله ورسوله بها
وكذلك اهل الرأي المحدث ينتمون على اهل الحديث وحزب الرسول واخذ
هم بحديثه وتركهم ما خالفه وكل هؤلاء لهم نصيب وفيهم شبه من اصحاب
الاخدود وبينهم نسب قريب او بعيد ثم اخبر سبحانه انما اعد لهم عذاب
جهنم وعذاب الحريق حيث لم يتوبوا وانهم لو تابوا بعد ان فتنوا اولياءه وعذ
بوهم بالنار لغفر لهم ولم يعذبهم وهذا غاية الكرم والجود قال الحسن
انظروا الى هذا الكرم والجود يقتلون اولياءه ويفتنونهم وهو يدعوهم
الى التوبة والمغفرة انظروا الى كرم الرب تعالى يدعوهم الى التوبة وقد فتنوا
اولياءه فحرقوهم بالنار فلا ييأس العبد من مغفرته وعفوه ولو كان
منه ما كان فلا عداوة اعظم من هذه العداوة ولا اكفر ممن حرق بالنار
من آمن بالله وحده وعبده وحده ومع هذا فلو تابوا لم يعذبهم والحقهم با
وليائه ثم ذكر سبحانه جزاء اوليائه المؤمنين ثم ذكر شدة بطشه وانه لا يعجزه
شيء فانه هو المبدئ للعبيد ومن كان كذلك فلا اشد من بطشه وهو مع ذلك
الغفور الودود يغفر لمن تاب اليه ويوده ويحبه فهو سبحانه الموصوف
بشدة البطش ومع ذلك الغفور الودود والمتودد الى عباده بنعمه الذي
يود من تاب اليه واقبل عليه وهو الودود ايضا اي المحبوب قال البخا
ري في صحيحه الودود الحبيب والتحقيق ان اللفظ يدل على الامرين
على كونه وادا لاوليائه مودودا لهم فاحدهما بالوضع والاخر باللزوم
فهو الحبيب المحب لاوليائه يحبهم ويحبونه وقال شعيب ان ربي
رحيم ودود وما الطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور فان
الرجل قد يغفر لمن اساء ولا يحبه وكذلك قد يرحم من لا يحب والرب تعالى

يغفر

يغفر لعبده اذا تاب اليه ويرحمه ويحبه مع ذلك فانه يحب التوابين
واذا تاب اليه عبده احبه ولو كان منه ما كان ثم قال ذو العرش
فاضاف العرش الى نفسه كما يضاف اليه الاشياء العظيمة الشريفة وهذا يدل
على عظمة العرش وقربه منه سبحانه واختصاصه به بل يدل على غاية القرب
والاختصاص كما يضيف الى نفسه بذو صفاته القائمة به كقوله ذو القوة
ذو الجلال والاكرام ويقال ذو العزة وذو الملك وذو الرحمة ونظائر
ذلك فلو كان حظ العرش منه حظ الارض السابعة لكان لا فرق ان يقال
ذو العرش وذو الارض ثم وصف نفسه بالمجيد وهو المتضمن لكثرة
صفات كماله وسعتها وعدم احصاء الخلق لها وسعة افعاله وكثرة خيره
ودوامه واما من ليس له صفات كمال ولا افعال حميدة فليس له من المجد
شيء والمخلوق انما يصير مجيدا باوصافه وافعاله فكيف يكون الرب تبارك
وتعالى مجيدا وهو معطل عن الاوصاف والافعال تعالى الله عما يقول المعطلون
علوا كبيرا بل هو المجيد الفعال لما يريد والمجد في لغة العرب كثرة اوصاف
الكمال وكثرة افعال الخير واحسن ما قرن اسم المجيد الى الحميد كما قالت الملائكة
لبيت الخليل رحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت انه حميد مجيد وكما شرع لنا
في اخر الصلاة ان نثني على الرب تعالى بانه حميد مجيد وشرع في اخر الركعة
عند الاعتدال ان نقول ربنا ولك الحمد اهل الثناء والمجد فالحمد والمجد على الا
طلاق لله الحميد المجيد فالحميد الحبيب المستحق لجميع صفات الكمال والمجيد
العظيم الواسع القادر الغني ذو الجلال والاكرام ومن قرأ المجيد بالكسر
فهو صفة لعرشه سبحانه واذا كان عرشه مجيدا فهو سبحانه احق بالمجد وقد
استشكل هذه القراءة بعض الناس وقال لم يسمع في صفات الخلق مجيد
ثم خرجها على احد الوجهين اما على الجوار واما ان يكون صفة لربك

وهذا من قلة بضاعة هذا القايل فان الله سبحانه وصف عرشه بالكرم
وهو نظير المجيد ووصفه بالعظمة فوصفه سبحانه مطابق لوصفه بالعظمة
والكرم بل هو احق المخلوقات ان يوصف بذلك لسعته وحسنه وبها
منظره فانه اوسع كل شي في المخلوقات واجله واجمعه لصفات الحسن
وبها المنظر وعلو القدر والرتبة والذات ولا يقدر قدر عظمته وحسنه
وبها منظره الا الله ومجده مستفاد من مجد خالقه ومبدعه والسموات
السبع والارضون السبع في الكرسي الذي بين يديه كحلقة ملقاة
في ارض فلاة والكرسي فيه كتلك الحلقة في الفلاة قال ابن عباس
السموات السبع في العرش كسبعة دراهم جعلن في ترس فكيف لا يكون
مجيدا وهذا شانه فهو عظيم كريم مجيد واما تكلف هذا المتكلف
جره الى الجوار او انه صفة لربك فتكلف شديد وخروج عن المالوف
في اللغة من غير حاجة الى ذلك وقوله فعال لما يريد دليل على امور
احدها انه سبحانه يفعل بارادته ومشيته الثاني انه لم يزل كذلك
لانه ساق ذلك في معرض المدح والثنا على نفسه وان ذلك من كماله
سبحانه فلا يجوز ان يكون عادما لهذا الكمال في وقت من الاوقات
وقد قال تعالى افمن يخلق كمن لا يخلق افلا تذكرون وما كان من اوصاف
كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثا بعد ان لم يكن الثالث انه اذا اراد
شيا فعله فان ما موصولة عامة اي يفعل كل ما يريد ان يفعله وهذا
في ارادته المتعلقة بفعله واما ارادته المتعلقة بفعل العبد فتلك لها
شان اخر فان اراد فعل العبد ولم يرد من نفسه ان يعينه ويجعله فاعلا
لم يوجد الفعل وان اراده حتى يريد من نفسه ان يجعله فاعلا وهذه
هي النكتة التي خفيت على القدرية والجبرية وخبطوا في مسلة

بلغ

القدر لغفلتهم عنها فان هنا ارادتان ارادة ان يفعل العبد وارادة
ان يجعله الرب فاعلا وليستا متلازمتين وان لزم من الثانية الاولى
من غير عكس فمتى اراد من نفسه ان يعين عبده وان يخلق له اسباب
الفعل فلا يوجد الفعل فقد اراد فعله وقد يريد فعله ولا يريد من نفسه
ان يخلق له اسباب الفعل فلا يوجد الفعل فان اعتاص عليك فهم هذا
الموضع واشكل عليك فانظر الى قول النبي صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه
قوله للعبد يوم القيمة قد اردت منك اهون من هذا وانت في صلب
ابيك ان لا تشرك بي شيا ولم يقع هذا المراد لانه لم يرد من نفسه اعانته
عليه وتوفيقه له الرابع ان فعله سبحانه وارادته متلازمان فما اراد
يفعله فعله وما فعله فقد اراده بخلاف المخلوق فانه يريد ما لا يفعل
وقد يفعل ما لا يريده فما ثم فعال لما يريد الا الله وحده الخامس
اثبات ارادة متعددة بحسب الافعال وان كل فعل له ارادة تخصه
وهذا هو المعقول في الفطر فهو الذي يعقله الناس من الارادة
فشانه تعالى انه يريد على الدوام ويفعل ما يريد السادس ان كل ما صح ان
يتعلق به ارادته جاز فعله فاذا اراد ان ينزل كل ليلة الى السماء الدنيا
وان يجي يوم القيمة لفصل القضا وان يري نفسه لعباده وان يتجلى
لهم كيف شا وان يخاطبهم ويضحك اليهم وغير ذلك مما يريد سبحانه
لم يمتنع عليه فعله فانه فعال لما يريد وانما يتوقف صحة ذلك على اخبار
الصادق به فاذا اخبر به وجب التصديق به وكان رده ردا لما
الذي اخبر به عن نفسه وهذا عين الباطل وكذلك اذا امكن ارادته
سبحانه محو ما شا واثبات ما شا امكن فعله وكانت الارادة والفعل من
مقتضيات كماله المقدس وقد اشتملت هذه السورة على اختصارها

من التوحيد على وصفه سبحانه بالعزة المتضمنة للقدرة والقوة وعدم
النظير وبالحمد المتضمن لصفات الكمال والتنزيه عن اضدادها مع محبته
والهيته وملكه السموات والارض المتضمن لكمال غناه وسعة ملكه
وشهادته على كل شيء المتضمن لعموم اطلاعه على ظواهر الامور وبواطنها
واحاطة بصره بمرئياتها وسمعه بمسموعاتها وعلمه بمعلوماتها ووصفه
بشدة البطش المتضمن لكمال القوة والعزة والقدرة وتفرده بالابداء والا
عادة المتضمن لتوحيد ربوبيته وتصرفه في المخلوقات بالابداء والاعادة
وانقياده لقدرته فلا يستعصي عليه منها شيء ووصفه بالمغفرة المتضمن
لكمال جوده واحسانه وغناه ورحمته ووصفه بالود المتضمن لكونه
حبيبا الى عباده محبا لهم ووصفه بانه ذو العرش الذي لا يقدر قدره
سواه وان عرشه المختص به الذي لا يليق بغيره ان يستوي عليه وو
صفه بالمجد المتضمن لسعة العلم والقدرة والملك والغنا والجود والاحسان
والكرم وكونه فعالا لما يريد المتضمن لحياته وعلمه وقدرته ومشيئته و
حكمته وغير ذلك من اوصاف كماله فهذه السورة كتاب مستقل في اصول
الدين تكفي من فهمها فالحمد لله الذي انزل على عبده الكتاب وتبارك الذي
نزل الفرقان على عبده ثم ختمها بذكر فعله وعقوبته بمن اشرك به وكذب
رسله تحذيرا للعباده من سلوك سبيلهم وان من فعل فعلهم فعل به كما
فعل بهم ثم اخبر عن اعدائه بانهم مكذبون بتوحيده ورسالاته مع كونهم
في قبضته وهو محيط بهم ولا اسوء حال ممن عادى من هو في قبضته ومن
هو قادر عليه من كل وجه وبكل اعتبار فقال بل الذين كفروا في تكذيب
والله من ورائهم محيط فهذا اعجب ممن كفر بمن هو محيط به واخذ بنا
صيته قادر عليه ثم وصف كلامه بانه مجيد وهو احق بالمجد من كل كلام

كما ان المتكلم به له المجد كله فهو المجيد وكلامه مجيد وعرشه مجيد
قال ابن عباس رضي الله عنه قران مجيد كريم لان كلام الرب ليس هو كما
يقول الكافرون شعر وكهانة وسحر وقد تقدم ان المجد السعة وكثرة
الخير وكثرة خير القران لا يعلمها الا من تكلم به وقوله في لوح محفوظ
اكثر القراء على الجر صفة للوح وفيه اشارة الى ان الشياطين لا يمكنهم التنزل
به لان محله محفوظ ان يصلوا اليه وهو في نفسه محفوظ ان يقدر الشيطان
على الزيادة فيه والنقصان فوصفه سبحانه بانه محفوظ في قوله انا نحن
نزلنا الذكر وانا له لحافظون ووصف محله بالحفظ في هذه السورة فالله
سبحانه حفظ محله وحفظه من الزيادة والنقصان والتبديل وحفظ
معانيه من التحريف كما حفظ الفاظه من التبديل واقام له من يحفظ
حروفه من الزيادة والنقصان ومعانيه من التحريف والتغيير

فصل ومن ذلك اقسامه

سبحانه بالسماء والطارق وقد فسره بانه النجم الثاقب الذي يثقب ضوءه
والمراد به الجنس لا نجم معين ومن عينه بانه الثريا او زحل فان اراد
التمثيل فصحيح وان اراد التخصيص فلا دليل عليه والمقصود انه سبحانه اقسم
بالسماء ونجومها المضيئة وكل منها اية من اياته الدالة على
وحدانيته وسمي النجم طارقا لانه يظهر بالليل بعد اختفائه بضوء الشمس
فشبه بالطارق الذي يطرق الناس او اهله ليلا قال الفراء ما اتاك
ليلا فهو طارق وقال الزجاج والمبرد لا يكون الطارق نهارا
ولهذا تستعمل العرب الطروق في صفة الخيال كثيرا كما قال ذو الرمة

الا طرقت مي هيوما بذكرها ۞ وايدي الثريا جنح بالمغارب ۞ وقال
جرير ۞ طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ۞ وقت الزيارة فارجعي بسلام ۞

ولهذا قيل اول من سن الطيف جرير فلم يزل الناس على قبوله واكرامه
كالضيف فالطيف والضيف كلاهما لا يرد وقال الآخر

الا طرقت من آخر الليل زينب   عليك سلام هل لما فات مطلب

فصل والمقسم عليه ههنا حال النفس الانسانية
وان عنايتها واقامة الحفظة عليها وانها لم تترك سدى بل قد ارصد
عليها من يحفظ عليها اعمالها ويحصيها فاقسم سبحانه انه ما من نفس
الا عليها حافظ من الملائكة يحفظ عملها وقولها ويحصي ما تكسب من خير او
شر واختلف القراء في لما فشددها بعضهم وخففها بعضهم فمن قرا
ها بالتشديد جعلها بمعنى الا وهي تكون بمعنى الا في موضعين احدها
بعد ان المخففة مثل هذا الموضع او المثقلة مثل قوله وان كلا لما ليوفينهم
ربك اعمالهم والثاني في باب القسم نحو سالتك بالله لما فعلت قال ابو علي
الفارسي من خفف كانت عنده هي المخففة من الثقيلة واللام في خبرها
هي الفارقة بين ان النافية والخفيفة وما زائدة وان هي التي يتلقى بها
القسم كما يتلقى بالمثقلة ومن قراها مشددة كانت ان عنده نافية
بمعنى ما ولما في معنى الا قال سيبويه عن الخليل في قولهم نشدتك
بالله لما فعلت قال المعنى الا فعلت ثم نبه سبحانه الانسان على دليل المعاد
بما يشاهده من حال مبدئه على طريقة القرآن في الاستدلال على المعاد
بالمبدا فقال فلينظر الانسان مم خلق اي فلينظر نظر الفكر والاستدلال
ليعلم ان الذي ابتدا اول خلقه من نطفة قادر على اعادته ثم اخبر سبحانه انه
خلقه من ماء دافق والدفق صب الماء يقال دفقت الماء فهو مدفوق
ودافق ومندفق فالمدفوق الذي وقع عليه فعلك كالمكسور والمضروب
والمندفق المطاوع لفعل الفاعل يقول دفقته فاندفق كما تقول كسرته

فانكسر

فانكسر والدافق قيل انه فاعل بمعنى مفعول كقولهم سر كاتم وعيشة راضية
وقيل هو على النسب لا على الفعل اي ذي دفق وذات ولم يرد الجريان
على الفعل وقيل وهو الصواب انه اسم فاعل على بابه ولا يلزم من ذلك ان
يكون هو فاعل الدفق فان اسم الفاعل هو من قام به الفعل سواء فعله
هو او غيره كما يقال ماء جار ورجل ميت وان لم يفعل الموت بل لما قام به
من الموت نسب اليه على جهة الفعل وهذا غير منكر في لغة امة من الامم
فضلا عن اوسع اللغات وافصحها واما العيشة الراضية فالوصف بها
احسن من الوصف بالمرضية فانها اللائقة بهم فشبه ذلك برضاها بهم
كما رضوا بها كانها رضيت بهم ورضوا بها وهذا ابلغ من مجرد كونها مر
ضية فقط فانها ملائمة واذا كانوا يقولون الوقت الحاضر والساعة الراهنة وان
لم يفعلا ذلك فكيف يمتنع ان يقولوا ماء دافق وعيشة راضية ونبه سبحانه
بكونه دافقا على انه ضعيف غير متماسك ثم ذكر محله الذي يخرج منه
وهو بين الصلب والترائب قال ابن عباس صلب الرجل وترائب المرأة
وهو موضع القلادة من صدرها والولد يخلق من المائين جميعا
وقيل صلب الرجل وترائبه وهي صدره فيخرج من صلبه وصدره وهذه
الآية الدالة على قدرة الخالق سبحانه نظير اخراجه اللبن الخالص من بين
الفرث والدم ثم ذكر ان من المستدل عليه والمعاد بقوله انه على رجعه
لقادر اي على رجعه اليه يوم القيامة كما هو قادر على خلقه من ماء هذا
شانه هذا هو الصحيح في معنى الآية وفيها قولان ضعيفان احدهما قول
مجاهد على رد الماء في الاحليل لقادر والثاني قول عكرمة والضحاك
على رد الماء في الصلب وفيها قول ثالث قال مقاتل ان شئت رددته
من الكبر الى الشباب ومن الشباب الى الصبا ومن الصبا الى النطفة

والقول الصواب هو الاول لوجوه احدها انه هو المعهود من طريقة القرآن
من الاستدلال بالمبدا على المعاد الثاني ان ذلك ادل على المطلوب من
القدرة على رد الماء في الاحليل الثالث انه لم يأت لهذا المعنى في القرآن نظير
في موضع واحد ولا انكره احد حتى يقيم سبحانه الدليل عليه الرابع انه قيد
الفعل بالظرف وهو قوله يوم تبلى السرائر وهو يوم القيمة اي انه
انه قادر على رجعه اليه حيا في ذلك اليوم الخامس ان الضمير في
رجعه هو الضمير في قوله فما له من قوة ولا ناصر وهذا للانسان قطعا
لا للماء السادس انه لا ذكر للاحليل حتى يتعين كون الرجع اليه
فلو قال قائل على رجعه الى الفرج الذي صب فيه لم يكن فرق بينه وبين
هذا القول ولم يكن اولى منه السابع ان رد الماء الى الاحليل او الصلب
بعد خروجه منه غير معروف ولا هو امر معتاد جرت به القدرة وان
كان مقدورا للرب تعالى ولكن هو لم يجر به العادة ولم تجر به العادة ولا
هو مما تكلم الناس فيه نفيا او اثباتا ومثل هذا لا يقرره الرب ولا
يستدل عليه ويبينه على منكريه وهو سبحانه انما يستدل على امر واقع ولا
بد اما قد وقع ووجد او سيقع فان قيل فقد قال تعالى ايحسب الانسان
ان لن نجمع عظامه بلى قادرين على ان نسوي بنانه ان نجعله كخف البعير
قيل هذه الية فيها قولان احدهما هذا والثاني وهو الارجح ان نسوي
بنانه اعادتها كما كانت بعد ما فرقها البلى في التراب الثامن انه سبحانه
دعى الانسان الى النظر فيما خلق منه ليرده نظره عن تكذيبه
بما اخبر به وهو لم يجره بقدرة خالقه على رد الماء في الاحليل بعد مفا
رقته له حتى يدعوه الى النظر فيما خلق منه ليستفتح منه صحة امكان
رد الماء التاسع انه لا ارتباط بين النظر في مبدا خلقه ورد الماء

في الاحليل

في الاحليل بعد خروجه ولا تلازم بينهما حتى يجعل احدهما دليلا على امكان
الاخر بخلاف الارتباط الذي بين المبدا والمعاد والخلق الاول والخلق
الاول والخلق الثاني والنشاءة الاولى والنشاءة الثانية فان له
ارتباطا من وجوه عديدة ويلزم من امكان احدهما امكان الاخر
ومن وقوعه صحة وقوع الاخر فحسن الاستدلال باحدهما على الاخر
العاشر انه سبحانه نبه بقوله ان كل نفس لما عليها حافظ على انه
قد وكل عليه من يحفظ عليه عمله ويحصيه فلا يضيع منه شيء ثم نبه بقوله
انه على رجعه لقادر على بعثه لجزائه على العمل الذي حفظ واحصي عليه
فذكر شان مبدا عمله ونهايته فمبداه محفوظ عليه ونهايته الجزاء عليه
ونبه على هذا بقوله يوم تبلى السرائر اي تختبر وقال مقاتل تظهر و
تبدوا وبلوت الشيء اذا اختبرته ليظهر لك باطنه وما خفي منه والسرائر
جمع سريرة وهي سرائر الله التي بينه وبين عبده في ظاهره وباطنه
فالايمان من السرائر وشرائعه من السرائر فتختبر ذلك اليوم حتى يظهر
خيرها من شرها ومؤداها من مضيعها وما كان لله مما لم يكن له
قال عبد الله ابن عمر رضي الله عنه يبدي الله يوم القيمة كل سر فيكون
زينا في الوجوه وشينا فيها والمعنى تختبر السرائر باظهارها واظهار
مقتضياتها من الثواب والعقاب والحمد والذم وفي التعبير عن الاعمال
بالسر لطيفة وهو ان الاعمال نتائج السرائر الباطنة فمن كانت سريرته
صالحة كان عمله صالحا فتبدو سريرته على وجهه نورا واشراقا وحياء
ومن كانت سريرته فاسدة كان عمله تابعا لسريرته لا اعتبار
بصورته فتبدو سريرته على وجهه سوادا وظلمة وشينا وان كان
الذي يبدو عليه في الدنيا انما هو عمله لا سريرته فيوم القيمة تبدو عليه

سريرة ويكون الحكم والظهور لها قال الشاعر

فان لها في مضمر القلب والحشا ❊ سريرة حب يوم تبلى السرائر ❊

ثم اخبر سبحانه عن حال الانسان في يوم القيمة انه غير ممتنع من عذاب الله
لا بقوة منه ولا بقوة من خارج وهو الناصر فان العبد اذا وقع في
شدة فاما ان يدفعها بقوته او قوة من ينصره وكلاهما معدوم في
حقه ونظيره قوله سبحانه لا يستطيعون نصر انفسهم ولا هم منا يصحبون
ثم اقسم سبحانه بالسماء ذات الرجع والارض ذات الصدع فاقسم
بالسماء ورجعها بالمطر والارض وصدعها بالنبات قال الفرا تبتدي
بالمطر ثم ترجع به في كل عام وقال ابو اسحق الرجع المطر لانه يجي ويرجع
ويتكرر وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما تبتدي بالمطر ثم ترجع
في كل عام والتحقيق ان هذا على وجه التمثيل ورجع السماء هو اعطاء
الخير الذي يكون من جهتها حالا بعد حال على مرور الازمان ترجعه
رجعا اي تعطيه مرة بعد مرة والخير كله من قبل السماء يجي ولما كان
اظهر الخير المشهود بالعيان المطر فسر الرجع به وحسن تفسيره به
مقابلته بصدع الارض عن النبات وفسر الصدع بالنبات لانه يصدع
الارض اي يشقها فاقسم سبحانه بالسماء ذات المطر والارض ذات النبات
وكل من ذلك اية من ايات الله تعالى الدالة على ربوبيته واقسم على كون القرآن
حقا وصدقا فقال انه لقول فصل وما هو بالهزل كما اقسم في اول السورة
على حال الانسان في مبداه ومعاده والقول الفصل هو الذي يفصل بين
الحق والباطل فيميز هذا من هذا ويفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه
ومصيب الفصل الذي ينفصل عنده المراد ويتميز من غيره كما يقال اصاب
الفصل واصاب المرء اذا اصاب بكلامه نفس المعنى المراد ومنه فصل

الخطاب

الخطاب وايضا فالقول الفصل بيان المعنى ضد الاجمال فكون القرآن
فصلا يتضمن هذه المعاني كلها ويتضمن كونه حقا ليس بالباطل و
جدا ليس بالهزل ولما كان الهزل هو الذي لا حقيقة له وهو الباطل
واللعب قابل بين الفصل والهزل وانما يكيد المكذبون ويحتالون
ويخادعون ليردوه ولا يردونه بالحجة والله يكيدهم كما يكيدون دينه ورسوله
وعباده وكيده سبحانه استدراجهم من حيث لا يعلمون وان ملا لهم حتى
يأخذهم على غرة كما قال تعالى واملي لهم ان كيدي متين فان الانسان اذا اراد
ان يكيد غيره يظهر له اكرامه واحسانه اليه حتى يطمئن اليه فيأخذه كما يفعل
الملوك فاذا فعل ذلك اعداء الله باوليائه ودينه كان كيد الله لهم حسنا لا
قبح فيه فيعطيهم ويعافيهم وهو يستدرجهم حتى اذا فرحوا بما اوتوا اخذهم بغتة
ثم قال فمهل الكافرين امهلهم رويدا اي انظرهم قليلا ولا
تستعجل لهم والرب تعالى هو الذي يمهلهم وانما خرج الخطاب للرسول على جهة
التهديد والوعيد لهم او على معنى انتظر بهم قليلا ورويد في كلامهم يكون
اسم فعل فينصب بها الاسم نحو رويد زيدا اي خله وامهله وارفق به الثاني
ان يكون مصدرا مضافا الى المفعول نحو رويد زيد اي امهال زيد كقوله
ضرب الرقاب الثالث ان يكون نعتا منصوبا نحو قولك سار رويدا رويدا
تقول العرب ضعه رويدا اي وضعا رويدا وفي حديث عائشة فخرج
النبي صلى الله عليه وسلم بالليل من عندها الى البقيع فخرج رويدا واجاف
الباب رويدا ويجوز في هذا الوجه وجهان احدهما ان يكون حالا والثاني
ان يكون نعتا لمصدر محذوف فان اظهرت المنعوت تعين الوجه الثاني
ورويد في هذه الاية هو من هذا النوع الثالث والله اعلم

فصل ومن ذلك اقسامه بالشفق

بامج

والليل وما وسق والقمر اذا اتسق فاقسم بثلاثة اشيا متعلقة بالليل
احدها الشفق وهو في اللغة الحمرة بعد غروب الشمس الى وقت
صلاة العشاء الاخرة وكذلك هو في الشرع قال الفرا والليث و
الزجاج وغيرهم الشفق الحمرة في السما واصل موضوع الحرف لرقة
الشي ومنه شي شفق لا تماسك له لرقته ومنه الشفقة هو والرقة و
اشفق عليه اذا رق له واهل اللغة يقولون الشفق بقية ضو الشمس
وحمرتها ولهذا كان الصحيح ان الشفق الذي يدخل وقت العشا الا
خرة بغيبوبته هو الحمرة فان الحمرة لما كانت بقية ضو الشمس جعل بقا
وها حدا لوقت المغرب فاذا ذهبت الحمرة بعدت الشمس عن الافق فدخل وقت
العشا واما البياض فانه يمتد وقته بطول لبثه ويكون حاصلا مع
بعد الشمس عن الافق ولهذا صح عن ابن عمر رضي الله عنهما انه قال الشفق
الحمرة والعرب تقول ثوب مصبوغ كانه الشفق اذا كان احمر حكاه الفرا
وكذلك قال الكلبي الشفق الحمرة التي تكون في المغرب وكذلك قال مقاتل
هو الذي يكون بعد غروب الشمس في الافق قبل الظلمة وقال عكرمة
هو بقية النهار وهذا يحتمل ان يريد به ان تلك الحمرة بقية ضو الشمس
التي هي اية النهار وقال مجاهد هو النهار كله وهذا ضعيف جدا
وكانه لما راه قابله بالليل وما وسق ظن انه النهار وهذا ليس بلازم
الثاني قسم بالليل وما وسق اي وما ضم وحوى وجمع والليل وما
ضمه وحواه اية اخرى والقمر اية واتساقه اية اخرى والشفق يتضمن
ادبار النهار وهو اية واقبال الليل وهو اية اخرى فان هذا اذا ادبر
خلفه الاخر يتعاقبان لمصالح الخلق فادبار النهار اية واقبال الليل اية
وتعقب احدهما الاخر اية والشفق الذي هو متضمن الامرين اية

والليل

والليل اية وما حواه اية والهلال اية وتزايده كل ليلة اية واتساقه وهو
امتلاؤه نورا اية ثم اخذه في النقص اية وهذه وامثالها ايات دالة
على ربوبيته مستلزمة للعلم بصفات كماله ولهذا شرع عند اقبال الليل وادبار
النهار ذكر الرب تعالى بصلاة المغرب وفي الحديث اللهم هذا اقبال ليلك
وادبار نهارك واصوات دعاتك وحضور صلواتك كما شرع ذكر الله بصلاة
الفجر عند ادبار الليل واقبال النهار ولهذا يقسم سبحانه بهذين الوقتين
كقوله والليل اذ ادبر والصبح اذا اسفر وهو يقابل اقسامه بالشفق ونظير
اقسامه بالليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس ولما كان الرب تبارك وتعالى
يحدث عند كل واحد من طرفي اقبال الليل والنهار وادبارهما ما يحدثه ويبث
من خلقه ما شا فينشر الارواح الشيطانية عند اقبال الليل وينشر الا
رواح الانسانية عند اقبال النهار فيحدث هذا الانتشار في العالم اثره شرع
سبحانه في هذين الوقتين هاتين الصلاتين العظيمتين تحصنا في ذلك
من ذكره عندهما باتين الاتيين المتعاقبين وعند انصرام احدهما واقبال
الاخر بجامع ما بينهما من التضاد والاختلاف وانتقال الحيوان عند
ذلك من حال الى حال ومن حكم الى حكم وذلك
مبدا ومعاد يومي مشهود للخليقة كل يوم وليلة فالحيوان
والنبات في مبدا ومعاد وزمان العالم في مبدا ومعاد ولم يروا كيف
يبدئ الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير

فصل

وقوله لتركبن طبقا عن طبق الظاهر انه جواب القسم ويجوز ان يكون
من القسم المحذوف جوابه ولتركبن وما بعده مستانف وقرئ لتركبن
بضم البا للجمع وبفتحها فمن فتحها فالخطاب عنده للانسان اي لتركبن
ايها الانسان وقيل هو النبي صلى الله عليه وسلم خاصة وقيل ليست البا للخطاب
ولكنها للغيبة اي لتركبن السما طبقا عن طبق ومن ضمها فالخطاب

للجماعة ليس الا في جعل الكناية للسماء قال المعنى لتركبن السماء حالا
بعد حال من حالاتها التي وصفها الله تعالى من الانشقاق والانفطار
والطي وكونها كالمهل مرة وكالدهان مرة ومورانها وتفتحها وغير ذلك
من حالاتها وهذا قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ودل على السماء
ذكر الشفق والقمر وعلى هذا فيكون قسما على المعاد وتغيير العالم ومن قال
الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم قاله ثلاثة معان لتركبن سماء بعد سماء حتى
تنتهي الى حيث يصعدك الله هذا قول ابن عباس في رواية مجاهد
وقول مسروق والشعبي قالوا السماء طبق ولهذا يقال للسموات
السبع الطباق والمعنى الثاني لتصعدن درجة بعد درجة ومنزلة
بعد منزلة ورتبة بعد رتبة حتى تنتهي الى محل القرب والزلفى من
الله والمعنى الثالث لتركبن حالا بعد حال من الاحوال المختلفة التي
نقل الله فيها رسوله صلى الله عليه وسلم من الهجرة والجهاد ونصره على عدوه وادالة
العدو عليه تارة وغناه وفقره وغير ذلك من حالاته التي تنقل فيها
الى ان بلغ ما بلغه اياه ومن قال الخطاب للانسان او لجملة الناس
فالمعنى واحد وهو تنقل الانسان حالا بعد حال من حين كونه
نطفة الى مستقره من الجنة او النار فكم بين هذين من الاطباق
والاحوال للانسان واقوال المفسرين كلها تدور
على هذا قال ابن عباس رضي الله عنه لتصيرن الامور حالا بعد حال
وقيل لتركبن ايها الانسان حالا بعد حال من النطفة الى العلقة
الى المضغة الى كونه حيا الى خروجه الى هذه الدار ثم ركوبه طبق
التمييز بين ما ينفعه ويضره ثم ركوبه بعد ذلك طبقا اخر وهو طبق
البلوغ ثم ركوبه طبق الاشد ثم طبق الشيخوخة ثم طبق الهرم ثم
ركوبه طبق ما بعد في البرزخ وركوبه في اثناء هذه الاحوال

اطباقا

اطباقا عديدة لا يزال ينتقل فيها حالا بعد حال الى دار القرار فذلك
اخر اطباقه التي يعلمها العباد ثم يفعل الله سبحانه بعد ذلك ما يشاء
واختار ابو عبيدة قراءة الضم وقال المعنى بالناس اشبه منه بالنبي
صلى الله عليه وسلم فانه ذكر قبل الاية من يؤتى كتابه بيمينه وشماله ثم ذكر بعد
ها قوله فما لهم لا يؤمنون فذكر كونهم طبقا بعد طبق قال الواحدي وهذا
قول اكثر المفسرين قالوا لتركبن حالا بعد حال ومنزلا بعد منزل وامرا بعد
امر قال سعيد بن جبير وابن زيد لتكونن في الاخرة بعد الاولى ولتصيرن
اغنياء بعد الفقر وفقراء بعد الغنى وقال عطاء شدة بعد شدة وقال
ابو عبيدة لتركبن سنة من كان قبلكم في التكذيب والاختلاف على الر
سل وانت اذا تاملت هذا المقسم به والمقسم عليه وجدته من اعظم الايات
الدالة على الربوبية وتغيير الله سبحانه العالم وتصريفه كيف اراد ونقله
اياه من حال الى حال وهذا محال ان يكون بنفسه من غير فاعل مدبر له
ومحال ان يكون فاعله غير قادر ولا حي ولا مريد ولا حكيم ولا عليم وكلاهما
في الامتناع سواء فالمقسم به وعليه من اعظم الادلة على ربوبيته وتوحيده
وصفات كماله وصدقه وصدق رسله وعلى المعاد ولهذا عقب ذلك بقوله
فما لهم لا يؤمنون انكار على من لم يؤمن بعد ظهور هذه الايات المستلزمة
لمدلولها اتم استلزام وانكر عليهم عدم خضوعهم وسجودهم للقران المشتمل
على ذلك بافصح عبارة وابينها واجزلها واوجزها فالمعنى اشرف معنى
والعبارة اشرف عبارة غاية الحق بغاية البيان والفصاحة بل الذين
كفروا يكذبون ولا يصدقونه بالحق جحودا وعنادا والله اعلم بما يضمرون
في صدورهم ويكتمونه وما يسرونه من اعمالهم وما يجمعونه فيجازيهم
عليه بعلمه وعدله الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم اجر غير ممنون

فصل ومن ذلك قوله سبحانه

فلا اقسم بالخنس الجوار الكنس والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس
اقسم سبحانه بالنجوم في احوالها الثلاثة من طلوعها وجريانها و
غروبها هذا قول علي وابن عباس وعامة المفسرين وهو الصواب
والخنس جمع خانس الانقباض والاختفا ومنه سمي الشيطان
خناسا لانقباضه وانخناسه حين يذكر العبد ربه ومنه قول ابي هريرة
فانخنست والكنس جمع كانس وهو الداخل في كناسه اي في بيته
ومنه تكنست المراة اذا دخلت في هودجها ومنه كنست الظبا اذا اوت
الى اكناسها والجواري جمع جارية كغاشية وغواش قال علي ابن ابي
طالب رضي الله عنه النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل وهذا قول مقاتل
وعطا وقتادة وغيرهم قالوا الكواكب تخنس بالنهار فتختفي ولا ترى
وتكنس في وقت غروبها ومعنى تخنس على هذا القول تتاخر عن البصر
لتواريه عنه باخفا النهار لها وفيه قول اخر وهو ان خنوسها رجوعها
وهي حركتها الشرقية فان لها حركتين حركة بفلكها وحركة بنفسها
فخنوسها حركتها بنفسها راجعة وعلى هذا فهو قسم بنوع من الكواكب وهي
السيارة وهذا قول الفرا وفيه قول ثالث وهو ان خنوسها وكنوسها
اختفاوها وقت مغيبها فتغيب في مواضعها التي تغيب فيها وهذا قول
الزجاج ولما كان للنجوم حال ظهور وحال اختفا وحال جريان وحال
غروب اقسم سبحانه بها في احوالها كلها ونبه بخنوسها على حال ظهورها لان
الخنوس هو الاختفا بعد الظهور ولا يقال لما لا يزال مختفيا انه قد خنس
فذكر سبحانه جريانها وغروبها صريحا وخنوسها وظهورها واكتفى من
ذكر طلوعها بجريانها الذي مبداه الطلوع فالطلوع اول جريانها

فتضمن

فتضمن القسم طلوعها وغروبها وجريانها واختفاءها وذلك من
اياته ودلائل ربوبيته وليس قول من فسرها بالظبا وبقر الوحش
بالظاهر لوجوه احدها ان هذه الاحوال في الكواكب السيارة اعظم اية
وعبرة الثاني اشتراك اهل الارض في معرفته بالمشاهدة والعيان
الثالث ان البقر والظبا ليست لها حالة تختفي فيها عن العيان
مطلقا بل لا تزال ظاهرة في الفلوات الرابع ان الذين فسروا الاية
بذلك قالوا ليس خنوسها من الاختفا قال الواحدي هو من الخنس في
الانف وهو تاخر الارنبة وقصر القصبة والبقر والظبا انوفهن خنس
والبقرة خنسا والظبي اخنس ومنه سميت الخنسا لخنس انفها ومعلوم
ان هذا امر خفي يحتاج الى تامل واكثر الناس لا يعرفونه وايات الرب
التي يقسم بها لا تكون الا ظاهرة جلية يشترك في معرفتها الخلائق
وليس الخنس في انف البقرة والظبا باعظم من ان سنوا وان عند كر
في انف ابن ادم فالاية فيه اظهر الخامس ان كنوسها في اكنتها ليس
باعظم من دخول الطير وسائر الحيوانات في بيته الذي ياوي فيه ولا اعظم
منه حتى يتعين القسم السادس انه لو كان جمعا للظبي لقال الخنس
بالتسكين لانه جمع اخنس فهو كاحمر وحمر ولو اريد به جمع بقرة خنسا
لكان على وزن فعل ايضا كحمرا وحمر فلما جاء جمعه على فعل بالتشديد استحال
ان يكون جمعا لواحد من الظبا والبقر وتعين ان يكون جمعا لخانس
كشاهد وشهد وصائم وصوم وقائم وقوم ونظائرها السابع
انه ليس بالبين اقسام الرب تعالى بالبقر والغزلان وليس هذا عرف
القران ولا عادته وانما يقسم سبحانه من كل جنس باعلاه كما انه لما اقسم
بالنفوس اقسم باعلاها وهي النفس الانسانية ولما اقسم بكلامه

اقسم باشرفه واجله وهو القرآن ولما اقسم بالعلويات اقسم باشرفها وهي
السماء وشمسها وقمرها ونجومها ولما اقسم بالزمان اقسم باشرفه وهو
الليالي العشر واذا اراد سبحانه ان يقسم بغير ذلك ادرجه في العموم كقوله
فلا اقسم بما تبصرون وما لا تبصرون وقوله والذكر والانثى في قراءة رسول
الله صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك ايضا من ان اقتران القسم بالليل والصبح
في قسم واحد يدل على انها النجوم ولهذا فليس باللائق اقتران البقر والغزلان
والليل والصبح في قسم واحد وبهذا احتج ابو اسحق على انها النجوم فقال
هذا اليق بذكر النجوم منه بذكر الوحش التاسع انه لو اراد ذلك سبحانه
لبينه وذكر ما يدل عليه كما انه لما اراد بالجواري السفن قال ومن اياته
الجوار في البحر كالاعلام وهنا ليس في اللفظ ولا في السياق ما يدل
على انها البقر والظباء وفيه ما يدل على انها النجوم من الوجوه التي ذكرناها
وغيرها العاشر ان الارتباط الذي بين النجوم التي هي هداية
للسالكين ورجوم للشياطين وبين المقسم عليه وهو القرآن الذي هو
هدى للعالمين وزينة للقلوب وداحض لشبه الشيطان اعظم من
الارتباط الذي بين البقر والظباء والقرآن والله اعلم

فصل واختلف في عسعسة الليل هل هي
اقباله ام ادباره فالاكثرون على ان عسعس بمعنى ولى وذهب وادبر
هذا قول علي وابن عباس واصحابه وقال الحسن اقبل بظلامه وهو احدى
الروايتين عن مجاهد ثم رجح ان اقبال قال اقسم الله سبحانه وتعالى باقبال
الليل واقبال النهار فقوله والصبح اذا تنفس مقابل لليل اذا عسعس
قالوا ولهذا اقسم الله بالليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى وبالضحى قالوا
فغشيان الليل نظير عسعسته وتجلي النهار نظير تنفس الصبح اذ هو مبدؤه

وادلة

بلغ

وادلة ومن رجح انه ادباره احتج بقوله تعالى كلا والقمر والليل اذ ادبر و
الصبح اذا اسفر فاقسم بادبار الليل واسفار الصبح وذلك نظير عسعسة الليل
وتنفس الصبح قالوا وانه احسن ان يكون القسم بانصرام الليل واقبال النهار
فانه عقيبه من غير فصل فهذا اعظم في الدلالة والعبرة بخلاف اقبال الليل
واقبال النهار فانه لم يعرف القسم في القرآن بهما ولان بينهما زمن طويل
فالاية في انصرام هذا ومجيء الآخر عقيبه بغير فصل ابلغ فذكر سبحانه
حالة ضعف هذا وادباره وحالة قوة هذا وتنفسه واقباله يطرده
ظلمة الليل بتنفسه فكلما تنفس هرب الليل وادبر بين يديه وهذا
هو القول والله اعلم

فصل ثم ذكر سبحانه
المقسم عليه وهو القرآن واخبر انه قول رسول كريم وهو ههنا جبريل
قطعا لانه ذكر صفته بعد ذلك بما يعينه به واما الرسول الكريم في الحاقة
فهو محمد صلى الله عليه وسلم لانه نفى بعده ان يكون قول من زعم اعداؤه انه قوله
فقال وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما
تذكرون فاضافه الى الرسول الملكي تارة والى البشري تارة واضافته
الى كل واحد من الرسولين اضافة تبليغ لا اضافة انشاء من عنده ولا تنا
قض بين النسبتين ولفظ الرسول يدل على ذلك فان الرسول هو الذي يبلغ
كلام من ارسله وهذا صريح في انه كلام من ارسل جبريل ومحمدا صلى الله
عليه وسلم وان كلا منهما بلغه عن الله فهو قوله مبلغا وقول الله الذي تكلم
به حقا فلا راحة لمن انكر ان يكون الله متكلما بالقرآن وهو كلامه حقا
في هاتين الآيتين بل هما من اظهر الادلة على كونه كلام الرب تعالى وانه
ليس للرسولين الكريمين منه الا التبليغ فجبريل سمعه من الله ومحمد
صلى الله عليه وسلم سمعه من جبريل ووصف رسوله الملكي في هذه السورة

بأنه كريم قوي مكين عند الرب تعالى مطاع في السموات أمين فهذه
خمس صفات تتضمن تزكية سند القرآن وأنه سماع محمد من جبريل و
سماع جبريل من رب العالمين فناهيك بهذا السند علوا وجلالة
تولى الله سبحانه بنفسه تزكيته الصفة الأولى كون الرسول الذي جاء به
إلى محمد صلى الله عليه وسلم كريما ليس كما يقول أعداؤه إن الذي جاء به شيطان
فإن الشيطان خبيث مخبث لئيم قبيح المنظر عديم الخير باطنه أقبح من
ظاهره وظاهره أشنع من باطنه وليس فيه ولا عنده خير فهو أبعد شيء عن
الكرم والرسول الذي ألقى القرآن إلى محمد صلى الله عليه وسلم كريم جميل
المنظر بهي الصورة كثير الخير طيب مطيب معلم الطيبين وكل خير
في الأرض من هدى وعلم ومعرفة وإيمان وبر فهو مما أجراه ربه على يديه و
هذا غاية الكرم الصوري والمعنوي الوصف الثاني أنه ذو قوة كما قال
في موضع آخر علمه شديد القوى وفي ذلك تنبيه على أمور أحدها أنه
بقوته يمنع الشياطين أن تدنو منه وأن ينالوا منه شيئا وأن يزيدوا
فيه أو ينقصوا منه بل إذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقربه الثاني
أنه موال لهذا الرسول الذي كذبتموه ومعاضد له وموادّ له وناصر
كما قال تعالى وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين
والملائكة بعد ذلك ظهير ومن كان هذا القوي وليه ومن أنصاره
وأعوانه ومعلمه فهو المهدي المنصور والله هاديه وناصره الثالث
أن من عادى هذا الرسول فقد عادى صاحبه ووليه جبريل ومن
عاداه ذو القوة والشدة فهو عرضة للهلاك الرابع أنه قادر على تنفيذ
ما أمر به لقوته فلا يعجز عن ذلك مؤديا له كما أمر به لأمانته فهو القوي
الأمين وأنت أحدكم إذا انتدب غيره في أمر من الأمور لرسالة

أو ولاية

أو ولاية أو وكالة أو غيرها فإنما ينتدب لها القوي عليها الأمين على فعله
وإن كان ذلك الأمر من أهم الأمور عنده انتدب له قويا أمينا
معظما ذا مكانة عنده مطاعا في الناس كما وصف عبده جبريل بهذه
الصفات وهذا يدل على عظمة شأن المرسل والرسول والرسالة والمرسل إليه
حيث انتدب له الكريم القوي المكين عنده المطاع في الملأ الأعلى الأمين
حق الأمين فإن الملوك لا ترسل في مهماتها إلا الأشراف ذوي الأقدار
والرتب العالية وقوله عند ذي العرش مكين أي له مكانة ووجاهة
عنده وهو أقرب الملائكة إليه وفي قوله عند ذي العرش إشارة إلى علو
منزلة جبريل إذ كان قريبا من ذي العرش سبحانه وفي قوله مطاع
ثم إشارة إلى أن جنوده وأعوانه يطيعونه إذا ندبهم لنصر صاحبه وخليله
محمد صلى الله عليه وسلم وفيه إشارة أيضا إلى أن هذا الذي تكذبونه وتعادونه
سيصير مطاعا في الأرض كما أن جبريل مطاع في السماء وأن كلا
من الرسولين مطاع في محله وقومه وفيه تعظيم له بأنه بمنزلة الملوك
المطاعين في قومهم فلم ينتدب لهذا الأمر العظيم إلا مثل هذا الملك
المطاع وفي وصفه بالأمانة إشارة إلى حفظه ما حمله وأدائه له على وجهه
ثم نزه رسوله البشري وزكاه عما يقول فيه أعداؤه فقال وما صاحبكم
بمجنون وهذا أمر يعلمونه ولا يشكون فيه وإن قالوا بألسنتهم خلافه
فهم يعلمون أنهم كانوا كاذبين ثم أخبر عن رؤيته صلى الله عليه وسلم لجبريل و
هذا يتضمن أنه ملك موجود في الخارج يرى بالعيان ويدرك بالبصر
لا كما يقوله المتفلسفة ومن قلدهم أنه العقل الفعال وأنه ليس مما يدرك
بالبصر وحقيقته عندهم أنه خيال موجود في الأذهان لا في الأعيان
وهذا مما خالفوا به جميع الرسل وأتباعهم وخرجوا به عن جميع الملل ولهذا كان

تقريره رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل اهم من تقرير رؤيته لربه
تعالى فان رؤيته لجبريل هي اصل الايمان الذي لا يتم الا باعتقادها
ومن انكرها كفر قطعا واما رؤيته لربه تعالى فغايتها ان تكون مسئلة
نزاع لا يكفر جاحدها بالاتفاق وقد صرح جماعة من الصحابة بانه لم
يره وحكى عثمان ابن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على ذلك فنحن الى
تقرير رؤيته لجبريل احوج منا الى تقرير رؤيته لربه تعالى وان كانت
رؤية الرب اعظم من رؤية جبريل ومن دونه فان النبوة لا يتوقف
ثبوتها عليها البتة ثم نزه رسوليه كليهما احدهما بطريق النطق والثاني
بطريق اللزوم عما يضاد مقصود الرسالة من الكتمان الذي هو الضنة
والبخل والتبديل والتغيير الذي يوجب التهمة فقال وما هو على الغيب
بضنين فان الرسالة لا يتم مقصودها الا بامرين اداؤها من غير كتمان
واداؤها على وجهها من غير زيادة ولا نقصان والقراءتان كالآيتين
فتضمنت احداهما وهي قراءة الضاد تنزيهه عن البخل فان الضنين
البخيل يقال ضننت به اظن بوزن بخلت به ابخل ومعناه قال
منه قول جميل ابن معمر

اجود بمضنون التلاد وانني ❁ بسرك عمن سالني لضنين ❁

قال ابن عباس رضي الله عنهما ليس ببخيل بما انزل الله وقال
مجاهد لا يضن عليهم بما يعلم واجمع المفسرون على ان الغيب ههنا القرآن
والوحي وقال الفرا يقول تعالى يأتيه غيب السما وهو منفوس
فيه فلا يضن به عليكم وهذا معنى حسن جدا فان عادة النفوس الشح
بالشي النفيس ولا سيما عمن لا يعرف قدره ويذمه ويذم من هو عنده
ومع هذا فهذا الرسول لا يبخل عليكم بالوحي الذي هو انفس شي واجله

دفار ابدعل

الى فم وهذا اغراق النزع في جذب القوة بان يبلغ بها غاية المد فيقال
اغرق في النزع ثم صار مثلا لكل من بالغ في فعل حتى وصل الى آخره والغرق
اسم مصدر اقيم مقامه كالعطا والكلام اقيم مقامه الاعطا والتكلم و
اختلف الناس على النازعات متعد ولازم فعلى القول
الذي حكيناه يكون متعديا وهذا قول علي ومسروق ومقاتل وابي صالح وعطية عن
ابن عباس وقال ابن مسعود هي انفس الكفار وهو قول قتاده والسدي وعطا عن
ابن عباس وعلى هذا فهو فعل لازم وغرقا على هذا معناه نزعا شديدا
ابلغ ما يكون واشده وفي هذا القول ضعف من وجوه احدها
ان عطف ما بعده عليه يدل على انها الملائكة في السابحات والمدبرات والنازعات
الثاني ان الاقسام بنفوس الكفار خاصة ليس بالبين ولا في اللفظ ما يدل عليه
الثالث ان النزع مشترك بين نفوس بني آدم و
الاعراق لا يختص بالكافر وقال الحسن النازعات هي النجوم تنزع من المشرق
الى المغرب وغرقا هو غروبها قال تنزع من ههنا وتغرق ههنا واختاره
الاخفش وابو عبيدة وقال مجاهد هي شدائد الموت واهوالها
التي تنزع الارواح نزعا شديدا وقال عطا وعكرمة هي القسي والنازعات على هذا
القول بمعنى النسب اي ذوات النزع التي ينزع بها الرامي فهو النازع قلت
النازعات اسم فاعل من نزع ويقال نزع كذا اذا اجتذبه بقوة ونزع عن
كذا خلاه وتركه بعد ملابسته له ونزع اليه اذا ذهب اليه ومال
اليه وهذا انما توصف به النفوس التي لها حركة ارادية للميل الى الشي
والميل عنه واحق ما صدق عليه هذا الوصف الملائكة لان هذه
القوة فيها اكمل وموضع الآية فيها اعظم فهي التي تغرق في النزع اذا طلبت ما تنزع
وتنزع اليه والنفس الانسانية ايضا لها هذه القوة والنجوم

الى هنا ظاهر

ايضا تنزع من افق الى افق فالنزع حركة شديدة سوا كانت من ملك
ونفس انسانية او نجم والنفوس تنزع الى اوطانها والى مالوفها وعند
الموت تنزع الى ربها والمنايا تنزع النفوس والقسي تنزع بالسهام وفي
الملائكة تنزع من مكان الى مكان وتنزع ما وكلت بنزعه والخيل تنزع في
اعنتها نزعا تغرق فيه الاعنة لطول اعناقها فالصفة واقعة على كل من له هذه
الحركة التي هي اية من ايات الرب تعالى فانه هو الذي خلقها وخلق محلها وخلق
القوة والنفس التي بها تتحرك ومن ذكر صورة من هذه الصور فانما اراد
التمثيل وان كانت الملائكة احق من تناول هذا الوصف فاقسم بطوايف
الملائكة واصنافهم فالنازعات التي تنزع الارواح من الاجساد والناشطات
التي تنشطها اي تخرجها بسرعة وخفة من قولهم نشط الدلو من البير اذا
اخرجها وانا انشط بكذا اي اخفه واسرع والسابحات التي تسبح في
الهوى في طريق ممرها الى ما امرت به كما تسبح الطير في الهوى فالسابقات
التي تسبق وتسرع الى ما امرت به لا تبطي عنه ولا تتاخر فالمدبرات امور
العباد التي امرها ربها بتدبيرها وهذا اولى الاقوال وقد روي عن
ابن عباس ان النازعات الملائكة تنزع نفوس الكفار بشدة وعنف والناشطات
الملائكة التي تنشط ارواح المؤمنين بيسر وسهولة واختار الفرا هذا
القول فقال هي الملائكة تنشط نفس المؤمن فتقبضها وتنزع نفس
الكافر قال الواحدي انما اختار ذلك لما بين النشط والنزع من الفرق في
الشدة واللين فالنزع الجذب بشدة والنشط الجذب برفق ولين وقيل
الناشطات هي النفوس التي تنشط لما امرت به والملائكة احق
الخلق بذلك ونفوس المؤمنين ناشطة لما امرت به وقيل
السابحات هي النجوم تسبح في الفلك كما قال تعالى كل في فلك يسبحون وقيل هي

السفن

السفن تسبح في الماء وقيل هي نفوس المؤمنين تسبح بعد المفارقة صاعدة
الى ربها قلت ــــــ والصحيح انها الملائكة والسياق يدل عليه واما
السفن والنجوم فانما تسمى جارية وجواري كما قال تعالى ومن اياته
الجوار في البحر كالاعلام وقال حملناكم في الجارية وقال الجوار الكنس
ولم يسمها سابحات وان اطلق عليها فعل السباحة كقوله كل في فلك
يسبحون ويدل عليه ذكر السابقات بعدها والمدبرات بالفا وذكر
الثلاثة الاول بالواو ولان السبق والتدبير مسبب عن المذكور قبله
فانها نزعت ونشطت وسبحت فسبقت الى ما امرت به فدبرته ولو كانت
السابحات هي السفن او النجوم والنفوس الادمية لما عطف عليها فعل
السبق والتدبير بالفا فتامله قال مسروق ومقاتل والكلبي فالسابقات
سبقا هي الملائكة قال مجاهد وابو روق سبقت ابن ادم بالخير والعمل
الصالح والايمان والتصديق قال مقاتل تسبق بارواح المؤمنين
الى الجنة وقال الفرا والزجاج هي الملائكة تسبق الشياطين بالوحي الى الا
نبيا اذ كانت الشياطين تسترق السمع وهذا القول خطا لا يخفى فساده
اذ يقتضي الاشتراك بين الملائكة والشياطين في القايهم الوحي وان
الملائكة تسبقهم به الى الانبيا وهذا ليس بصحيح فان الوحي الذي تاتي الملا
يكة الى الانبيا لا تسترقه الشياطين وهم معزولون عن سماعه وان
استرقوا بعض ما يسمعونه من ملائكة السما الدنيا من امور الحوادث
فانه سبحانه صان وحيه الى الانبيا ان تسترق الشياطين شيا منه وعزلهم
عن سمعه ولو ان قايل هذا القول فسر السابقات بالملائكة التي
تسبق الشياطين بالرجم بالشهب قبل القا الكلمة التي استرقها لكان
له وجه فان الشيطان يبادر مسرعا بالقايها الى وليه فتسبقه الملائكة

في نزوله بالشهب الثواقب فتهلكه وربما ألقى الكلمة قبل إدراك الشهاب
له وفسرت السابقات سبقا بالأنفس السابقات الى طاعة الله ومرضاته
وأما المدبرات أمرا أجمعوا على أنها الملائكة قال مقاتل هم جبرئيل
وميكائيل وإسرافيل وملك الموت يدبرون أمر الله تعالى في الأرض وهم
المقسمات أمرا قال عبد الرحمن بن سابط جبرئيل موكل بالرياح
وبالجنود وميكائيل موكل بالقطر والنبات وملك الموت موكل
بقبض الأنفس وإسرافيل ينزل بأمر الله عليهم وقال ابن عباس
هم الملائكة وكلهم الله بأمور عرفهم العمل بها والوقوف عليها بعضهم لبني
آدم يحفظونه ويكتبون وبعضهم وكلوا بالأمطار والنبات والخسف
والمسخ والرياح والسحاب انتهى وقد أخبر أن الله وكل بالرحم ملكا وللرؤيا
ملك موكل بها وللجنة ملائكة موكلون بعمارتها وعمل آنيتها وأوانيها
وغراسها وفرشها ونمارقها وأرائكها وللنار ملائكة موكلة بعمل ما فيها
وإيقادها وغير ذلك فالدنيا وما فيها والجنة والنار والموت وأحكام البرزخ
قد وكل الله بذلك كله ملائكة يدبرون ما شاء الله من ذلك ولهذا كان
الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الذي لا يتم الإيمان إلا به
وأما من قال إنها النجوم فليس هذا من قول أهل الإسلام ولم يجعل الله
النجوم تدبر شيئا من الخلق بل هي مدبرة مسخرة كما قال تعالى والشمس والقمر
والنجوم مسخرات بأمره فإنه سبحانه هو المدبر بملائكته لأمر العالم العلوي
والسفلي قال الجرجاني وذكر السابقات والمدبرات بالفاء وما قبلها
بالواو لأن ما قبلها أقسام مستأنفة وهذان القسمان منشآن
عن الذي قبلهما كأنه قال فاللاتي سبحن فسبقن كما تقول قام فذهب
أوجب الفاء أن القيام كان سببا للذهاب ولو قلت قام وذهب

لم تجعل القيام

لم تجعل القيام سببا للذهاب واعترض عليه الواحدي فقال هذا غير مطرد
في هذه الآية لأنه يبعد أن يجعل السبق سببا للتدبير ومع أن السابقات
ليست الملائكة في قول المفسرين قلت ___ الملائكة
داخلون في السابقات قطعا وأما اختصاص السابقات بالملائكة فهذا
محتمل وأما قوله يبعد أن يكون السبق سببا للتدبير فليس كما زعم بل
السبق المبادرة إلى تنفيذ ما يؤمر به الملك فهو سبب للفعل الذي
أمر به وهو التدبير ومع أن الفاء التي للتعقيب وأن التدبير يعقب
السبق بلا تراخ بخلاف الأقسام الثلاثة والله أعلم وجواب
القسم محذوف يدل عليه السياق وهو البعث المستلزم لصدق الرسول
وثبوت القرآن أو أنه من القسم الذي أريد به التنبيه على الدلالة والعبرة
بالمقسم به دون أن يراد به مقسما عليه بعينه وهذا القسم يتضمن الجواب
المقسم عليه وإن لم يذكر لفظا ولعل هذا مراد من قال أنه محذوف للعلم به
لكن هذا الوجه ألطف مسلكا فإن المقسم به إذا كان دالا على المقسم عليه
مستلزما استغني عن ذكره بذكره وهذا غير كونه محذوفا لدلالة ما
بعده عليه فتأمله ولعل هذا قول من قال إنه إنما أقسم برب هذه الأشياء
وحذف المضاف فإن معناه صحيح لكن على غير الوجه الذي قدره فإن
إقسامه سبحانه بهذه الأشياء لظهور دلالتها على ربوبيته ووحدانيته
وعلمه وقدرته وحكمته فالإقسام بها في الحقيقة إقسام بربوبيته و
صفات كماله فتأمله ثم قرر سبحانه بعد هذا القسم المعاد ونبوة موسى
المستلزمة لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم إذ من المحال أن يكون موسى نبيا ومحمد
ليس بنبي مع أن ما ثبت به نبوة موسى فلمحمد نظيره أو أعظم منه وقرر سبحانه
تكليمه لموسى بندائه له بنفسه فقال إذ ناداه ربه فأثبت المستلزم للكلام

والتكليم وفي موضع اخر اثبت النجاء والنداء والنجا نوعا من التكليم ومحال
ثبوت النوع بدون الجنس ثم امره ان يخاطبه بالين خطاب فيقول
له هل لك الى ان تزكى واهديك الى ربك فتخشى ففي هذا من لطف الخطاب
ولينه من وجوه احدها اخراج الكلام مخرج العرض ولم يخرجه مخرج الامر
والالزام وهو الطف ونظيره قول ابراهيم لضيفه المكرمين الا تاكلون
ولم يقل كلوا الثاني قوله هل لك الى ان تزكى والتزكي النماء والطهارة و
البركة والزيادة فعرض عليه امرا يقبله كل عاقل ولا يرده الا كل احمق جاهل
الثالث قوله تزكى ولم يقل ازكيك فاضاف التزكية الى نفسه وعلى هذا
يخاطب الملوك الرابع قوله واهديك اي اكون دليلا لك وهاديا بين
يديك فنسب الهداية اليه والتزكي الى المخاطب اي اكون دليلا لك وها
ديا فتتزكى انت كما تقول للرجل هل لك ان ادلك على كنز تاخذ منه ما شئت
وهذا احسن من قوله اعطيك الخامس قوله الى ربك فان في هذا ما
يوجب قبول ما دل عليه وهو انه يدعوه الى ويوصله الى ربه فاطره وخالقه
الذي اوجده ورباه بنعمه جنينا وصغيرا وكبيرا واتاه الملك وهو
نوع من خطاب الاستعطاف والالزام كما تقول لمن خرج عن طاعة
سيده الا تطيع سيدك ومولاك ومالكك وتقول للولد الا تطيع اباك
الذي رباك السادس قوله فتخشى اي اذا اهتديت اليه وعرفته خشيته
لان من عرف الله خافه ومن لم يعرفه لم يخفه فخشيته تعالى مقرونة بمعرفته
وعلى قدر المعرفة تكون الخشية السابع ان في قوله هل لك فائدة
لطيفة وهي ان المعنى هل لك في ذلك حاجة او ارب ومعلوم ان كل عاقل
يبادر الى قبول ذلك لان الداعي انما يدعو الى حاجته ومصلحته لا الى حاجة
الداعي فكانه يقول الحاجة لك وانت المتزكي وانا الدليل لك والمرشد

الى اعظم

الى اعظم مصالحك فقابل هذا بغاية الكفر والعناد وادعى انه رب العباد
هذا وهو يعلم انه ليس بالذي خلق فسوى ولا قدر فهدى فكذب الخبر وعصى
الامر ثم ادبر يسعى بالخديعة والمكر فحشر جنوده فاجابوه ثم نادى فيهم بانه
ربهم الاعلى واستخفهم فاطاعوه فبطش به جبار السموات والارض
بطشة عزيز مقتدر واخذه نكال الاخرة والاولى ليعتبر بذلك من
يعتبر فاعتبر بذلك من خشي ربه من المؤمنين وحق القول على الكافرين
ثم اقام سبحانه حجته على العالمين بخلق ما هو اشد منهم واكبر واعظم واعلى و
ارفع وهو خلق السماء وبناؤها ورفع سمكها وتسويتها واظلام ليلها واخراج
ضحاها وخلق الارض ومدها وبسطها وتهيئتها لما يراد منها واخرج
منها شراب الحيوان واقواتهم وارسى الجبال فجعلها رواسي للارض وعمدها
لئلا تميد باهلها واودعها من المنافع ما يتم به مصالح الحيوان الناطق و
البهيم فمن قدر على ذلك كله كيف يعجز عن اعادتكم خلقا جديدا فتامل
دلالة المقسم به المذكور في اول السورة على المعاد والتوحيد وصدق
الرسل كدلالة هذا الدليل المذكور واذا كان هذا هو المقصود لم يكن محتا
جا الى جواب والله اعلم **فصل** ومن
ذلك قوله تعالى والمرسلات عرفا فا
لعاصفات عصفا والناشرات نشرا فالفارقات فرقا فالملقيات ذكرا
عذرا او نذرا انما توعدون لواقع فسرت المرسلات بالملائكة
وهو قول ابي هريرة وابن عباس في رواية مقاتل وجماعة وفسرت
بالرياح وهو قول ابن مسعود واحدى الروايتين عن ابن عباس وقول
قتادة وفسرت بالسحاب وهو قول الحسن وفسرت بالانبياء وهو
رواية عطاء عن ابن عباس قلت الله سبحانه يرسل الملائكة

ويرسل الأنبيا ويرسل الرياح ويرسل السحاب فيسوقه حيث يشا وير
سل الصواعق فيصيب بها من يشاء فارساله واقع على ذلك كله وهو نوعان
ارسال دين يحبه ويرضاه كارسال رسله وانبيائه وارسال كون وهو
نوعان نوع يحبه ويرضاه كارسال ملائكته في تدبير امر خلقه ونوع
لا يحبه بل يسخطه ويبغضه كارسال الشياطين على الكفار فالارسال
المقسم به ههنا مقيد بالعرف فاما ان يكون ضد المنكر فهو ارسال الرسل
من الملائكة ولا يدخل في ذلك ارسال الرياح ولا الصواعق ولا الشيا
طين واما ارسال الانبيا فلو اريد لقال والمرسلين وليس بالفصيح تسمية
الانبيا مرسلات وتكلف جماعات المرسلات خلاف المعهود من
استعمال اللفظ فلم يطلق في القرآن جمع ذلك الا جمع تذكير لا جمع تانيث
وايضا فاقتران اللفظة بما بعدها من الاقسام لا يناسب تفسيرها
بالانبيا وايضا فان الرسل مقسم عليهم في القرآن لا مقسم بهم كقوله تعالى
تالله لقد ارسلنا الى امم من قبلك وقوله وانك لمن المرسلين وقوله تعالى
يس والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين وان كان العرف من التتابع كعرف
الفرس وعرف الديك والناس الى فلان عرف واحد اذا سابقوه في
قصده والتوجه اليه جاز ان تكون المرسلات الرياح ويؤيده عطف
العاصفات عليها والناشرات وجاز ان تكون الملائكة
وجاز ان يعم النوعين لوقوع الارسال عرفا عليهما ويؤيده ان الرياح
موكل بها ملائكة تسوقها وتصرفها
ويؤيد كونها الرياح عطف العاصفات عليها بفاء التعقيب والتسبب
فكانها ارسلت فعصفت ومن جعل المرسلات
الملائكة قال هي تعصف في مضيها مسرعة كما تعصف

الرياح والاكثرون على انها الرياح وفيه قول ثالث
انها تعصف بروح الكافر يقال عصف بالشيء اذا اباده واهلكه
قال الاعشى [illegible] تعصف بالدارع والحاسر
حكاه ابو اسحق وهو قول متكلف فان
المقسم به لا بد ان يكون اية ظاهرة تدل على الربوبية واما الامور الغائبة
التي يؤمن بها فانما يقسم عليها وانما يقسم سبحانه بملائكته
وكتابه لظهور شانهما ولقيام الادلة والاعلام الظاهرة الدا
لة على ثبوتهما واما الناشرات نشرا فهو استيناف قسم اخر ولهذا اتى
به بالواو وما قبله معطوف على القسم الاول بالفا قال ابن مسعود و
الحسن ومجاهد وقتاده هي الرياح تاتي بالمطر ويدل على صحة قولهم قوله
تعالى وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته يعني انها تنشر السحاب
نشرا وهو ضد الطي وقال مقاتل هي الملائكة تنشر كتب بني ادم وصحائف
اعمالهم وقال مسروق وعطا عن ابن عباس وقالت طائفة هي الملائكة
تنشر اجنحتها في الجو عند صعودها ونزولها وقيل تنشر اوامره تعالى في الا
رض والسما وقيل تنشر النفوس فتحييها بالايمان وقال ابو صالح هي الا
مطار تنشر الارض اي تحييها قلت ويجوز ان تكون
الناشرات لازما لا مفعول له ولا يكون المراد انها نشرت كذا فانه يقال
نشر الميت حيي وانشره الله اذا احياه فيكون المراد بها الانفس التي حييت
بالعرف الذي ارسلت به المرسلات او الاشباح والارواح والبقاع التي
حييت بالرياح المرسلات فان الرياح سبب لنشور الابدان والنبات والوحي
سبب لنشور الارواح وحياتها لكن هنا امر ينبغي التفطن له وهو
انه سبحانه جعل الاقسام في هذه السورة نوعين وفصل احدهما من الاخر

وجعل العاصفات معطوفا على المرسلات بفاء التعقيب فصارا كأنهما نوعا
واحدا ثم جعل الناشرات كأنه قسم مبتدأ فأتى فيه بالواو ثم عطف عليه
الفارقات والملقيات بالفاء وهم هنا آت الفارقات والملقيات مرتبط
بالناشرات وان العاصفات مرتبط بالمرسلات وقد اختلف في الفا
رقات والأكثرون على انها الملائكة ويدل عليه عطف
الملقيات ذكرا عليها بالفاء وهي للملائكة بالاتفاق
وعلى هذا فيكون القسم بالملائكة التي تنشر اجنحتها
عند النزول فتفرق بين الحق والباطل فالقت الذكر على الرسل عذرا وانذارا
ومن جعل الناشرات الرياح جعل الفارقات صفة لها وقال هي تفرق
السحاب ههنا وههنا ولكن يأبى ذلك عطف الملقيات بالفاء عليها
ومن قال الفارقات اي القرآن يفرق بين الحق والباطل فقوله يلتئم
مع كون الناشرات الملائكة الكرام التباعد اذا قيل انها الرياح
ومن قال هي جماعات الرسل فان اراد الرسل من الملائكة فظاهر وان اراد الرسل
من البشر فقد تقدم بيان ضعف هذا القول ويظهر والله اعلم بما اراد
من كلامه سبحانه ان القسم في هذه الآية وقع على النوعين الرياح
والملائكة ووجه المناسبة ان حياة الارض والنبات وابدان
الحيوان بالرياح فانها من روح الله وقد جعلها الله تعالى نشورا وحياة
القلوب والارواح بالملائكة فبهذين النوعين يحصل نوعا الحياة
ولهذا والله اعلم فصل احد النوعين من الآخر بالواو وجعل ما هو تابع لكل
نوع بعده بالفاء وتأمل كيف وقع القسم في هذه السورة على المعاد والحياة
الدائمة الباقية وحال السعداء والاشقياء فيها وقررها بالحياة الأولى
في قوله ألم نخلقكم من ماء مهين فذكر فيها المبدأ والمعاد ولخلص السورة

لذلك

لذلك فحسن الاقسام بما يحصل به نوعا الحياة المشاهدة وهو الرياح
والملائكة فكان في القسم بذلك ابين دليل واظهر آية على صحة ما اقسم عليه
وتضمنته السورة ولهذا كان للمكذب بعد ذلك في غاية الجحود والعناد
والكفر فاستحق الويل بعد الويل فتضاعف عليه الويل كما تضاعف
منه الكفر والتكذيب فلا احسن من هذا التكرار في هذا
الموضع ولا اعظم موقعا فانه ذكر عشر مرات ولم يذكر الا
في اثر دليل او مدلول عليه عقب ما يوجب التصديق وما يوجب التصديق
به فتأمله

فصل ومن ذلك

قوله تعالى لا اقسم بيوم القيامة ولا اقسم بالنفس اللوامة
وقد تقدم ذكر هذين القسمين ومناسبة الجمع بينهما في الذكر وكون
الجواب غير مذكور وانه يجوز ان يكون مما حذف لدلالة السياق
عليه والعلم به ويجوز ان يكون من القسم المقصود به التنبيه على دلالة
المقسم به وكونه آية ولم يقصد به مقسما عليه معينا فكأنه يقول اذكر يوم
القيمة والنفس اللوامة مقسما بهما لكونهما من آياتنا وادلة ربوبيتنا
ثم انكر على الانسان بعد هذه الآية حسبانه وظنه ان الله لا يجمع
عظامه بعدما فرقها البلا ثم اخبر سبحانه عن قدرته على جمع اصغرها من
عظامه وعلى هذا فيكون سبحانه قد احتج على فعله لما انكره اعداؤه
بقدرته عليه والخبر عن فعله بانه لا يلزم من القدرة وقوع المقدور والمعنى
بل نجمعها قادرين على تسوية بنانه ودل على هذا المعنى المحذوف قوله
بلى فانها حرف ايجاب لما تقدم من النفي فلهذا يستغنى عن ذكر الفعل
بذكر الحرف الدال عليه وذلك الآية على الفعل وذكرت القدرة لابطال قول
المكذبين وفي ذكر البنان لطيفة اخرى وهي انها اطرافه واخر ما يتم به

خلق نمن قدر على جمع اطرافه واخر ما يتم به خلقه مع دقتها وصغرها
ولطافتها فهو على ما دون ذلك اقدر فالقوم لما استبعدوا جمع العظام
بعد الفنا والارمام قيل انا نجمع ونسوي اكثر منها تفرقا
وادقها اجزا واخر اطراف البدن وهي عظام الانامل ومفاصلها
وقالت طايفة المعنى نحن قادرون على ان نسوي اصابع يديه ورجليه
ونجعلها مستوية شيا واحدا كخف البعير وحافر
الحمار لا تفرق بينها ولا يمكنه ان يعمل بها شيا مما يعمل باصابعه المفرقة
ذات المفاصل والانامل من فنون الاعمال والبسط والقبض والتاتي
لما يريد من الحوائج وهذا قول ابن عباس وكثير من المفسرين والمعنى
على هذا القول انا في الدنيا قادرون على ان نجعل عظام بنانه مجموعة دون
تفرق فكيف لا نقدر على جمعها بعد تفريقها فهذا وجه من الاستدلال
غير الاول وهو الاستدلال بقدرته سبحانه على جمع العظام التي فرقها
ولم يجمعها والاول استدلال بقدرته سبحانه على جمع عظامه بعد تفريقها
وهما وجهان حسنان ولكل منهما الترجيح من وجه
فيرجح الاول انه هو المقصود وهو الذي انكره الكفار وهو اجرا على
نسق الكلام واطرد وان الكلام لم يسق لجمع العظام وتفريقها في
الدنيا وانما سيق لجمعها في الاخرة بعد تفرقها بالموت ويرجح القول
الثاني ولعله قول جمهور المفسرين حتى فيهم من لم يذكر غيره وانه استدلال
بامر ظاهر مشهود وهي تفرقة البنان مع انتظامها في كف واحد وار
تباط بعضها ببعض فهي متفرقة في عضو واحد يقبض منها واحدة ويبسط
اخرا ويحرك واحدة والاخرى ساكنة ويعمل بواحدة والاخرى معطلة
وكلها في كف واحد قد جمعها ساعد واحد فلو شا سبحانه لسواها فجعلها

صفة

صفة واحدة كباطن الكف ففاتت هذه المنافع والمصالح التي حصلت بتفر
يقها ففي هذا اعظم الادلة على قدرته سبحانه على جمع عظامه بعد الموت
ثم اخبر سبحانه عن سو حال الانسان واصراره على المعصية والفجور
وانه لا يرعوي ولا يخاف يوما يجمع الله فيه عظامه ويبعثه حيا بل هو مريد
للفجور ما عاش فيفجر في الحال ويريد الفجور فيما بعده وهذا عند
الذي يخاف الله والدار الاخرة فهذا لا يندم على ما مضى منه ولا يقلع في
الحال ولا يعزم في المستقبل على الترك بل هو عازم على الاستمرار وهذا
عند التايب المنيب ثم بين سبحانه ما الحامل له على ذلك وهو استبعاده
ليوم القيمة وليس هذا استبعاد الزمن مع اقراره بوقوعه بل هو استبعاد
لوقوعه كما حكى عنهم في موضع اخر قوله
ذلك رجع بعيد اي بعيد وقوعه ليس المراد انه واقع بعيد زمنه هذا قول
جماعة من المفسرين منهم ابن عباس واصحابه قال ابن عباس يقدم
الذنب ويوخر التوبة وقال قتادة وعكرمة قدما
قدما في معاصي الله لا ينزع عن فجوره وفي الاية قول اخر وهو ان المعنى بل
يريد الانسان ليكذب بما امامه من البعث ويوم القيمة وهذا قول
ابن زيد واختيار ابن قتيبة وابي اسحق قال هولاء ودليل ذلك قوله
يسل ايان يوم القيمة ويرجح هذا القول لفظة بل فانها تقتضي ان الانسان
لم يومن بيوم القيمة مع هذا البيان والحجة بل هو مريد للتكذيب به
ويرجح ايضا ان السياق كله في ذم المكذب بيوم القيمة لا في ذم العاصي
والفاجر وايضا فان ما قبل الاية وما بعدها يدل على المراد فانه قال ايحسب
الانسان ان لن نجمع عظامه بلى قادرين على ان نسوي بنانه فانكر سبحانه
عليه حسبانه ان الله لا يجمع عظامه ثم قرر عليه قدرته على ذلك ثم انكر عليه

الارادة التكذيب بيوم القيمة فالاول حسبان منه ان لا نجمعه بعد موته
والثاني تكذيب منه بيوم البعث وانه يريد ان يكذب بما وضح وبان
دليل وقوعه وثبوته فهو مريد للتكذيب به ثم اخبر عن تصريحه با
لتكذيب فقال يسئل ايان يوم القيمة فالاول ارادة التكذيب والثاني
نطق بالتكذيب وتكلم به وهذا قول قوي كما ترى لكن ينبغي افراغ هذه
الالفاظ في قوالب هذا المعنى فان لفظه يفجر انما تدل على عمل الفجور لا على التكذ
يب وحذف الموصول مع ما جره دا بتا الصلة خلاف الاصل فان
اصحاب هذا القول قالوا تقديره ليكذب بما امامه وهذا المعنى صحيح لكن
دلالة هذا اللفظ عليه ليست بالبينة فالجواب ان الامر
كذلك لكن الفعل اذا ضمن معنى فعل اخر لم يلزم اعطاه حكمه من جميع الوجوه
بل من جلالة هذه اللغة العظيمة الشان وجزالتها ان يذكر المتكلم فعلا وما
يضمنه معنى فعل اخر ويجري على المضمن احكاما لفظا
احكام الفعل الاخر معنى فيكون في قوة ذكر الفعلين
مع غاية الاختصار ومن تدبر هذا وجده كثيرا في كلام الله تعالى
فلفظ يفجر اقتضت امامه بلا واسطة حرف ولا اسم موصول فاعطت ما
اقتضته لفظا واقتضى ما تضمنته من الفعل ذكر الحرف والموصول فا
عطيه معنى فهذا وجه هذا القول لفظا ومعنى والله اعلم ثم اخبر سبحانه
عن حال هذا الانسان اذا شاهد اليوم الذي كذب به فقال فاذا
برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الانسان يومئذ
اين المفر فبرق بصره اي شخص لما يشاهده من العجايب التي كان يكذب
بها وخسف القمر ذهب ضوءه وانمحى وجمع الشمس والقمر ولم يجتمعا قبل ذلك
بل يجمعها الذي يجمع عظام الانسان بعدما فرقها البلا ومزقها اذ يجمع

للانسان

للانسان يومئذ جميع عمله الذي قدمه واخره من خير او شر ويجمع ذلك
من جمع القران في صدر رسوله ويجمع المؤمنين في دار الكرامة فيكرم
وجوههم بالنظر اليه ويجمع المكذبين في دار الهوان وهو قادر على ذلك
كله كما جمع خلق الانسان من نطفة من مني يمنى ثم جعله علقة مجتمعة
الاجزا بعدما كانت نطفة متفرقة في جميع بدن الانسان وكما يجمع بين
الانسان وملك الموت ويجمع بين الساق والساق اما ساق الميت
ساق من يجهز بدنه من البشر ومن يجهز روحه من الملايكة او يجمع عليه
شدايد الدنيا والاخرة فكيف هذا الانسان ان يجمع بينه وبين عمله
وجزائه وان يجمع مع بني جنسه ليوم الجمع وان يجمع عليه بين امر الله ونهيه
وعبوديته فلا يترك سدى مهملا معطلا لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا
يعاقب فلا يجمع عليه ذلك فما اجمع هذه السورة لمعاني الجمع والضم وقد افتتحت
بالقسم بيوم القيمة الذي يجمع الله فيه بين الاولين والاخرين وبالنفس
اللوامة التي اجتمع فيها همومها وغمومها وارادتها واعتقاداتها وتضمنت
ذكر المبدا والمعاد والقيمة الصغرى والكبرى واحوال الناس
في المعاد وانقسام وجوههم الى ناظرة منعمة وباسرة معذبة وتضمنت
وصف الروح بانها جسم ينتقل من مكان الى مكان فتجمع من تفاريق
البدن حتى تبلغ التراق ويقول محاضروه من راق اي من يرقى من
هذه العلة التي اعيت على الحاضرين اي التمسوا له من يرقيه والترقية امر
الطب وقيل من يرقى بها ويصعد املايكة الرحمة ام ملايكة العذاب
فعلى الاول تكون من رقي يرقى كرمى يرمي وعلى الثاني من رقي يرقى
كلقي يلقى ومصدر الرقا ومصدر الاول الرقية والقول الاول اظهر
لوجوه احدها انه ليس كل ميت يقول حاضروه من يرقى بروحه وهذا

انما يقوله من يتوجع برقي الملائكة بروح الميت وانهم ملائكة رحمة وملا
ئكة عذاب بخلاف التماس الرقية وهي الدعى فانه تلي بها بخلو منها المحتضر
الثاني ان الروح انما يرقي بها الملك بعد مفارقتها وحينئذ يقال من
يرقا بها واما قبل المفارقة فطلب الرقية للمريض من الحاضرين انسب من طلب
علم من يرقا بها الى الله الثالث ان فاعل الرقية يمكن العلم به
فيحسن السؤال عنه ويفيد السامع واما الراقي الى الله فلا يمكن العلم بتعيينه
حتى يسئل عنه ومن انما يسئل بها عن التعيين ما يمكن السائل ان يصل
الى العلم بتعيينه الرابع ان مثل هذا السؤال انما يراد به تخصيص واثارة
هموم الى فعل ما يقع بعده من قوله من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا او يراد به
انكار فعل ما يذكر بعدها كقوله من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه
وفعل الراقي الى الله لا يحسن فيه واحد من الامرين هنا بخلاف فاعل الرقية
فانه يحسن فيه الاول الخامس ان هذا خرج على عادة العرب وغيرهم في
طلب الرقية لمن وصل الى مثل تلك الحال فحكى سبحانه ما جرت
عادتهم بقوله وحذف فاعل القول لانه ليس الغرض متعلقا بالقايل با
القول ولم تجر عادة المخاطبين بان يقولوا من يرقى بروحه فكان حمل
الكلام على ما الف وجرت العادة بقوله اولى اذ هو تذكيرهم بما
يشاهدونه ويسمعونه السادس انه لا ريب ان هذا المعنى كان وجه الكلام
ان يقال من هو الراقي ومن الراقي لا وجه للكلام غير ذلك كما يقال من هو
القايل منكم كذا وكذا وفي الحديث من القايل كلمة كذا السابع ان كلمة
من انما يسال بها عن التعيين كما يقول من الذي فعل كذا ومن ذا الذي
قال فيعلم ان فاعلا وقايلا فعل وقال ولا يعلم تعيينه فيسال عن تعيينه
بمن تارة وباي تارة وهم لم يسالوا عن تعيين الملك الراقي بالروح الى الله

فان قيل

فان قيل بل علموا ان ملك الرحمة والعذاب صاعد بروحه ولم يعلموا تعيينه
فيسئلوا عن تعيين احدهما قيل هم يعلمون ان تعيينه غير ممكن فكيف
يسئلون عن تعيين ما لا سبيل للسامع الى تعيينه ولا الى الكلمة بالعلم
به الثامن ان الاية انما سيقت لبيان ياسه من نفسه و
ياس الحاضرين معه وتحقق اسباب الموت وانه قد حضر ولم يبق شي ينجع
فيه ولا مخلص منه بل هو قد ظن انه مفارق لا محالة وان من حوله قد
علموا انه لم يبق لاسباب الحياة المعتادة تاثير في بقاه فطلبوا اسبابا
خارجة عن المقدور تستجلب الراقي والدعوات فقالوا من راق اي من
يرقي هذا العليل من اسباب الهلاك والرقية عندهم كانت مستعملة
حيث لا يجدي الدوا التاسع ان مثل هذا انما يراد به النفي والاستبعاد
وهو احد التقديرين في الاية اي لا احد يرقي من هذه انما يراد به
نفي العلم بعد ما وصل صاحبها الى هذه الحال فهو استبعاد لنفع الرقية
لا طلب لوجود الراقي كقوله قال من يحيي العظام وهي رميم اي لا احد
يحييها وقد صارت الى هذه الحال فان اريد بها هذا المعنى استحال ان يكون
من الرقي وان اريد بها الطلب استحال ايضا ان يكون منه وقد بينا ان في
مثل هذا انما تستعمل للطلب او للانكار وحينئذ فنقول في الوجه
العاشر انها اما ان يراد بها الطلب او الاستبعاد والطلب اما ان يراد به
طلب الفعل او طلب التعيين ولا سبيل الى حمل واحد من هذه المعاني على
الرقي لما بيناه والله اعلم

فصل

ومن اسرار
هذه السورة انه سبحانه جمع فيها لاوليائه بين جمال الظاهر والباطن
فزين وجوههم بالنضرة وبواطنهم بالنظر اليه فلا اجمل لبواطنهم ولا انعم
ولا احلى من النظر اليه ولا اجمل لظواهرهم من نضرة الوجه وهي اشراقه

وتحسينه وبهجته وهذا كما قال في موضع آخر ولقاهم نضرة وسرورا ونظيره
قوله يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا فهذا جمال الظاهر
وزينته ثم قال ولباس التقوى ذلك خير فهذا جمال الباطن ونظيره قوله
إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب فهذا جمال ظاهرها ثم قال وحفظا
من كل شيطان مارد فهذا جمال باطنها ونظيره قوله عن امرأة العزيز
نعماله قالت ليوسف اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن
حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم قالت فذلكن الذي لمتنني
فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم فذكرها لهذا هو من تمام وصفها لحما
سنه وأنه في غاية المحاسن ظاهرا وباطنا وينظر إلى هذا المعنى ويناسبه
قوله إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى فقابل بين
الجوع والعري لأن الجوع ذل الباطن والعري ذل الظاهر الحسي وإن الباطن
المعنوي فهذا زاد سفر الدنيا وهذا زاد سفر الآخرة ومثله قول هود يا قوم
استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم
فالأول القوة الظاهرة المنفصلة عنهم والثاني الباطنة المتصلة بهم و
يشبهه قوله فما له من قوة ولا ناصر فنفى عنهم الدافعين الدافع من أنفسهم وقوله
والدافع من خارج وهو الناصر **فصل** ومن أسرارها
أنها تضمنت إثبات قدرة الرب على ما علم أنه لا يكون ولا يفعله وهذا
على أحد القولين في قوله بلى قادرين على أن نسوي بنانه فأخبر أنه قادر
عليه ولم يفعله ولم يرده وأصرح من هذا قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء
بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون وهذا
أيضا على أحد القولين أي تغور العيون في الأرض فلا يقدر على الماء قال
ابن عباس يريد أن يغيض فيذهب فلا يكون من هذا الباب

بل يكون

وقابل بين الظما وهو حر الباطن والضحى وهو حر الظاهر بالبروز للشمس وقريب من هذا قوله تعالى وتزودوا فإن خير الزاد التقوى فذكر الزاد الظاهر صح

بل يكون من باب القدرة على ما سيفعله وأصرح من هذين الموضعين قوله
تعالى قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم
وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عند نزول هذه الآية أعوذ بو
جهك ولكن قد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه لا بد أن يقع في أمته خسف
ولكن لا يكون عاما وهذا عذاب من تحت الأرجل وروي أنه كان في
الأمة قذف أيضا وهذا عذاب من فوق فيكون هذا من باب الإخبار
بقدرته على ما سيفعله وإن أريد به القدرة على هذا العذاب الذي يستأصل
فهو من القدرة على ما لا يريده وقد صرح سبحانه بأنه لو شاء لفعل ما لم يفعله
في غير موضع من كتابه كقوله ولو شاء ربك لآمن من في الأرض
كلهم جميعا وقوله ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ونظائره
وهذا مما لا خفاء فيه بين أهل السنة وبه تبين فساد قول من قال
إن القدرة لا تكون إلا مع الفعل لا قبله وأن الصواب التفصيل بين
القدرة الموجبة والمصححة فنفي القدرة عن الفاعل قبل الملابسة مطلقا
خطأ والله أعلم **فصل** ومن أسرارها أنها تضمنت التأني
والتثبت في تلقي العلم وأن لا يحمل السامع شدة محبته وحرصه وطلبه على مبا
درة المعلم بالأخذ قبل فراغه من كلامه بل من آداب الرب التي أدب بها
نبيه صلى الله عليه وسلم أمره بترك الاستعجال على تلقي الوحي بل يصبر إلى أن
يفرغ جبريل من قراءته ثم يقرأه بعد فراغه عليه فهكذا ينبغي لطالب
العلم ولسامعه أن يصبر على معلمه حتى يقضي كلامه ثم يعيده عليه أو يسأل عما
أشكل عليه منه ولا يبادر قبل فراغه وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في ثلاثة
مواضع من كتابه هذا أحدها والثاني قوله وكذلك أنزلناه حكما عربيا
وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا فتعالى الله الملك

الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علما والثاني
قوله سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله فضمن لرسوله أن لا ينسى ما أقرأه
إياه وهذا يتناول القراءة وما بعدها وقد ذم الله سبحانه في هذه السورة
من يؤثر العاجلة على الآجلة وهذا لاستعجاله بالتمتع بما يفنى وإيثاره
ما يبقى وهو سبب كل ذم وعيب ففي هذه السورة على هذا الاستعجال ومحبة
العاجلة فإرادته أن يفجر أمامه هو من استعجاله وحب العاجلة وتكذيبه
بيوم القيامة من فرط حب العاجلة وإيثاره لها واستعجاله بنصيبه
وتمتعه به قبل أوانه ولولا حب العاجلة وتكذيبه طلب الاستعجال
لتمتع به في الآجلة أكمل ما يكون وكذلك تكذيبه وتوليه وترك الصلاة
هو من استعجاله ومحبته العاجلة والرب سبحانه وصف نفسه بضد ذلك
فلم يعجل على عبده بل أمهله إلى أن بلغت الروح التراقي وأيقن بالموت وهو
إلى هذه الحال مستمر على التكذيب والتولي والرب تعالى لا يعاجله بل يمهله
ويحدث له الذكر شيئا بعد شيء ويصرف له الآيات ويضرب له الأمثال
وينبهه على مبدأه من كونه نطفة من مني يمنى ثم علقة ثم خلقا سويا
فلم يعجل عليه بالخلق وهلة واحدة ولا بالعقوبة إذ كذب خبره وعصى
أمره بل كان خلقه وأمره وجزاؤه بعد تمهل وتدريج وأناة ولهذا ذم
الإنسان بالعجلة بقوله وكان الإنسان عجولا وقال خلق الإنسان
من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون

فصل

ومن أسرارها أن إثبات النبوة والمعاد يعلم بالعقل وهذا أحد
القولين لأصحابنا وغيرهم وهو الصواب فإن الله سبحانه أنكر على من
حسب أنه يترك سدى فلا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب ولم ينف
سبحانه ذلك بطريق الخبر المجرد بل نفاه نفي ما لا يليق نسبته إليه

وينفي منكر

وينفي منكره على من حكم به وظنه ثم استدل سبحانه على فساد ذلك و
بين أن خلقه الإنسان في هذه الأطوار وتنقله فيها طورا بعد طور حتى
بلغ نهايته يأبى أن يتركه سدى فإنه ينزه عن ذلك كما ينزه عن العبث والعيب
والنقص وهذه طريقة القرآن في غير موضع كما قال تعالى أفحسبتم أنما خلقناكم
كم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب
العرش الكريم فجعل كمال ملكه وكونه سبحانه الحق وكونه لا إله إلا هو وكونه
رب العرش المستلزم لربوبيته لكل ما دونه مبطلا لذلك الظن الباطل
والحكم الكاذب وإنكاره هذا الحسبان عليهم مثل إنكاره عليهم حسبانهم أنه
لا يسمع سرهم ونجواهم وحسبان أنه لا يراهم ولا يقدر عليهم وحسبان أنه يسوي
بين أوليائه وبين أعدائه في محياهم ومماتهم وغير ذلك مما هو منزه عنه
تنزهه عن سائر العيوب والنقائص وأن نسبة ذلك كنسبة ما يتعالى
عنه مما لا يليق من اتخاذ الولد والشريك ونحو ذلك مما ينكره
سبحانه على من حسبه أشد الإنكار فدل على أن ذلك قبيح تمتنع نسبته
إليه كما يمتنع أن ينسب إليه سائر ما ينافي كماله المقدس ولو كان نفي تركه
سدى إنما يعلم بالسمع المجرد لم يقل بعد ذلك ألم يك نطفة إلى آخره وما يدل
أن تعطيل أسمائه وصفاته ممتنع وكذلك تعطيل موجبها ومقتضاها
فإن ملكه الحق يستلزم أمره ونهيه وثوابه وعقابه وكذلك يستلزم
إرسال رسله وإنزال كتبه وبعث المعاد ليوم يجزي فيه المحسن بإحسانه
والمسيء بإساءته فمن أنكر ذلك فقد أنكر حقيقة ملكه ولم يثبت له الملك الحق
ولذلك كان منكر ذلك كافرا بربه وإن زعم أنه يقر بصانع العالم فلم يقر
بالملك الحق الموصوف بصفات الجلال والمستحق لنعوت الكمال كان
المعطل لكلامه وعلوه على خلقه لم يؤمن به سبحانه فإنه آمن برب لا يتكلم

ولا يأمر ولا ينهى ولا يصعد إليه قول ولا عمل ولا ينزل من عنده ملك ولا أمر
ولا نهي ولا ترفع إليه الأيدي ومعلوم أن هذا الذي آمن به رب مقدر في
ذهنه ليس هو رب العالمين وإله المرسلين وكذلك إذا اعتبرت اسمه
الحي وجدته مقتضيا لصفات كماله من علمه وسمعه وبصره وقدرته
وإرادته ورحمته وفعله ما يشاء واسمه القيوم مقتض لتدبير أمر العالم العلوي
والسفلي وقيامه بمصالحهم وحفظه له فمن أنكر صفات كماله لم يؤمن بأنه الحي
القيوم وإن أقر بذلك ألحد في أسمائه وعطل حقائقها حيث لم يمكنه تعطيل
ألفاظها وبالله التوفيق فصل ومن ذلك قوله
تعالى كلا والقمر والليل إذ أدبر والصبح إذا أسفر إنها لإحدى الكبر نذيرا للبشر
لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر أقسم سبحانه بالقمر الذي هو آية الليل و
فيه من الآيات الباهرة الدالة على ربوبية خالقه وبارئه وحكمته وعلمه
وعنايته بخلقه ما هو معلوم بالمشاهدة وهو سبحانه أقسم بالسماء وما
فيها ما لا نراه من الملائكة وما فيها ما نراه من الشمس والقمر والنجوم
وما يحدث بسبب حركات الشمس والقمر من الليل والنهار وكل ذلك آية
من آياته ودلالة من دلائل ربوبيته ومن تدبر أمر هذين النيرين
العظيمين وجدهما من أعظم الآيات في خلقهما وجرمهما ونورهما وحركتهما
على نهج واحد لا ينيان ولا يفتران دائبين ولا يقع في حركتهما اختلاف
بالبطء والسرعة والرجوع والاستقامة والانخفاض والارتفاع
ولا يجري أحدهما في فلك صاحبه ولا يدخل عليه في سلطانه ولا تدرك
الشمس القمر ولا يجيء الليل قبل انقضاء النهار بل لكل حركة مقدرة ونهج
معين لا يشركه فيه الآخر كما أن لكل منهما تأثيرا ومنفعة لا يشركه فيها الآخر
وذلك مما يدل من له أدنى عقل على أنه بتسخير مسخر وأمر آمر وتدبير

بلغ

مدبر بهرت حكمته العقول وأحاط علمه بكل دقيق وجليل وفي القمر ما علمه
الناس من الحكم الذي في خلقها ما لا تصل إليه عقولهم ولا تنتهي إلى مباديها
أوهامهم فغايتنا أن نعترف بجلال خالقها وكمال الحكمة ولطف تدبيره
وأن نقول ما قال أولو الألباب قبلنا ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك
فقنا عذاب النار ولولا أن العيان وصفه جرم أسود مستدير عظيم
الخلق يبدو فيه النور كخيط متسحر ثم يتزايد كل ليلة حتى يتكامل
نوره فيصير أضوأ شيء وأحسنه وأجمله ثم يأخذ في النقصان حتى يعود
إلى حالته الأولى فيحصل بسبب ذلك معرفة الأشهر والسنين وحساب
آجال العالم من مواقيت حجهم وصلاتهم ومواقيت إجاراتهم ومداينتهم
ومعاملتهم التي لا تقوم مصالحهم إلا بها فمصالح الدنيا والدين متعلقة
بالأهلة وقد ذكر سبحانه ذلك في ثلاث آيات من كتابه أحدها قوله
يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج والثانية قوله هو
الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين
والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون و
الثالثة قوله وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية
النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب
وكل شيء فصلناه تفصيلا فلولا ما يحدثه الله سبحانه في آية الليل من
زيادة ضوءها ونقصانه لم يعلم ميقات الحج والصوم والعدد ومدة
الرضاع ومدة الحمل ومدة الإجارة ومدة آجال الحاملات فإن قيل
كان يمكن هنا بحركة الشمس والأيام التي تحفظ بطلوع
الشمس وغروبها كما يعرف أهل الكتاب مواقيت صيامهم وأعيادهم بحساب
الشمس قيل هذا وإن كان ممكنا إلا أنه يعسر ضبطه ولا يتفق

عليه الا الآحاد من الناس ولا ريب ان معرفة اوايل الشهور واوساطها
واواخرها بالقمر يشترك فيه الناس وهو اسهل من معرفة ذلك
بحساب الشمس واقل اضطرابا واختلافا ولا يحتاج الى تكلف حساب
وتقليد من لا يعرفه من الناس لمن يعرفه فالحكمة البالغة التي
في تقدير السنين والشهور بسير القمر اظهر وانفع واصلح واقل اختلافا
من تقديرها بسير الشمس فالرب جل جلاله دبر الاهلة بهذا التدبير
العجيب لمنافع خلقه في مصالح دينهم ودنياهم مع ما يتصل به من
الاستدلال به على وحدانية الرب وكمال حكمته وعلمه وتدبيره فشهادة
الحق بتغير الاجرام الفلكية وقيام ادلة الحدوث والخلق عليها فهي
ايات ناطقة بلسان الحال على تكذيب الدهرية
وزنادقة الفلاسفة والملاحدة القائلين بانها ازلية ابدية لا
يتطرق اليها التغيير ولا يمكن عدمها فاذا تامل البصير القمر مثلا وافتقاره
الى محل يقوم به وسيره دايبا لا يفتر مسير مسخر مدبر وهبوطه
تارة وارتفاعه تارة وافوله تارة وظهوره تارة وذهاب نوره شيا فشيا
ثم عوده اليه كذلك وذهاب ضوءه جملة واحدة حتى يعود قطعة مظلمة
بالكسوف علم قطعا انه مخلوق مربوب مسخر تحت امر خالق قاهر مسخر
له كما يشا وعلم ان الرب سبحانه لم يخلق هذا باطلا وان هذه الحركة
فيه لا بد ان تنتهي الى الانقطاع والسكون وان هذا الضوء والنور
لا بد ان ينتهي الى ضده وان هذا السلطان لا بد ان ينتهي الى العزل
وسيجمع بينهما جامع المتفرقات بعد ان لم يكونا مجتمعين ويذهب بهما
حيث شا ويري المشركين من عبدهما حال الهتهم التي عبدوها
من دونه كما يري عباد الكواكب انتشارها وعباد السماء انفطارها

وعباد الشمس

وعباد الشمس تكويرها وعباد الاصنام اهانتها والقاها في النار
احقر شي واذله واصغره كما اري عباد العجل في الدنيا حاله ومبادر عباده
سحقه ونسفه والتحريق بحرقه وتذروه ونسفه في اليم وكما اري عباد الاصنام
في الدنيا صورها مكسرة مجذذة ملقاة بالامكنة القذرة ومعاول
الموحدين قد هشمت منها تلك الوجوه وكسرت تلك الروس وقطعت
تلك الايدي والارجل التي كانت لا يوصل اليها بغير التقبيل والاستلام
وهذه سنة الله التي لا تبدل وعادته التي لا تحول انه يري عابد غيره
حال معبوده في الدنيا والاخرة وان كان المعبود غير راض بعبادة
غيره اراه تبريه منه ومعاداته له احوج ما يكون اليه ليهلك من هلك
عن بينة ويحيى من حي عن بينة وليعلم الذين كفروا انهم كانوا كاذبين

تامل سطور الكاينات فانها * من الملك الاعلى اليك رسايل
وقد خط فيها لو تاملت خطها * الا كل شي ما خلا الله باطل

ولو شاء تعالى لابقى القمر على حالة واحدة لا يتغير وجعل التغير في الشمس
ولو شاء لغيرهما معا ولو شاء لابقاهما على حالة واحدة ولكن يري عباده
اياته في انواع تصاريفها ليدلهم على انه الله الذي لا اله الا هو الملك الحق
المبين الفعال لما يريد الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين
واما تاثير القمر في ترطيب ابدان الحيوان والنبات وفي المياه وجزر
البحر ومده وبحرانات الامراض وتنقلها من حال الى حال وغير ذلك من
المنافع فامر ظاهر

فصل

واما اقسامه سبحانه
بالليل اذا ادبر فلما في ادباره واقبال النهار من ابين الدلالات الظاهرة
على المبدا والمعاد فانه مبدا ومعاد يومي مشهود بالعيان بينا الحيوان
في سكون الليل قد هدت حركاتهم وسكنت اصواتهم ونامت عيونهم

وصاروا اخوان الاموات اذا اقبل من النهار داعيه واسمع الخلايق مناديه
فانتشرت منهم الحركات وارتفعت منهم الاصوات حتى كانهم قاموا
احياء من القبور يقول قايلهم الحمد لله الذي احيانا بعد ما اماتنا و
اليه النشور فهو معاد جديد ابداه واعاده الذي يبدي ويعيد فمن
ذهب بالليل وجاء بالنهار سوى الواحد القهار فمن تامل حال الليل
اذا عسعس وادبر والصبح اذا تنفس واسفر فهزم جيوش الظلام بنفسه
واضاء افق العالم بقبسه وفل كتايب الكواكب بعساكره واضحك نواحي
الارض بتناشيره وبشايره فيالها ايتان شاهدتان بوحدانية
منشيهما وكمال ربوبيته وعظم قدرته وحكمته فتبارك الذي جعل طلوع
الشمس وغروبها مقيمًا لسلطان الليل والنهار فلولا طلوعها لبطل امر
العالم كله فكيف كان الناس يسعون في معاشهم ويتصرفون في امورهم
والدنيا مظلمة عليهم وكيف كانت تهنيهم الحياة مع فقدانهم النور وروحه
واي ثمار ونبات وحيوان كان يوجد وكيف كانت تتم مصالح ابدان الحيوان
والنبات ولولا غروبها لم يكن للناس هدو ولا قرار مع عظم حاجتهم الى
الهدو لراحة ابدانهم وجموم حواسهم فلولا جثوم هذا الليل عليهم بظلمته
ما هدأوا ولا قروا ولا سكنوا بل جعل احكم الحاكمين
سكنًا ولباسًا كما جعل النهار ضياء و
معاشًا ولولا الليل وبرده لاحترقت ابدان النبات والحيوان من دوام
شروق الشمس عليها وكان يحرق ما عليها من نبات وحيوان فاقتضت
حكمة احكم الحاكمين ان جعلها
سراجًا يطلع على العالم في وقت حاجتهم اليه ويغيب في وقت استغنائهم
عنه فطلوعه لمصلحتهم وغيبته لمصلحتهم وصار النور والظلمة على تضادها

متفاوتين

متفاوتين متظاهرين على مصلحة هذا العالم وقوامه فلو جعل الله سبحانه
النهار سرمدًا الى يوم القيمة او الليل سرمدًا الى يوم القيمة لفاتت مصا
لح العالم واشتدت الضرورة الى تغيير ذلك وازالته بضده وتامل حكمته
سبحانه في ارتفاع الشمس وانخفاضها لاقامة هذه الازمنة الاربعة
من السنة وما في ذلك من مصالح الخلق ففي الشتا تغور الحرارة في
الشجر والنبات فيتولد منها مواد الثمار ويكثف الهوا فينشا منه السحاب وينعقد
فيحدث المطر الذي به حياة الارض ونما ابدان الحيوان والنبات وحصول
الافعال والقوى وحركات الطبايع وفي الصيف يحتدم الهوا فينضج
الثمار وتشتد الحبوب ويجف وجه الارض فيتهيا العمل وفي الخريف يصفو
الهوا وتبرد الحرارة ويمتد الليل وتسترجع الارض والشجر للحمل والنبات
مرة ثانية بمنزلة راحة الحامل بين الحملين ففي هذه الازمنة مبدا
ومعاد مشهود وشاهد بالمبدا والمعاد الغيبي والمقصود ان بحركتي
النيرين تتم مصالح العالم وبذلك يظهر الزمان فان الزمان مقدار الحركة فا
لسنة الشمسية مقدار سير الشمس من نقطة الحمل الى مثلها والسنة القمرية
مقدرة بسير القمر وهو اقرب الى الضبط واشترك الناس في العلم به وقدر
احكم الحاكمين تنقلهما في منازلهما لما في ذلك من تمام
الحكمة ولطف التدبير فان الشمس لو كانت تطلع وتغرب في
موضع واحد لا تتعداه لما وصل ضوها وشعاعها الى كثير
من الجهات فكان نفعها يفقد هناك فجعل الله سبحانه طلوعها دولا بين
الارض لينال نفعها وتاثيرها البقاع فلا يبقى موضع من المواضع التي يمكن
ان تطلع عليها الا اخذ بقسطه من نفعها واقتضى هذا التدبير المحكم
ان وقع مقدار الليل والنهار على اربعة وعشرين ساعة ويأخذ كل منهما

بلغ

من صاحبه ومنتهى كل منهما اذا امتد خمسة عشر ساعة فلو زاد مقدار
النهار على ذلك الى خمسين ساعة مثلا او اكثر لاختل نظام العالم وفسد
اكثر الحيوان والنبات ولو نقص مقداره عن ذلك لاختل النظام ايضا و
تعطلت المصالح ولو استويا دائما لما اختلفت فصول السنة التي باختلافها
مصالح العباد والحيوان فكان في هذا التقدير والتدبير المحكم من الايات
والمصالح والمنافع ما يشهد بان ذلك تقدير العزيز العليم ولهذا يذكر سبحانه
هذا التقدير ويضيفه الى عزته وعلمه كما قال تعالى وآية لهم الليل نسلخ منه
النهار فاذا هم مظلمون والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم و
قال تعالى قل ائنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين وتجعلون له
اندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر
فيها اقواتها في اربعة ايام سواء للسائلين ثم استوى الى السماء وهي
دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا او كرها قالتا اتينا طائعين فقضاهن
سبع سموات في يومين واوحى في كل سماء امرها وزينا السماء
الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم وقال تعالى فالق الاصباح
وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم فهذه ثلاثة
مواضع يذكر فيها ان تقدير حركات الشمس والقمر والاجرام العلوية وما ينشا
عنها كان من مقتضى عزته وعلمه وانه قدره بهاتين الصفتين وفي
هذا تكذيب لاعداء الله الملاحدة الذين ينفون قدرته واختياره وعلمه
بالمغيبات

فصل

واقسم سبحانه بهذه الاشيا
الثلاثة وهي القمر والليل اذا ادبر والصبح اذا اسفر على المعاد لما في
القسم من الدلالة على ثبوت المقسم عليه فانه يتضمن كمال قدرته وحكمته
وعنايته بخلقه وابداء الخلق واعادته كما هو مشهود في ابداء النهار

والليل

والليل واعادتهما وفي ابداء النور واعادته في القمر وفي ابداء الزمان واعادته
الذي هو حاصل بسير الشمس والقمر وابداء الحيوان والنبات واعادتهما وابداء
فصول السنة واعادتها وابداء ما يحدث في تلك الفصول واعادته فكل
ذلك دليل ظاهر على المبدا والمعاد الذي اخبرت به الرسل كلهم عن الله
فصرف سبحانه الايات الدالة على صدق رسله ونوعها وجعلها
للفطر تارة وللسمع تارة وللمشاهدة تارة فجعلها افاقية ونفسية ومنقولة
ومعقولة ومشهودة بالعيان ومذكورة بالجنان فابى الظالمون
الا كفورا واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون
ولا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا
ولما قام الحجة وبين المحجة ارتهن كل نفس بكسبها واخذها بذنبها
واستثنى من اولئك من قبل هداه واتبع رضاه وهم اصحاب اليمين
الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وسلكوا غير سبيل المجرمين الذين ليسوا من
المصلين ولا من مطعمي المسكين وهم من اهل الخوض مع الخائضين المكذ
بين بيوم الدين فهذه اربع صفات اخرجتهم من زمرة المفلحين وادخلتهم في
جملة الهالكين الاولى ترك الصلاة وهي عمود الاخلاص للمعبود الثانية
ترك اطعام المسكين الذي هو من باب الاحسان للعبيد فلا اخلاص
للخالق ولا احسان للمخلوق كما قال تعالى الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون
وقال لا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ولا ينفقون الا وهم كارهون
وهذا ضد ما وصف به اصحاب اليمين بقوله الذين يقيمون الصلاة ومما رز
قناهم ينفقون وقال تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا
وطمعا ومما رزقناهم ينفقون وقرن سبحانه بين هذين الاصلين
في غير موضع في كتابه فامر بهما تارة واثنى على فاعليهما تارة وتوعد

بالويل والعقاب تاركها تارك فان مدار النجاة عليها ولا فلاح لمن اخل بها
اتصف بها الثالثة والرابعة الخوض بالباطل والتكذيب بالحق فا
جتمع لهم عدم الاخلاص والاحسان والخوض بالباطل والتكذيب بالحق
واجتمع لاصحاب الاخلاص والاحسان والتصديق بالحق والتكلم به
فاستقام اخلاصهم واحسانهم ويقينهم وكلامهم واستبدل اصحاب
الشمال بالاخلاص شركا وبالاحسان اساءة وباليقين شكا وتكذيبا
وبالكلام النافع خوضا في الباطل فلذلك لم تنفعهم شفاعة الشافعين
اي لم يكن لهم من شفيع فيهم لان الشفاعة تنفع فيهم ولا تنفع وهذا
لما اعرضوا عن التذكرة ولم يرفعوا بها راسا وجفلوا عن سماعها كما تجفل
حمر الوحش من الاسد او من الرماة ثم ختم السورة بانه جمع فيها بين
شرعه وقدره واقامة الحجة عليهم باثبات المشية لهم وبيان مقتضى التوحيد
والربوبية وان ذلك اليه لا اليهم فالاول عدله والثاني فضله فالاول
يوجب السعي والطلب والحرص على ما ينجيهم مما يفعلون ذلك في مصالح
دنياهم بل اشد والثاني يوجب الاستعانة والتوكل والتفويض والرغبة
الى من ذلك بيده ليسهل ويوفقهم والله المستعان وعليه التكلان

فصل ومن ذلك قوله

فلا اقسم بما تبصرون وما لا تبصرون انه لقول رسول كريم الى اخرها قال
مقاتل بما تبصرون من الخلق وما لا تبصرون منه وقال قتادة اقسم بالاشيا
كلها بما يبصر منها وما لا يبصر وقال الكلبي تبصرون من شيء وما لا تبصرون
من شيء وهذا اعم قسم وقع في القران فانه يعم العلويات والسفليات والدنيا
والاخرة وما يرى ويدخل في ذلك الملايكة كلهم والجن والانس والعرش
والكرسي وكل الخلوق وكل ذلك من ايات قدرته وربوبيته وهو سبحانه

يصرف

يقولوا التي هي احسن قل للمومنين يغضوا من ابصارهم ونظاير فاذا بلغ
الرسول ذلك صح ان يقال قال الرسول كذا وكذا وهذا قول الرسول
اي قاله مبلغا وهذا قوله مبلغا عن مرسله ولا يجي في شي من ذلك
تكلم لهم بكذا وكذا ولا تكلم الرسول بكذا وكذا ولا انه بكلام رسول كريم
ولا في موضع واحد بل قيل الصديق وقد تلى اية هذا كلامك وكلام صاحبك
فقال ليس بكلامي ولا كلام صاحبي هذا كلام الله

فصل

الامر الثالث ما تضمنه قوله تنزيل من رب العالمين ان ربوبيته
لهم وملكه لخلقه تابى ان يتركهم سدى لا يامرهم ولا ينهاهم ولا يرشدهم الى
ما ينفعهم ويحذرهم ما يضرهم بل يتركهم هملا بمنزلة الانعام السايمة فمن
زعم ذلك لم يقدر رب العالمين قدره ونسبه الى ما لا يليق به تعالى فتعالى الله الملك
الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم ثم اقام سبحانه البرهان القاطع على صدق
رسوله وانه لم يتقول عليه فيما قاله وانه لو تقول عليه لما اقره ولعاجله بالا
هلاك فان كمال علمه وقدرته وحكمته تابى ان يقر من تقول عليه وافترى عليه
واضل عباده واستباح دماء من كذبه وحريمهم واموالهم واظهر في الارض
الفساد والجور والكذب وخلاف الحق فكيف يليق باحكم الحاكمين
وارحم الراحمين واقدر القادرين ان يقره على ذلك بل كيف يليق به ان يؤيده
وينصره ويعليه ويظهره ويظفره باهل الحق يسفك دماءهم ويستبيح اموالهم واولا
دهم ونساءهم قايلا ان الله امرني بذلك واباحه لي بل كيف يليق به ان
يصدقه بانواع التصديق كلها فيصدقه باقراره وبالايات المستلزمة
لصدقه التي دلالتها على التصديق كدلالة التصديق بالقول واظهر ثم
يصدقه بانواعها كلها على اختلافها فكل اية على انفرادها مصدقة
له ثم يحصل باجتماع تلك الايات تصديق فوق تصديق كل اية بمفردها

ثم يعجز الخلق عن معارضته ثم يصدقه بكلامه وقوله ثم يقيم الدلالة القاطعة
على ان هذا قوله وكلامه فيشهد له باقراره وفعله وقوله فمن اعظم المحال
وابطل الباطل وابين البهتان ان يجوز على احكم الحاكمين
ورب العالمين ان يفعل ذلك بالكاذب المفتري عليه الذي هو شر خلق على
الاطلاق فمن جوز على الله ان يفعل هذا بشر خلقه واكذبهم فما آمن بالله قطعا
ولا عرف الله ولا هذا هو رب العالمين ولا يحسن نسبة ذلك الى من
له مسكة من عقل وحكمة وحجى ومن فعل ذلك فقد ازرى بنفسه ونادى
على جهله **واذكر** في هذا مناظرة جرت لي مع بعض
اليهودي قلت له بعد ان افضى في نبوة النبي صلى الله عليه وسلم الى ان قلت له
انكار نبوته يتضمن القدح في رب العالمين وتنقصه باقبح التنقص فكان
الكلام معكم في الرسول والكلام الآن في
تنزيه الرب تعالى فقال كيف تقول مثل هذا الكلام فقلت له
بيانه علي فاسمع الآن انتم تزعمون انه لم يكن رسولا وانما
كان ملكا قاهرا قهر الناس بسيفه حتى دانوا له ومكث ثلاثا
وعشرين سنة يكذب على الله ويقول اوحي الي ولم يوح اليه وامرني
ولم يأمره ونهاني ولم ينهه وقال الله كذا ولم يقل ذلك واحل كذا وحرم كذا
واوجب كذا وكره كذا ولم يحل ذلك
ولا حرمه ولا اوجبه بل هو فعل ذلك من تلقاء نفسه كاذبا مفتريا على الله
وعلى انبيائه وعلى رسله وملائكته ثم مكث من ذلك ثلاثة عشر سنة
يستعرض عباده يسفك دماءهم ويأخذ اموالهم ويسترق نساءهم و
ابناءهم ولا ذنب لهم الا الرد عليه ومخالفته وهو في ذلك كله يقول الله امرني
بذلك ولم يأمره ومع ذلك فهو ساع في تبديل اديان الرسل ونسخ شرائعهم
وحل

علما خ

م

وحل نواميسهم فهذه حاله عندكم فلا يخلو اما ان يكون الرب تعالى عالما بذلك
مطلعا عليه من حاله يراه ويشاهده ام لا فان قلتم ان ذلك جميعه عن غير
علمه لم يعلم به قدحتم في الرب تعالى ونسبتموه الى الجهل المفرط اذ لم يطلع على هذا
الحادث العظيم ولا علمه ولا رآه وان قلتم بل كان ذلك بعلمه واطلاعه ومشاهدته
قيل لكم فهل كان قادرا على ان يغير ذلك ويأخذ على يديه ويحول بينه
وبينه ام لا فان قلتم ليس قادرا على ذلك نسبتموه الى العجز المنافي للربوبية
وكان هذا الانسان هو واتباعه اقدر منه على تنفيذ ارادتهم وان قلتم بل
كان قادرا ومكنه ونصره وسلطه على الخلق ولم ينصر اولياءه واتباع رسله
نسبتموه الى اعظم السفه والظلم والاخلال بالحكمة هذا لو كان مخليا بينه
وبين ما فعله فكيف وهو في ذلك كله ناصره ومؤيده ومجيب دعواته
ومهلك من خالفه وكذبه ومصدقه بانواع التصديق ومظهر الآيات
على يديه التي لو اجتمع اهل الارض كلهم على ان يأتوا بواحدة منها لما امكنهم
ولعجزوا عن ذلك وكل وقت من الاوقات يحدث له من اسباب النصر و
التمكين والظهور والعلو وكثرة الاتباع امرا خارجا عن العادة فظهر ان من
انكر كونه رسولا نبيا فقد سب الله وقدح فيه ونسبه الى الجهل والعجز والسفه
فقلت له ولا ينتقض هذا بالملوك الظلمة الذين مكنهم في الارض
وقتا ما ثم قطع دابرهم وابطل سنتهم ومحى آثارهم وجورهم فان اولئك لم
يعيدوا اشياء من هذا ولا ايدوا ونصروا وظهرت على ايديهم الآيات ولا
صدقهم الرب تعالى باقراره ولا بفعله ولا بقوله بل امرهم كان بالضد من امر الرسول
كفرعون ونمرود وامثالهما ولا ينتقض هذا بمن ادعى النبوة من الكذابين
فان حاله كانت ضد حال الرسول من كل وجه بل حاله من اعظم الادلة على
صدق الرسول ومن حكمة الله سبحانه ان اخرج مثل هؤلاء الى الوجود ليعلم

ليعلم حال الكاذبين وحال الصادقين وكان ظهورهم من ابين الادلة
على صدق الرسل والفرق بين هؤلاء وبينهم فبضدها تتبين الاشياء و
الضد يظهر حسنه الضد لمعرفة ادلة الباطل وشبهه من انواع ادلة الحق
وبراهينه فلما سمع ذلك قال معاذ الله لا نقول انه ملك ظالم بل
نبي كريم من اتبعه فهو من السعداء وكذلك من اتبع موسى
فهو كمن اتبع محمدا قلت له بطل كلامك لانه هو به
بعد هذا فانكم اذا اقررتم انه نبي صادق فلا بد من تصديقه في جميع ما اخبر به
وقد علم اتباعه واعداؤه بالضرورة انه دعى الناس كلهم الى الايمان واخبر انه
من لم يؤمن به فهو كافر مخلد في النار وقاتل من لم يؤمن به من اهل الكتاب
واسجل عليهم بالكفر واستباح اموالهم ودماءهم ونساءهم وابناءهم فان كان
ذلك عدوانا منه وجورا لم يكن نبيا وعاد الامر الى القدح في الرب تعالى
وان كان ذلك بامر الله ووحيه لم يسع مخالفته وترك اتباعه ولزم تصديقه
فيما اخبر به وطاعته فيما امر وقد ارشد سبحانه الى هذا المسلك في
غير موضع من كتابه فقال ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا
منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من احد عنه
حاجزين يقول سبحانه لو تقول علينا قولا واحدا من تلقاء نفسه لم نقله
ولم نوحه اليه لما اقررناه ولاخذنا بيمينه ثم اهلكناه هذا احد التأويلين
قال ابن قتيبة في هذا قولان احدهما ان اليمين القوة والقدرة واقام
اليمين مقام القوة لان العرب قوة كل شيء في ميامنه قلت
وعلى هذا تكون اليمين من صفة الاخذ وهذا قول ابن عباس في اليمين
قال ولاهل اللغة في هذا مذهب اخر وهو ان الكلام ورد على ما اعتاده
الناس من الاخذ بيد من يعاقب وهو قولهم اذا ارادوا عقوبة

رجل

رجل خذ بيده واكثر ما يقوله السلطان والحاكم بعد وجوب الحكم خذ بيده
واسفع بيده فكانه قال لو كذب علينا في شي [الكيم عنا] لاخذنا
بيمينه ثم عاقبناه بقطع الوتين والى هذا المعنى ذهب الحسن انتهى فقد
اخبر سبحانه انه لو تقول عليه شيئا من الاقاويل لما اقره ولعاجله بالعقوبة
فان كذبا على الله ليس ككذب على غيره ولا يليق به ان يقر الكاذب عليه
فضلا عن ان ينصره ويؤيده ويصدقه وقوله ثم لقطعنا منه الوتين الوتين
نياط القلب وهو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب اذا انقطع بطلت
القوى ومات صاحبه هذا قول جميع اهل اللغة قال ابن قتيبة ولم يرد انا
نقطع ذلك العرق بعينه ولكنه اراد لو كذب علينا لامتناه او قتلناه فكان
كمن قطع وتينه قال ومثله قوله صلى الله عليه وسلم ما زالت اكلة خيبر
تعاودني وهذا اوان قطعت ابهري والابهر عرق يتصل بالقلب فاذا انقطع
مات صاحبه فكانه قال هذا اوان قتلني السم فكنت كمن انقطع ابهره ثم قال
تعالى فما منكم من احد عنه حاجزين اي لا يحجزني منه احد
ولا يمنعه مني الموضع الثاني قوله تعالى ام يقولون افترى على الله كذبا فان يشاء
الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته انه عليم بذات الصدور
وفي معنى الاية للناس قولان احدهما قول مجاهد ومقاتل ان يشاء
الله يربط على قلبك بالصبر على اذاهم حتى لا يشق عليك والثاني قول قتادة ان
يشاء الله ينسيك القران ويقطع عنك الوحي وهذا هو القول دون الاول
لوجوه احدها ان هذا خرج جوابا لهم وتكذيبا لقولهم ان محمدا كذب على الله
وافترى عليه هذا القران فاجابهم باحسن جواب وهو ان الله تعالى قادر
لا يعجزه شيء فلو كان كما تقولون لختم على قلبه فلا يمكنه ان ياتي بشيء منه
بل يطبع القلب كالشيء المختوم عليه فلا يصل اليه ما فيه فيعود المعنى الى انه لو

خ انقطاع

افتراه على الله لمكنه ولم اقدر و معلوم ان مثل هذا الكلام لا يصدر من
قلب مختوم عليه فان فيه من علوم الاولين والاخرين وعلم المبدا والمعاد و
الدنيا والاخرة والعلم الذي لا يعلمه الا الله والبيان التام والجزالة والفصاحة
والجلالة والاخبار بالغيوب ما لم يمكن من ختم على قلبه ان يأتي به و لا
ببعضه فلولا اني انزلته على قلبه ويسرته بلسانه لما امكنه ان يأتيكم
بشيء منه فاين هذا المعنى الى المعنى الذي ذكره الاخرون وكيف يلتئم معنى
حكاية قولهم وكيف يتضمن الرد عليهم الوجه الثاني
ان مجرد الربط على قلبه بالصبر على اذاهم يصدر من المحق والمبطل فلا يدل ذلك
على التمييز بينهما ولا يكون فيه رد لقولهم فان الصبر على اذى المكذب لا يدل
بمجرده على صدق المخبر الثالث ان الربط على قلب العبد لا يقال له ختم
على قلبه ولا يعرف هذا في عرف المخاطب ولا لغة العرب ولا هو المعهود في القرآن
بل المعهود استعمال الختم على القلب في شان الكفار في جميع موارد اللفظ في
القرآن كقوله ختم الله على قلوبهم وقوله افرايت من اتخذ
الهه هواه واضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة و
نظائره واما ربطه على قلب العبد بالصبر فكقوله وربطنا على قلوبهم اذ قاموا
فقالوا ربنا رب السموات والارض وقوله واصبح فؤاد ام موسى فارغا ان
كادت لتبدي به لولا ان ربطنا على قلبها والانسان يسوغ له في الدعا
ان يقول اللهم اربط على قلبي ولا يحسن ان يقول اللهم اختم على قلبي الرابع انه
سبحانه حيث يحكي اقوالهم انه افتراه لا يجيبهم على هذا الجواب بل يجيبهم
بانه لو افتراه لم يملكوا له من الله شيئا بل كان ياخذه ولا يقدرون على
تخليصه كقوله ام يقولون افتراه قل ان افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا
وتارة يجيبهم بالمطالبة بمعارضته بمثله او بشيء منه وتارة باقامة الادلة

القاطعة على انه الحق وانهم هم الكاذبون المفترون وهذا هو الذي يحسن
في جواب هذا السؤال لا مجرد الصبر انما يحسن ان هذه الاية نظير
ما نحن فيه وانه لو شاء لما اقرأه ولا مكنه وتفسير القرآن بالقرآن من ابلغ
التفاسير السادس انه لا دلالة في سياق الاية على الصبر بوجه ما لا با
لمطابقة ولا التضمن ولا اللزوم فمن اين يعلم انه اراد ذلك ولم يستعمل هذا
المعنى في غير هذا المعنى فيحمل عليه بخلاف كونه يحول بينه وبينه
ولا يمكنه من الافترا عليه فقد ذكره في موضع السابع انه سبحانه اخبر انه
لو شاء لما تلاه عليهم ولا ادراهم به وان ذلك انما هو بمشيئته واذنه وعلمه
كما قال تعالى فلو شاء الله ما تلوته عليكم ولا ادراكم به وهذا من ابلغ الحجج واظهرها
اي هذا الكلام ليس من قبلي ولا من عندي ولا ادراكم به وقدر ان افتريه
على الله ولو كان ذلك ذلك مقدورا لي لكان مقدورا لمن هو اهل العلم والكتابة
ومخالطة الناس واعلم منهم ولكن الله يعيني به ولو شاء سبحانه لم ينزله
ولم ييسره بلساني فلم يدعني اتلوه عليكم وان اعلمكم به البتة لا على لساني ولا
لسان غيري ولكنه اوحاه الي واذن لي في تلاوته عليكم وادراكم به بعد ان لم
تكونوا داريين به فلو كان كذبا وافتراء كما تقولون لامكن غيري ان يتلوه
عليكم وتدرون به من جهته لان الكذب لا يعجز عنه البشر وانتم لم تدروا بهذا
ولم تسمعوا المعنى ولم تسمعوه من بشر غيري ثم اجاب عن سؤال مقدر وهو انه
تعلم من غيره او افتراه من تلقاء نفسه فقال فقد لبثت فيكم عمرا من قبله
تعلمون حالي ولا يخفى عليكم سيري ومدخلي ومخرجي وصدقي وامانتي
ومن هذا لم اتمكن من قول شيء منه البتة ولا كان لي به علم ولا ببعضه ثم اتيتكم
به وهلة من غير تعلم ولا تعلم ولا معاناة للاسباب التي اتمكن بها منه
ولا من بعضه وهذا من اظهر الادلة وابين البراهين انه من عند الله وحاه

إليك وأنزله علي ولو شاء ما فعل فلم يمكني من تلاوته ولا مكنكم من العلم به بل مكنني
من تلاوته ومكنكم من العلم به فلم تكونوا عالمين به ولا ببعضه ولم أكن
قبل أن يوحي إلي تاليا له ولا ببعضه فتأمل صحة هذا الدليل وحسن تأليفه
وظهور دلالته ومن هذا قوله سبحانه ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا
إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا وهذا هو المناسب لقوله أم يقولون
افترى على الله كذبا فإن يشأ الله يختم على قلبك ولقوله ولو تقول علينا بعض
الأقاويل لأخذنا منه باليمين فهو برهان مستقل مذكور في القرآن على
وجوه متعددة والله أعلم. الثامن أن مثل هذا التركيب إنما جاء
في القرآن للنفي لا للإثبات كقوله تعالى ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا
إليك وقوله إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وقوله إن يشأ يسكن
الريح فيظللن رواكد على ظهره وقوله إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم
كسفا من السماء ونظائره لم يأت أن فيها كان ما بعد فعل المشيئة منفيا
التاسع أن الختم على القلب لا يستلزم الصبر بل قد يختم على قلب
العبد ويسلبه صبره بل إذا ختم على القلب زال الصبر وضعف بخلاف الربط
على القلب فإنه يستلزم الصبر قال تعالى وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم
به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ومعنى الربط في اللغة الشد
ولهذا يقال لكل من صبر على أمر ربط قلبه كأنه حبس قلبه عن الاضطراب ومنه
يقال هو رابط الجأش وقد ظن الواحدي أن على زائدة والمعنى يربط قلوبكم
وليس كما ظن بل بين ربط الشيء والربط عليه فرق ظاهر فإنه يقال ربط الفرس
والدابة ولا يقال ربط عليها فإذا أحاط الرباط بالشيء وعمه قيل ربط عليه
كأنه أحاط عليه بالرباط فلهذا قيل ربط على قلبه وكان أحسن من أن يقال ربط
قلبه والمقصود أن هذا الربط معه يكون الصبر أشد وأثبت بخلاف

الختم

الختم العاشر أن الختم هو شد القلب حتى لا يشعر ولا يفهم فيوهم أنه يمنع
العلم والمقصود والنبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم قول أعدائه إنه افترى
القرآن ويشعر به فلم يجعل الله على قلبه ما نفى من شعوره بذلك وعلمه به
فإذا قيل إنه مراد بذلك وكونه جعل الله على قلبه ما نفى من التأذي بقولهم قيل
هذا أولى أن لا يسمى ختما وقد كان يتأذى بقولهم ويحزنه كما قال تعالى قد نعلم
إنه ليحزنك الذي يقولون وكان وصول هذا الأذى إليه من كرامة
الله له فإنه لم يؤذ نبي ما أوذي فالقول في الآية هو قول قتادة
والله أعلم ثم أخبر سبحانه أن القرآن تذكرة للمتقين يتذكر به المتقي ما
فيبصرها بنفعه فيأتيه وما يضره فيجتنبه ويتذكر به أسماء الرب
تعالى وصفاته وأفعاله فيعرفه ويتذكر به ثوابه وعقابه ووعده و
أمره ونهيه وآياته في أوليائه وأعدائه ونفسه وأحكامها وطرقها و
عللها وما يفسدها ويصلحها ويقويها ويتذكر به علم المبدأ والمعاد والجنة
والنار وعلم الخير والشر فهو التذكرة على الحقيقة تذكرة حجة للعالمين ومنفعة
وهداية للمتقين ثم قال سبحانه وإنا لنعلم أن منكم مكذبين أي لا يخفون
علينا فنجازيهم بتكذيبهم ثم أخبر سبحانه أن رسوله وكلامه حسرة على
الكافرين إذا عاينوا حقيقة ما أخبر به كان تكذيبهم عليهم من أعظم الحسرات
حين لا ينفعهم التحسر وهكذا كل من كذب بحق وصدق بباطل فإنه إذا
انكشف له حقيقة ما كذب به وصدق به كان تكذيبه وتصديقه حسرة
عليه كمن فرط فيما ينفعه وقت تحصيله حتى إذا اشتدت حاجته إليه وعاين
فوز المحصلين صار تفريطه عليه حسرة ثم أخبر سبحانه أن القرآن والرسول حق
اليقين فقيل هو من باب إضافة الموصوف إلى الصفة أي الحق اليقين نحو مسجد
الجامع وصلاة الأولى وهذا موضع يحتاج إلى تحقيق فنقول

وبالله التوفيق ذكر الله سبحانه في كتابه مراتب
اليقين وهي ثلاثة حق اليقين وعلم اليقين وعين اليقين كما قال تعالى كلا
لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين فهذه ثلاث مراتب
لليقين اولها علمه وهو التصديق التام به بحيث لا يعرض له شك ولا
شبهة تقدح في تصديقه كعلم اليقين بالجنة مثلا وتيقنهم انها دار المتقين
ومقر المؤمنين فهذه مرتبة العلم كتيقنهم ان الرسل اخبروا بها عن الله و
تيقنهم صدق المخبر المرتبة الثانية عين اليقين وهي مرتبة
الرؤية والمشاهدة كما قال تعالى ثم لترونها عين اليقين وبين هذه المرتبة
والتي قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة كما قال تعالى ثم لترونها عين اليقين
وبين هذه المرتبة فاليقين للسمع وعين اليقين للبصر وفي المسند للا
مام احمد مرفوعا ليس الخبر كالمعاين وهذه المرتبة هي التي سالها ابراهيم
الخليل ربه ان يريه كيف يحيي الموتى ليحصل له مع علم اليقين عين اليقين
فكان سؤاله زيادة لنفسه وطمانينة لقلبه فيسكن القلب عند المعاينة
ويطمئن لقطع المسافة التي بين الخبر والعيان وعلى هذه المسافة اطلق
النبي صلى الله عليه وسلم لفظ الشك حيث قال نحن احق بالشك من ابرا
هيم ومعاذ الله ان يكون هناك شك منه ولا من ابراهيم وانما هو عين بعد
علم وشهود بعد خبر ومعاينة بعد سماع المرتبة الثالثة
مرتبة حق اليقين وهي مباشرة الشيء بالاحساس به كما اذا دخلوا
الجنة وتمتعوا بما فيها فهم في الدنيا في مرتبة علم اليقين وفي الموقف حين
تزلف وتقرب منهم حتى يعاينوها في مرتبة عين اليقين واذا دخلوها
وباشروها في مرتبة حق اليقين ومباشرة المعلوم تارة يكون بالحواس
الظاهرة وتارة يكون بالقلب فلهذا قال وانه لحق اليقين فان القلب

يباشر

يباشر الايمان به ويخالطه كما يباشر بالحواس ما يتعلق بها فحينئذ تخالط
بشاشته القلوب ويبقى لها حق اليقين وهذه اعلى مراتب الايمان
وهي الصديقية التي تتفاوت فيها مراتب المؤمنين وقد ضرب بعض
العلماء للمراتب الثلاث مثالا فقال اذا قال لك من تجزم بصدقه عندي
عسل اريد ان اطعمك منه فصدقته كان ذلك علم يقين فاذا احضره بين
يديك صار ذلك عين اليقين فاذا ذقته صار ذلك حق اليقين وعلى هذا
فليست هذه الاضافة من باب اضافة الموصوف الى صفته بل من اضافة
الجنس الى نوعه فان العلم والعين والحق اعم من كونها يقينا فاضيف العام الى
الخاص مثل بعض المتاع وكل الدراهم ولما كان المضاف والمضاف اليه
في هذا الباب يصدقان على ذات واحدة بخلاف قولك دار عمرو وثوب
زيد ظن من ظن انها من اضافة الموصوف الى صفته وليس كذلك بل هي
من باب اضافة الجنس الى نوعه كثوب خز وخاتم فضة فالمضاف اليه قد
يكون مغايرا للمضاف لا يصدقان على ذات واحدة وقد يجانسه فيصدقان
على مسمى واحد واعلم انه ختم السورة بقوله فسبح باسم ربك العظيم وهي جد
يرة بهذه الخاتمة لما تضمنته من الاخبار عن عظمة الرب تعالى وجلاله وذكر
عظمة ملكه وجريان حكمه بالعدل على عباده في الدنيا والاخرة وذكر عظمته
تعالى في ارسال رسوله وانزال كتابه وانه تعالى اعظم واجل واكبر عند اهل سمواته
والمؤمنين من عباده من ان يقر كذابا متقولا عليه مفتريا عليه يبدل
دينه وينسخ شرائعه ويقتل عباده ويخبر عنه بما لا حقيقة له وهو سبحانه
مع ذلك يؤيده وينصره ويجيب دعواته ويأخذ اعداءه ويرفع قدره
ويعلي ذكره فهو سبحانه العظيم الذي تأبى عظمته ان يفعل ذلك بمن اتى باقبح
انواع الكذب والظلم فسبحان ربنا العظيم وتعالى عما ينسب اليه الجاهلون

علوا كبيرا

فصل ومن ذلك

قوله عز وجل فلا اقسم برب المشارق والمغارب انا لقادرون
على ان نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين اقسم سبحانه برب المشارق
والمغارب وهي اما مشارق النجوم ومغاربها او مشارق الشمس ومغاربها
وان كل موضع من الجهة مشرق ومغرب فكذلك جمع في موضع وافرد في
موضع وثنى في موضع اخر فقال رب المشرقين ورب المغربين فقيل هما
مشرقا الصيف والشتا وجا في كل موضع ما يناسبه فجا في سورة
الرحمن رب المشرقين ورب المغربين لان هذه السورة ذكرت فيها المزدوجات
فذكر فيها الخلق والتعليم والشمس والقمر والنجم والشجر والسما والارض
والحب والثمر والجن والانس ومادة ابي البشر وابي الجن والبحرين والجنة
والنار وقسم الجنة الى جنتين عاليتين وجنتين دونهما واخبر ان في كل جنة
عينين فناسب كل المناسبة ان يذكر المشرقين والمغربين واما سورة
سال سائل فانه اقسم سبحانه على عموم قدرته وكمالها وصحة تعلقها باعادتهم بعد
العدم فذكر المشارق والمغارب بلفظ الجمع اذ هو ادل على المقسم عليه
سوا اريد مشارق النجوم ومغاربها او مشارق الشمس ومغاربها
او كل جزء من جهتي المشرق والمغرب فكل ذلك اية ودلالة على قدرته تعالى
على ان يبدل امثال هؤلاء المكذبين وينشئهم فيما لا يعلمون فياتي بهم في
نشاة اخرى كما ياتي بالشمس كل يوم من مطلع وتذهب في مغرب
واما في سورة المزمل فذكر المشرق والمغرب بلفظ الافراد لما كان المقصود
ذكر ربوبيته ووحدانيته وانه كما انه تفرد بربوبية
المشرق والمغرب وحده فكذلك يجب ان يتفرد بالربوبية والتوكل
عليه وحده فليس للمشرق والمغرب رب سواه فكذلك ينبغي ان لا يتخذ

اله ولا وكيل

اله ولا وكيل سواه وكذلك قال موسى لفرعون حين ساله وما رب العالمين
فقال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون وفي ربوبيته سبحانه
للمشارق والمغارب تنبيه على ربوبية السموات وما حوته من الشمس والقمر
والنجوم وربوبية ما بين الجهتين وربوبية الليل والنهار وما تضمناه
ثم قال انا لقادرون على ان نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين
اي لقادرون على ان نذهب بهم ونأتي باطوع لنا منهم وخيرا منهم كما قا
ل تعالى ان يشا يذهبكم ايها الناس ويات باخرين وكان الله على ذلك قديرا
وقوله وما نحن بمسبوقين اي لا يفوتني ذلك اذا اردته ولا يمتنع مني
وعبر عن هذا المعنى بقوله وما نحن بمسبوقين لان المغلوب يسبقه الغالب
الى ما يريده فيفوت عليه ولهذا عداه بعلى دون الى كما في قوله وما نحن بمسبوقين
على ان نبدل امثالكم فانه لما ضمنه معنى مغلوبين ومقهورين عداه بعلى بخلاف
سبقه اليه فانه فرق بين سبقته اليه فانه فرق بين سبقته عليه وسبقته
اليه فالاول بمعنى غلبته وقهرته عليه والثاني بمعنى وصلت اليه قبله

فصل وقد وقع الاخبار عن قدرته عليه سبحانه على تبديلهم
بخير منهم وفي بعضها بتبديل امثالهم وفي بعضها استبداله قوما غيرهم ثم لا
يكونوا امثالهم فهذه ثلاثة امور يجب معرفة ما بينها من الجمع والفرق
فحيث وقع التبديل بخير منهم فهو اخبار عن قدرته على ان يذهب بهم
وياتي باطوع وانفع له منهم في الدنيا وذلك قوله وان تتولوا يستبدل
قوما غيركم ثم لا يكونوا امثالكم معنى بل يكونوا خيرا منكم قال مجاهد
يستبدل بهم من شا من عباده فيجعلهم خيرا من هؤلاء فلم يتولوا بحمد الله
فلم يستبدل بهم واما ذكر تبديل امثالهم ففي سورة الواقعة وسورة
الانسان فقال في الواقعة نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين

على ان نبدل امثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون وقال في سورة الانسان نحن خلقنا
هم وشددنا اسرهم واذا شئنا بدلنا امثالهم تبديلا قال كثير
من المفسرين المعنى انا اذا اردنا ان نخلق خلقا غيركم لم يسبقنا سابق
ولم يفتنا ذلك وفي قوله واذا شئنا بدلنا امثالهم تبديلا اذا شئنا اهلك
هم واتينا باشباههم فجعلناهم بدلا منهم قال المهدوي قوما موافقين
لهم في الخلق مخالفين لهم في العمل ولم يذكر الواحدي ولابن الجوزي غير
هذا القول وعلى هذا فتكون هذه الايات نظير قوله تعالى ان
يشأ يذهبكم ايها الناس ويأت باخرين فيكون استدلالا بقدرته
على اذهابهم والاتيان بامثالهم على اتيانه بهم انفسهم اذا ماتوا ثم استدل
سبحانه بالنشاة الاولى فذكرهم بها فقال ولقد علمتم النشاة الاولى
فلولا تذكرون فنبههم بما علموه وعاينوه على صدق ما اخبرهم به رسله
من النشاة الثانية والذي عندي في معنى هاتين الايتين وهما آيتا الوا
قعة والانسان المراد بتبديل امثالهم الخلق الجديد والنشاة الاخرة التي
وعدوا بها وقد وفق الزمخشري لفهم هذا من سورة الانسان فقال
وبدلنا امثالهم في شدة الاسر يعني النشاة الاخرى ثم قال وقيل وبدلنا
غيرهم ممن يطيع وحقه ان يأتي بان لا باذا كقوله وان تتولوا يستبدل قوما
غيركم قلت واتيانه باذا التي لا تكون الا للمحقق الوقوع يدل
على تحقق وقوع هذا التبديل وانه واقع لا محالة وذلك هو النشاة
الاخرى التي استدل على امكانها بقوله ولقد علمتم النشاة الاولى واستدل
بالمثل على المثل وعلى ما انكروه بما عاينوه وشاهدوه وكونهم امثالهم هو
انشاؤهم خلقا جديدا بعينه فهم هم باعيانهم وهم امثالهم فهم انفسهم يعادون
فاذا قلت المعاد هذا هو الاول بعينه صدقت وان قلت هو مثله صدقت

فهو هو

فهو هو معادا وهو مثل الاول وقد اوضح هذا سبحانه بقوله بل هم في
لبس من خلق جديد فهذا الخلق الجديد هو المتضمن لكونهم امثالهم وقد سماه
الله سبحانه وتعالى اعادة فالمعاد مثل المبتدا وسماه نشاة اخرى وهي مثل
الاولى وسماه خلقا جديدا وهو مثل الخلق الاول كما قال افعيينا بالخلق
الاول بل هم في لبس من خلق جديد وسماه امثالا وهم هم فتطابقت
الفاظ القران وصدق بعضها بعضا وبين بعضها بعضا وبهذا يزول
اشكالات اوردها من لم يفهم المعاد الذي اخبرت به الرسل عن الله ولا يفهم
من هذا القول ما قاله بعض المتاخرين انهم غيرهم من كل وجه فهذا خطا
قطعا معاذ الله من اعتقاده بل هم امثالهم وهم اعيانهم واذا فهمت الحقا
ئق فلا تناقش في العبارة الا ضيق العطن صغير العقل ضعيف العلم و
تأمل قوله تعالى في الواقعة افرايتم ما تمنون ءانتم تخلقونه ام نحن الخالقون
نحن قدرنا بينكم الموت كيف ذكر مبدا النشاة واخرها مستدلا بها على النشاة
الثانية الاولى بقوله وما نحن بمسبوقين على ان نبدل امثالكم و
ننشئكم فيما لا تعلمون فانكم انما علمتم النشاة الاولى في بطون امهاتكم
ومبداها مما تمنون ولم نغلب على ان ننشئكم نشاة ثانية فيما لا
تعلمون فاذا انتم امثال ما كنتم في الدنيا في صوركم وهيئاتكم وهذا من
كمال قدرة الرب تعالى ومشيئته لو تذكرتم احوال النشاة الاولى لدلكم
ذلك على قدرة منشيها على النشاة التي كذبتم بها فاي استدلال وارشاد
احسن من هذا واقرب الى العقل والفهم وابعد من كل شبهة وشك وليس
بعد هذا البيان والاستدلال الا الكفر بالله وما جاءت به الرسل
والايمان وقال في سورة الانسان نحن خلقناهم وشددنا
اسرهم فهذه النشاة الاولى ثم قال واذا شئنا بدلنا امثالهم تبديلا

ملزمه ١٠

فهذه النشأة الأخرى ونظير هذا أنه خلق الزوجين الذكر والأنثى
من نطفة إذا تمنى وأن عليه النشأة الأخرى وهذا في القرآن كثير
جداً يقرن بين النشأتين مذكراً للفطر والعقول بإحداهما على الأ
خرى وبالله التوفيق **فصل** فلما أقام عليهم الحجة
وقطع المعذرة قال فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي
يوعدون وهذا تهديد شديد يتضمن ترك هؤلاء الذين قامت
عليهم حجتي فلم يقبلوها ولم يخافوا بأسي ولا صدقوا رسلاتي في خوضهم
بالباطل ولعبهم فالخوض في الباطل ضد التكلم بالحق واللعب ضد السعي
الذي يعود نفعه على ساعيه فالأول ضد العلم النافع والثاني ضد
العمل الصالح فلا تكلم بالحق ولا عمل بالصواب وهذا شأن كل من أعرض
عما جاء به الرسول لا بد له من هذين الأمرين ثم ذكر سبحانه حالهم عند
خروجهم من القبور فقال يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى
نصب يوفضون أي يسرعون والنصب العلم والغاية التي تنصب
فيؤمونها وهذا من ألطف التشبيه وأبينه وأحسنه فإن الناس يقو
مون من قبورهم مهطعين إلى الداعي نحو مصدر الصوت لا يلوون
عن يمنة ولا يسرة كما قال يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له أي يقبلون
من كل أوب إلى صوته وناحيته لا يعوجون عنه قال الفراء وهذا كما تقول
دعوتني دعوة لا عوج لك عنها وقال الزجاج المعنى لا عوج لهم عن
دعائه أي لا يقدرون إلا على اتباعه وقصده فإن قلت إذا كان المعنى
لا عوج لهم عن دعوته فكيف قال لا عوج له قيل قالت طائفة اللام
بمعنى عن أي لا عوج عنه وقالت طائفة المعنى لا عوج لهم عن دعائه
كما قال الزجاج وفي القولين تكلف ظاهر ولما كانت الدعوة تسمع

الجميع

الجميع لا تعوج عنه وكلهم يؤم صوت الداعي ويتبعه لا يعوج عنه
كان مجيء اللام منتظماً للمعنيين ودالاً عليهما والمعنى لا عوج لدعائه
لا في اسماعهم اياه ولا في اجابتهم له ثم قال تعالى خاشعة أبصارهم ترهقهم
ذلة فوصفهم بذل الظاهر وهو خشوع الأبصار وذل الباطن
وهو ما يرهقهم من الذل الذي خشعت منه أبصارهم وقريب
من هذا قوله وجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة ونظيره
قوله وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم
قطعاً من الليل مظلماً وضد هذا قوله تعالى إن لك ألا تجوع فيها
ولا تعرى فنفى عنه الجوع الذي هو ذل الباطن والعري الذي هو
ذل الظاهر وضده أيضاً قوله ولقاهم نضرة وسروراً فالنضرة زينة
الظاهر وجماله والسرور زينة الباطن وجماله ومثله أيضاً قوله عاليهم
ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم
ربهم شراباً طهوراً فجمع له بين زينة الظاهر والباطن ومثله قوله يا
بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى
ذلك خير فجمع لهم بين زينة الظاهر والباطن ومثله قوله إنا زينا
السماء بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد فزين ظاهر
ها بالنجوم وباطنها بالحفظ من كل شيطان رجيم ومثله قوله أيضاً و
صوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات وقريب منه قوله تعالى و
تزودوا فإن خير الزاد التقوى وعكسه قوله فأما الذين اسودت
وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين
ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون فجمع لهؤلاء بين جمال
الظاهر والباطن ولأولئك بين تسويد الظاهر والباطن ومنه

قول امرأة العزيز فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه
فاستعصم فوصفت ظاهره بالجمال وباطنه بالعفة فوصفته بجمال
الظاهر والباطن فكأنها قالت هذا ظاهره وباطنه أحسن من ظاهره
وهذا كله يدلك على ارتباط الظاهر بالباطن قدرا وشرعا والله أعلم
بالصواب

فصل ومن ذلك قوله تعالى

ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون الصحيح أن
ن وق وص من حروف الهجاء التي يفتتح بها الرب سبحانه
بعض السور وهي أحادية وثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية
ولم تجاوز الخمسة ولم تذكر قط في أول سورة إلا وعقبها بذكر
القرآن إما مقسما به وإما مخبرا عنه ما خلا سورتين سورة كهيعص
ون كقوله الم ذلك الكتاب الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم
نزل عليك الكتاب المص كتاب أنزل إليك المر تلك آيات الكتاب
وهكذا إلى آخره ففي هذا تنبيه على شرف هذه الحروف وعظم قدرها
وجلالتها إذ هي مباني كلامه وكتبه التي تكلم سبحانه بها وأنزلها
على رسله وهدى بها عباده وعرفهم بواسطتها نفسه وأسماءه و
صفاته وأفعاله وأمره ونهيه ووعيده ووعده وعرفهم بها الخير
والشر والحسن والقبيح وأقدرهم على التكلم بها بحيث يبلغون
بها أقصى ما في أنفسهم بأسهل طريق وأقل كلفة ومشقة وأوصله
إلى المقصود وأدله عليه وهذا من أعظم نعمه عليهم كما هو من أعظم آياته
ولهذا عاب سبحانه على من عبد إلها لا يتكلم وامتن على عباده بأن
أقدرهم على البيان بها بالتكلم فكان في ذكر هذه الحروف التنبيه
على كمال ربوبيته وكمال إحسانه وإنعامه فهي أولى أن يقسم

بها من الليل والنهار والشمس والقمر والسماء والنجوم وغيرها من المخلوقات
فهي دالة أظهر دلالة على وحدانيته وقدرته وحكمته وكماله وكلامه وصدق
رسله وقد جمع سبحانه بين الأمرين أعني القرآن ونطق اللسان وجعل
تعليمها من تمام نعمته وامتنانه كما قال الرحمن علم القرآن خلق الإنسان
علمه البيان فبهذه الحروف علم القرآن وبها علم البيان وبها فضل
الإنسان على سائر أنواع الحيوان وبها أنزل كتبه وبها أرسل رسله
وبها جمعت العلوم وحفظت وبها انتظمت مصالح العباد في
المعاش والمعاد وبها تميز الحق من الباطل والصحيح من الفاسد وبها
جمعت أشتات العلوم وبها أمكن تنقلها في الأذهان وكم جلب
بها من نعمة ودفع بها من نقمة وأقيلت بها من عثرة وأقيمت بها من حرمة
وهدى بها من ضلالة وأقيم بها من حق وهدم بها من باطل فآياته
سبحانه في تعليم البيان كآياته في خلق الإنسان ولولا عجائب صنع الله
ما ثبتت تلك الفضائل في لحم ولا عصب فسبحان من هذا صنعه
في هواء يخرج من قصبة الرئة فينضم في الحلقوم وينفرش في أقصى
الحلق ووسطه وآخره وأعلاه وأسفله وعلى وسط اللسان وأطرافه
وبين الثنايا وفي الشفتين والخيشوم فيسمع له عند كل مقطع من
تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع الآخر فإذا هو حروف فألهم
سبحانه الإنسان ضم بعضها إلى بعض فإذا هي كلمات قائمة بأنفسها
ثم ألهمهم تأليف تلك الكلمات بعضها إلى بعض فإذا هي كلام دال على أنواع
المعاني أمرا ونهيا وخبرا واستخبارا ونفيا وإثباتا وإقرارا وإنكارا
وتصديقا وتكذيبا وإيجابا واستحبابا وسؤالا وجوابا إلى غير ذلك
من أنواع الخطاب نظمه ونثره ووجيزه ومطوله على اختلاف لغات

الخلائق كل ذلك صنعته تبارك وتعالى في هواء مجرد خارج من باطن الا
نسان الى ظاهره في مجار قد هيئت واعدت لتقطيعه وتفصيله ثم تا
ليفه وتوصيله فتبارك الله رب العالمين واحسن الخالقين فهذا شان
الحرف المخلوق واما الحرف الذي تكون به المخلوقات فشانه اعلا واجل واذا كا
ن هذا شان الحرف فحقيق ان تفتتح بها السور كما افتتحت الاقسام لما
فيها من ايات الربوبية وادلة الوحدانية فهي دالة على كمال قدرته سبحانه
وكمال علمه وكمال حكمته وكمال رحمته وعنايته بخلقه ولطفه واحسانه واذا اعطيت
الاستدلال بها حقه استدلت بها على المبدا والمعاد والخلق والامر
والتوحيد والرسالة فهي من اظهر ادلة شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا
عبده ورسوله وان القران كلام الله تكلم به حقا وانزله على رسوله وحيا
وبلغه كما اوحي اليه صدقا ولا تهمل الفكرة في كل
سورة افتتحت بهذه الحروف واشتمالها على ايات هذه المطالب وتقريرها
وبالله التوفيق **فصل** ثم اقسم سبحانه بالقلم وما
يسطرون فاقسم بالكتاب والقلم وهو القلم الذي هو احدى اياته واول
مخلوقاته الذي جرى به قدره وشرعه وكتب به الوحي وقيد به الدين و
اثبت به الشريعة وحفظت به العلوم وقامت به مصالح العباد في
المعاش والمعاد فاطدت به الممالك وامنت به السبل والمسالك و
اقام في الناس ابلغ خطيب وافصحه وانفعه لهم وانصحه وواعظا تشفي مواعظه
القلوب من السقم وطبيبا يبرئ باذن ربه من انواع الالم يكسر العسا
كر العظيمة على انه الضعيف الوحيد ويخاف سطوته وباسه ذو الباس
الشديد وبالاقلام تدبير الاقاليم وتساس الممالك والقلم لسان
الضمير يناجيه بما استتر عن الاسماع فينسج حلل المعاني في الطرس

فتعود

فتعود احسن من الوشي المرقوم ويودعها حكمة فتصير بوارد الفهوم والاقلام
نظام للافهام وكما ان اللسان بريد القلب فالقلم بريد اللسان وتولد
الحروف المسموعة عن اللسان كتولد الحروف المكتوبة عن القلم والقلم بريد
القلب ورسوله وترجمانه ولسانه الصامت **فصل**
والاقلام متفاوتة في الرتب فاعلاها واجلها قدرا قلم القدر السابق
الذي كتب الله به مقادير الخلائق كما في سنن ابي داود عن عبادة ابن
الصامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان اول ما خلق الله
القلم فقال له اكتب قال يا رب وما اكتب قال اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم
الساعة واختلف العلماء هل القلم اول المخلوقات او العرش على قولين
ذكرهما الحافظ ابو العلا الهمداني اصحهما ان العرش قبل القلم لما ثبت
في الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قدر
الله مقادير الخلائق قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين الف
عام وعرشه على الماء فهذا صريح ان التقدير وقع قبل خلق العرش والتقدير
وقع عند اول خلق القلم لحديث عبادة هذا ولا يخلو قوله ان اول ما
خلق الله القلم الى اخره اما ان يكون جملة او جملتين فان كان جملة وهو الصحيح
كان معناه انه عند اول خلقه قال له اكتب كما في اللفظ اول ما خلق الله
القلم قال له اكتب بنصب اول والقلم فان كان جملتين وهو مروي
برفع اول والقلم فيتعين حمله على انه اول المخلوقات من هذا العالم
ليتفق الحديثان اذ حديث عبد الله ابن عمرو صريح في ان العرش
سابق على التقدير والتقدير مقارن لخلق القلم وفي اللفظ الاخر
لما خلق الله القلم قال له اكتب فهذا القلم اول الاقلام وافضلها واجلها
وقد قال غير واحد من اهل التفسير انه القلم الذي اقسم الله به

فصل القلم الثاني قلم الوحي وهو الذي يكتب به
وحي الله الى انبيائه ورسله واصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم والعالم
خدم لهم واليهم الحل والعقد والاقلام كلها خدم لاقلامهم وقد رفع النبي صلى
الله عليه وسلم ليلة اسري الى مستوى يسمع فيه صريف الاقلام فهذه
الاقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الامور التي يدبر بها
امر العالم العلوي والسفلي فصل والقلم الثالث
قلم التوقيع عن الله ورسوله وهو قلم الفقهاء والمفتين وهذا
القلم ايضا حاكم غير محكوم عليه فاليه التحاكم في الدماء والاموال والفروج
والحقوق واصحابه مخبرون عن الله بحكمه الذي حكم به بين عباده واصحابه
حكام وملوك على ارباب الاقلام واقلام العالم خدم لهذا القلم
فصل القلم الرابع قلم طب الابدان التي تحفظ بها
صحتها الموجودة وترد اليها صحتها المفقودة وتدفع به عنها افاتها و
عوارضها المضادة لصحتها وهذا القلم انفع الاقلام بعد قلم طب الاديان
وحاجة الناس الى اهله تلتحق بالضرورة فصل
القلم الخامس قلم التوقيع عن الملوك ونوابهم وسياس الملك ولهذا
كان اصحابه اعز اصحاب الاقلام المشاركون للملوك في تدبير الدول فان
صلحت اقلامهم صلحت المملكة وان فسدت اقلامهم فسدت المملكة و
هم وسائط بين الملوك ورعاياهم فصل القلم السا
دس قلم الحساب وهو القلم الذي تضبط به الاموال مستخرجها ومصر
وفها ومقاديرها وهو قلم الارزاق وهو قلم الكم المتصل والمنفصل
الذي تضبط به الاموال المقادير وما بينها من التفاوت و
التناسب ومبناه على الصدق والعدل فاذا كذب هذا القلم وظلم فسد

امر المملكة

امر المملكة فصل القلم السابع قلم الحكم الذي تثبت
به الحقوق وتنفذ به القضايا وتراق به الدما وتوخذ به الاموال
والحقوق من اليد العادية فترد الى اليد المحقة وتثبت به الانساب و
تنقطع به الخصومات وبين هذا القلم وقلم التوقيع عن الله عموم و
خصوص فهذا له النفوذ واللزوم وذاك له العموم والشمول وهو قا
ئم بالصدق فيما يثبته وبالعدل فيما يمضيه وينفذه فصل
القلم الثامن قلم الشهادة وهو القلم الذي تحفظ به الحقوق وتصا
ن عن الاضاعة وتحول بين الفاجر وانكاره ويصدق الصادق ويكذ
ب الكاذب ويشهد للمحق بحقه وعلى المبطل بباطله وهو امين على
الدما والفروج والاموال والانساب والحقوق ومتى خان هذا
القلم فسد العالم اعظم فساد وباستقامته يستقيم امر العالم ومبناه
على العلم وعدم الكتمان فصل القلم التاسع قلم التعبير
وهو كاتب وحي المنام وتفسيره وتعبيره وما اريد منه وهو قلم
شريف جليل مترجم للوحي المنامي كاشف له وهو من الاقلام التي
تصلح للدنيا والدين وهو يعتمد طهارة صاحبه ونزاهته وامانته
وتحريه للصدق والطرائق الحميدة والمناهج السديدة مع علم راسخ وصفا
باطن وحس مؤيد بالنور الالهي ومعرفة باحوال الخلق وهيآتهم
وسيرهم وهو من الطف الاقلام واعمها جولانا واوسعها تصرفا و
اشدها تشبثا بسائر الموجودات علويها وسفليها وبالماضي والحال
والمستقبل فتصرف هذا القلم في المنام هو محل ولايته وكرسي مملكته
وسلطانه فصل القلم العاشر قلم تواريخ العالم و
وقائعه وهو القلم الذي تضبط به الحوادث وتنقل من امة الى امة

ومن قرن الى قرن فيحصر ما مضى من العالم وحوادثه في الخيال وينقشه
في النفس حتى كان السامع يرى ذلك ويشهده فهو قلم المعاد الروحاني
وهذا القلم قلم العجايب فانه يعيد لك العالم في صورة الخيال فتراه
بقلبك وتشاهده ببصيرتك

فصل القلم الحادي عشر قلم اللغة وتفاصيلها من شرح معاني الفاظها المفردة ونحوها
وتصريفها واسرار تراكيبها وما يتبع ذلك من احوالها ووجوهها وانوا
ع دلالتها على المعاني وكيفية الدلالة وهو قلم التعبير عن المعاني
باختيار احسن الالفاظ واعذبها واسهلها واوضحها وهذا القلم
واسع التصرف جدا بحسب سعة الالفاظ وكثرة مجاريها وتنوعها

فصل القلم الثاني عشر القلم الجامع وهو قلم الرد
على المبطلين ورفع سنة المحققين وكشف اباطيل المبطلين على
اختلاف انواعها واجناسها وبيان تناقضهم وتهافتهم وخروجهم عن الحق
ودخولهم في الباطل وهذا القلم في الاقلام نظير الملوك في الانام و
اصحابه اهل الحجة الناصرون لما جاءت به الرسل المحاربون لاعدايهم
وهم الداعون الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة
المجادلون لمن خرج عن سبيله بانواع الجدال واصحاب هذا القلم حرب
لكل مبطل عدو لكل مخالف للرسل فهم في شان وغيرهم من
اصحاب الاقلام في شان فهذه الاقلام التي فيها انتظام مصالح العالم
ويكفي في جلالة القلم انه لم تكتب كتب الله
الا به وان الله سبحانه اقسم به في كتابه وتعرف الى عباده بان علم بالقلم وانما وصل
الينا ما بعث به نبينا صلى الله عليه وسلم بواسطة القلم ولقد ابدع
ابو تمام اذ يقول في وصفه

لك

لك القلم الماضي الذي بشباته ... يصاب من الامر الكلى والمفاصل
له ريقة طل ولكن وقعها ... باثاره في الغرب والشرق وابل
لعاب الافاعي القاتلات لعابه ... وارى الجنا اشتارته ايد عواسل
~~له الخلوات اللاي لولا نجيها~~ ... لما احتفلت للملك تلك المحافل
فصيح اذا استنطقته وهو راكب ... واعجم ان خاطبته وهو راجل
اذا ما امتطى الخمس اللطاف وافرغت ... عليه شعاب الفكر وهي حوافل
اطاعته اطراف القنا وتقوضت ... لنجواه تقويض الخيام الجحافل
اذا استغزر الذهن الذكي واقبلت ... اعاليه في القرطاس وهي اسافل
وقد رفدته الخنصران وشددت ... ثلاث نواحيه الثلاث الانامل
رايت جليلا شانه وهو مرهف ... ضنا وسمينا خطبه وهو هازل

فصل والمقسم عليه بالقلم والكتابة في هذه
السورة تنزيه نبيه ورسوله عما يقول فيه اعداوه وهو قوله تعالى ما انت
بنعمة ربك بمجنون وانت اذا طابقت بين هذا القسم والمقسم به وجدته
دالا عليه اظهر دلالة وابينها فان ما سطر الكاتب بالقلم من انواع العلوم
التي يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من مجنون ولا تصدر الا من
عقل وافر فكيف يصدر ما جاء به الرسول من هذا الكتاب الذي في اعلا
درجات العلوم بل العلوم التي تضمنها ليس في قوة البشر الاتيان بها
ولا سيما من امي لا يقرا كتابا ولا يخط بيمينه مع كونه في اعلا انواع
الفصاحة سليما من الاختلاف بريا من التناقض يستحيل من العقلا
كلهم لو اجتمعوا في صعيد واحد ان ياتوا بمثله ولو كانوا في عقل رجل واحد منهم
فكيف يتاتى ذلك من مجنون لا عقل له يميز به ما عسى
كثيرا من الحيوان ان يميزه وهل هذا الا من اقبح البهتان

واظهر الى فكر فتأمل شهادة هذا المقسم به للمقسم عليه ودلالته عليه اي
اتم دلالة ولو ان رجلا انشا رسالة واحدة بديعة منتظمة الاول والاخر متساوية
الاجزا يصدق بعضها بعضا او قال قصيدة كذلك او صنف كتابا كذلك
لشهد له العقلا بالعقل ولما استجاز احد رميه بالجنون مع احسانه بل
وقوع معارضتها ومشاكلتها والاتيان بمثلها او احسن منها فكيف
يرمي بالجنون من اتى بما عجزت العقلا كلهم قاطبة عن معارضته ومما
ثلته وعرفهم من الحق ما لا تهتدي عقولهم بحيث اذعنت له عقول
العقلا وخضعت له الباب الاوليا وتلاشت في جنب ما جاء به
بحيث لم يسعها الا التسليم له والانقياد والاذعان طائعة مختارة
وهي ترى عقولها اشد فقرا وحاجة الى ما جاء به ولا كمال لها الا بما جاء به
فهو الذي كمل عقولها كما يكمل الطفل
برضاع الثدي ولهذا اتباعه اعقل الخلق على الاطلاق وهذه مؤلفاتهم
وكتبهم في الفنون اذا وازنت بينها وبين مؤلفات مخالفيه ظهر لك
التفاوت بينها ويكفي في عقولهم انهم عمروا الدنيا بالعلم والعدل
والقلوب بالايمان والتقوى فكيف يكون متبوعهم
مجنونا وهذا حال كتابه وهديه وسيرته وحال اتباعه وهذا انما حصل له
ولاتباعه بنعمة الله عليه وعليهم فنفى عنه الجنون بنعمة ربه عليه وقد
اختلف في تقدير الاية فقالت فرقة الباء في بنعمة ربك بالقسم فهو
قسم اعترض بين المحكوم به والمحكوم عليه
كما يقول ما انت بالله بكاذب وهذا التقدير ضعيف
جدا لانه قد تقدم القسم الاول فكيف يقع القسم الثاني في جوابه
ولا يحسن ان تقول والله ما انت بالله بقائم وليس هذا من فصيح الكلام

ولا عهد به

وسيعلم اعداؤه المكذبون له ايهم المفتون هو ام هم وقد علموا هم والعقلا ذلك
في الدنيا ويزداد علمهم به في البرزخ وينكشف ويظهر كل الظهور في الا
خرة بحيث تتساوى اقدام الخلائق في العلم به وقد اختلف في تقدير قوله
بايكم المفتون فقال ابو عثمان المازني هو كلام مستانف
والمفتون عنده مصدر اي بايكم الفتنة والاستفهام عن امر دائر
بين اثنين قد علم انتفاؤه عن احدهما قطعا فتعين حصوله للاخر
والجمهور على خلاف هذا التقدير وهو عندهم متصل بما قبله ثم لهم فيه اربعة
اوجه احدها ان الباء زائدة والمعنى ايكم المفتون وزيدت في المبتدا كما ز
يدت في قولك بحسبك ان تفعل قاله ابو عبيدة الثاني ان المفتون بمعنى
الفتنة اي ستبصر ويبصرون بايكم الفتنة والباء على هذا ليست بزائدة
قاله الاخفش الثالث ان المفتون مفعول على بابه ولكن هنا مضاف محذوف
وفي تقديره بايكم فتون المفتون وليست الباء زائدة قاله الاخفش ايضا الرابع
ان الباء بمعنى في والتقدير في اي فريق منكم النوع المفتون والباء على هذا
ظرفية وهذه الاقوال كلها تكلف ظاهر لا حاجة الى شيء منه وستبصر مضمن
معنى تشعر وتعلم فعدي بالباء كما تقول ستشعر بكذا وتعلم به قال تعالى الم يعلم
بان الله يرى واذا دعاك اللفظ الى المعنى من مكان قريب فلا تجب من
دعاك اليه من مكان بعيد

فصل

ومن ذلك قوله
تعالى فلا اقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم انه لقران كريم في
كتاب مكنون لا يمسه الا المطهرون تنزيل من رب العالمين ذكر سبحانه
هذا القسم عقيب ذكر القيامة الكبرى واقسام الخلق فيها
ثم ذكر الادلة القاطعة على قدرته وعلى المعاد بالنشاة الاولى
واخراج النبات من الارض وانزل الماء من السماء وخلق النار

ثم بعد ذلك احوال الناس في القيمة الصغرى عند مفارقة الروح للبدن
واقسم بمواقع النجوم على ثبوت القرآن وانه تنزيله وقد اختلف في النجوم
التي اقسم بمواقعها فقيل هي ايات القرآن ومواقعها نزولها شيئا بعد
شيء وهذا قول ابن عباس رضي الله عنه في رواية عطا وقول سعيد ابن
جبير والكلبي ومقاتل وقتادة وقيل النجوم هي الكواكب
ومواقعها ساقطها عند غروبها هذا قول ابي عبيدة وغيره وقيل مواقعها
انتشارها وانكدارها يوم القيمة وهذا قول الحسن ومن حجة هذا
القول ان لفظ مواقع تقتضيه فانه مفاعل من الوقوع وهو السقوط
فلكل نجم موقع وجمعها مواقع ومن حجة قول من قال هي مساقطها
عند الغروب ان الرب تعالى يقسم بالنجوم وطلوعها وجريانها وغروبها
اذ فيها وفي احوالها الثلاث آية وعبرة ودلالة كما تقدم في قوله تعالى فلا اقسم
بالخنس الجوار الكنس وقال والنجم اذا هوى وقال فلا اقسم برب المشا
رق والمغارب ويرجح هذا القول ايضا ان النجوم حيث وقعت في القرآن
فالمراد منها الكواكب كقوله تعالى وادبار النجوم وقوله والشمس والقمر والنجوم
وعلى هذا فتكون المناسبة بين ذكر النجوم في القسم وبين المقسم عليه
وهو القرآن من وجوه احدها ان النجوم جعلها الله يهتدى بها في
ظلمات البر والبحر وايات القرآن يهتدى بها في ظلمات الجهل والغي فتلك هدا
ية في الظلمات الحسية وايات القرآن في الظلمات المعنوية فجمع بين
الهدايتين مع ما في النجوم من الرجوم للشياطين وفي ايات القرآن من
رجوم شياطين الانس والجن والنجوم اياته المشهودة العيانية والقرآن
اياته المتلوة السمعية مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على
اياته القرآنية ومواقعها عند النزول ومن قرأ بموقع النجوم على الافراد

فأما دلالة

~~فأما دلالة~~ فدلالة الواحد المضاف الى الجمع على التعدد والموقع اسم جنس
والمصادر اذا اختلفت جمعت واذا كان النوع واحدا افردت قال
تعالى ان انكر الاصوات لصوت الحمير فجمع الاصوات لتعدد النوع
وافرد صوت الحمير لوحدته فافراد موقع النجوم لوحدة المضاف اليه
وتعدد المواقع لتعدده اذ لكل نجم موقع

فصل

والمقسم عليه ههنا قوله انه لقرآن كريم ووقع الاعتراض بين القسم
وجوابه بقوله وانه لقسم لو تعلمون عظيم ووقع الاعتراض
بين الصفة والموصوف في جملة هذا الاعتراض بقوله تعالى لو تعلمون
عظيم فجاء هذا الاعتراض في ضمن هذا الاعتراض الطف شيء واحسنه
موقعا واحسن ما يقع هذا الاعتراض اذا تضمن تاكيدا او تنبيها او احترا
زا كقوله تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا
الا وسعها اولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون فاعترض بين المبتدا
والخبر بقوله لا نكلف نفسا الا وسعها لما تضمن ذلك من الاحتراز
الدافع لتوهم متوهم ان الوعد انما يستحق من اتى بجميع الصالحات فرفع
ذلك بقوله لا نكلف نفسا الا وسعها وهذا احسن من قول من قال
انه خبر عن الذين آمنوا ثم اخبر عنهم بخبر آخر فهما خبران عن مخبر واحد
فان عدم التكليف فوق الوسع لا يختص الذين آمنوا بل هو حكم شامل
لجميع الخلق مع ما في هذا التقدير من اخلاء جملة الخبر عن الرابط وتقدير
صفة محذوفة اي نفسا منهم وتعطيل هذه الفائدة الجليلة ومن
الطف الاعتراض واحسنه قوله تعالى ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم
ما يشتهون فاعترض بقوله سبحانه بين الجعلين وفوائد الاعتراض
تختلف بحسب قصد المتكلم وسياق الكلام من قصد الاعتنا له

والتقرير والتوكيد وتعظيم المقسم به والمخبر عنه ورفع توهم خلاف
المراد والجواب عن سوال مقدر وغير ذلك نحو الاعتراض الذي
يقصد به التقرير والتوكيد قول الشاعر

لو ان الباخلين وانت منهم ❊ راوك تعلموا منك المطالا ❊

وما يقصد به الجواب عن سوال مقدر قول الآخر

فلا هجره يبدو وفي الياس راحة ❊ ولا وصله يصفو لنا فنكارمه ❊

فقوله وفي الياس راحة جواب لتقدير سوال سايل وما يغني
عنك هجره فقال وفي الياس راحة اي المطلوب احد امرين اما
ياس مريح او وصال صاف ومن الاعتراض الاحترازي قول الجعدي

الا زعمت بنو جعدة باني ❊ وقد كبروا كبير السن فاني ❊

ومنه قوله نصيب

فكدت ولم اخلق من الطير ان بدا ❊ سنا بارق نحو الحجاز اطير ❊

فقوله ولم اخلق من الطير لرفع استفهام يتوجه عليه على سبيل الا
نكار لو قال فكدت اطير فيقال له وهل خلقت من الطير فاحترز بهذا
الاعتراض وعندي ان هذا الاعتراض بعيد عن هذا وهو قوة شوقه
ونزوعه الى ارض الحجاز فاخبر انه كاد يطير على انه ابعد شي من الطيران
فانه لم يخلق من الطير ولا عجب طيران من خلق من الطير وانما العجب
طيران من لم يخلق من الطير لشدة نزوعه وشوقه الى جهة محبوبه فتا
مله ومن مواقع الاعتراض الاعتراض بالدعا كقول الشاعر

قد كنت ابكي وانت راضية ❊ حذار هذا الصدود والغضب ❊

ان تم ذا الهجر يا ظلوم ولا تم ❊ فما لي في العيش من ارب ❊

وقول الآخر ❊ ان سليمى والله يكلاوها ❊ ضنت بشي ما كان يرزاها ❊

وقول

وقول الآخر ❊ ان الثمانين وان بلغتها ❊ قد احوجت سمعي الى ترجمان ❊

ومنه الاعتراض بالقسم كقوله

ذاك الذي وابيك يعرف مالكا ❊ والحق يدفع ترهات الباطل ❊

ومن اعتراض الاستعطاف قوله

نمى لي بالعين التي كنت مرة ❊ الي بها نفسي فداوك تنظر ❊

فاعترض بقوله نفسي فداوك استعطافا فانه من حسن الاعتراض
وجزالته في قوله الرب تعالى واذا بدلنا اية مكان اية والله اعلم بما ينزل
قالوا انما انت مفتر فقوله والله اعلم بما ينزل اعتراض بين الشرط و
جوابه افاد امورا منها الجواب عن سوال سايل ما حكمة
هذا التبديل وما فايدته ومنها ان الذي بدله والذي بغيره منزل
محكم نزوله قبل الاخبار بقولهم ومنها ان مصدره صدر عن
عن علمه تبارك وتعالى وان كان منها منزل فيجب التسليم والايمان
بالاول والثاني ومن الاعتراض الذي هو في اعلا درجات الحسن
قوله تعالى ووصينا الانسان بوالديه حملته امه وهنا على وهن و
فصاله في عامين ان اشكر لي ولوالديك فاعترض بذكر شان حمله وو
ضعه بين الوصية والموصى به توكيد الامر الوصية بالوالدة التي هذا
شانها وتذكر الولد ما تحمله وما قاسته من حمله ووضعه ما لم يتكلف
الاب ومنه قوله تعالى واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله
مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها فاعترض بقوله والله مخرج
ما كنتم تكتمون بين الجمل المعطوف بعضها على بعض اعلاما بان تدا
رؤهم وتدافعهم في شان القتيل ليس نافعا لهم في كتمانه فان الله
يظهره ولا بد ولا تستطل هذا الفصل وامثاله فانه يعطيك ميزانا

وينهج لك طريقا يعينك على فهم الكتاب والله المستعان

فصل

ثم قال انه لقرآن كريم فوصفه بما يقتضي حسنه وكثرة خيره ومنافعه
وجلالته فان الكريم هو البهي الكثير الخير العظيم النفع وهو من كل شيء
احسنه وافضله والله سبحانه وصف نفسه بالكرم ووصف به
كلامه ووصف به عرشه ووصف به ما كثر خيره وحسن منظره من
النبات وغيره ولذلك فسر السلف الكريم بالحسن قال الكلبي انه لقرآن
كريم اي حسن كريم على الله وقال مقاتل كرمه الله واعزه لانه كلامه
وقال الازهري الكريم اسم جامع لما يحمد والله كريم جميل الفعال وانه لقرآن
كريم يحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة وبالجملة فالكريم الذي
من شأنه ان يعطي الخير الكثير بسهولة ويسر وضده اللئيم
الذي لا يخرج خيره الا بعسر وصعوبة وكذلك الكريم في الناس
واللئيم

فصل

ثم قال تعالى في كتاب مكنون
اختلف المفسرون في هذا فقيل هو اللوح المحفوظ والصحيح انه الكتاب
الذي بايدي الملائكة وهو المذكور في قوله تعالى في صحف مطهرة
بايدي سفرة كرام بررة ويدل على انه الكتاب الذي بايدي
الملائكة قوله لا يمسه الا المطهرون فهذا يدل على انه بايديهم يمسونه
وهذا هو الصحيح في معنى الآية ومن المفسرين من قال ان المراد
به ان المصحف لا يمسه الا طاهر والاول ارجح لوجوه احدها ان الآية
سيقت تنزيها للقرآن ان تنزل به الشياطين وان محله لا يصل اليه
فيمسه الا المطهرون فيستحيل على اخابث خلق الله وانجسهم ان يصلوا اليه
او يمسوه كما قال تعالى وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما
يستطيعون فنفى الفعل وتأتيه منهم وقدرتهم عليه فما فعلوا ذلك ولا

بليق

ولا يليق بهم ولا يقدرون عليه فان الفعل قد ينتفي عمن يحسنه وقد
يليق بمن لا يقدر عليه فنفى عنهم الامور الثلاثة وكذلك قوله في سورة
عبس في صحف مطهرة بايدي سفرة كرام بررة فوصف محله بهذه
الصفات بيانا ان الشيطان لا يمكنه ان يتنزل به وتقرير هذا المعنى
اهم واجل وانفع من بيان كون المصحف لا يمسه الا طاهر الوجه الثاني
ان السورة مكية والاعتناء في السور المكية انما هو باصول الدين
من تقرير التوحيد والمعاد والنبوة واما تقرير الاحكام والشرائع
فمظنته السور المدنية الثالث ان القرآن لم يكن في مصحف عند نزول
هذه الآية ولا في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما جمع في المصحف
في خلافة ابي بكر وهذا وان جاز ان يكون باعتبار ما يأتي فالظاهر
انه اخبار بالواقع حال الاخبار يوضحه الوجه الرابع
وهو قوله في كتاب مكنون والمكنون
المصون المستور عن الاعين الذي لا تناله ايدي البشر كما قال تعالى
كأنهن بيض مكنون وهكذا قال السلف
قال الكلبي مكنون من الشياطين وقال مقاتل مستور
وقال مجاهد لا يصيبه تراب ولا غبار وقال ابو اسحق مصون في السماء
يوضحه الوجه الخامس ان وصفه بكونه مكنونا
نظير وصفه بكونه محفوظا بقوله قرآن كريم
في كتاب مكنون كقوله بل هو قرآن
مجيد في لوح محفوظ يوضحه الوجه السادس ان هذا
ابلغ في الرد على المكذبين وابلغ في تعظيم القرآن من كون المصحف
لا يمسه محدث الوجه السابع قوله لا يمسه الا المطهرون بالرفع

فهذا اجنبي لفظا ومعنى ولو كان نهيا لكان مفتوحا ومن حمل الآية
على النهي احتاج الى صرف الخبر عن ظاهره الى معنى النهي والاصل في
الخبر والنهي حمل كل منهما على حقيقته وليس ههنا موجب يوجب
صرف الكلام عن الخبر الى النهي الوجه الثامن انه قال الا المطهرون
ولم يقل الا المتطهرون ولو اراد به منع المحدث من مسه لقال الا
المتطهرون كما قال تعالى ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وفي
الحديث اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين فالمتطهر
فاعل التطهير والمطهر الذي طهره غيره فالمتوضي متطهر والملائكة
مطهرون الوجه التاسع انه لو اريد به المصحف الذي بايدينا
لم يكن في الاخبار عن كونه مكنونا
كبير فائدة اذ مجرد كون الكلام مكنونا في
كتاب لا يستلزم ثبوته فكيف يمدح القرآن بكونه
مكنونا في كتاب وهذا امر مشترك والآية انما سيقت لبيان
مدحه وتشريفه وما اختص به من الخصائص التي تدل على انه منزل
من عند الله وانه محفوظ مصون لا يصل اليه شيطان بوجه ما ولا
يمس محله الا المطهرون وهم السفرة الكرام البررة الوجه
العاشر ما رواه سعيد بن منصور في سننه ثنا ابو الاحوص ثنا عاصم
الاحول عن انس بن مالك في قوله لا يمسه الا المطهرون قال المطهرون
الملائكة وهذا عند طائفة من اهل الحديث في
حكم المرفوع قال الحاكم تفسير الصحابة عندنا في حكم المرفوع
ومن لم يجعله مرفوعا فلا ريب انه عنده اصح من تفسير من بعد الصحابة
والصحابة اعلم الامة بتفسير القرآن ويجب الرجوع الى تفسيرهم وقال

حرب في مسائله سمعت اسحق في قوله لا يمسه الا المطهرون قال
النسخة التي في السماء لا يمسها الا المطهرون قال الملائكة وسمعت
شيخ الاسلام يقرر الاستدلال بالآية على ان المصحف لا يمسه المحدث
بوجه آخر فقال هذا من باب التنبيه والاشارة اذا كانت الصحف التي
في السماء لا يمسها الا المطهرون فكذلك الصحف التي بايدينا من
القرآن لا ينبغي ان يمسها الا طاهر والحديث مشتق من هذه الآية
وقوله لا تمس القرآن الا وانت طاهر رواه اهل السنن من حديث الزهري
عن ابي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن ابيه عن جده ان
في الكتاب الذي كتبه النبي صلى الله عليه وسلم الى اهل اليمن في السنن والفرائض
والديات ان لا يمس القرآن الا طاهر قال احمد ارجو ان يكون صحيحا
وقال ايضا لا اشك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبه وقال ابو عمر
هو كتاب مشهور عند اهل السير معروف عند اهل العلم معرفة
يستغنى بشهرتها عن الاسناد لانه اشبه التواتر في مجيئه لتلقي الناس
له بالقبول والمعرفة ثم قال وهو كتاب معروف عند العلماء وما فيه فمتفق
عليه الا قليلا وقد رواه ابن حبان في صحيحه ومالك في موطئه وفي المسألة
آثار اخر مذكورة في غير هذا الموضع

فصل

ودلت
الآية باشارتها وايمائها على انه لا يدرك معانيه ولا يفهمه الا القلوب
الطاهرة وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات ان ينال
معانيه وان يفهمه كما ينبغي قال البخاري في صحيحه في هذه الآية
لا يجد طعمه الا من آمن به وهذا ايضا من اشارة الآية وتنبيهها
وهو انه لا يلتذ به وبقراءته وفهمه وتدبره الا من شهد انه كلام الله
تكلم به حقا وانزله على رسوله وحيا ولا ينال معانيه الا من لم يكن

في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه ثم من لم يؤمن بان الله حق من عند الله
ففي قلبه منه حرج ومن لم يؤمن بان الله سبحانه تكلم به وحيا وليس مخلوقا
من جملة مخلوقاته ففي قلبه منه حرج ومن قال ان له باطنا يخالف ظا
هره وان له تاويلا يخالف ما يفهم منه ففي قلبه منه حرج ومن قال ان
له تاويلا لا نفهمه ولا نعلمه وانما نتلوه متعبدين بالفاظه ففي قلبه منه
حرج ومن سلط عليه آراء الآرائيين وهذيان المتكلمين و
سفسطة المسفسطين وخيالات المتصوفين ففي قلبه منه حرج
ومن جعله تابعا لنحلته ومذهبه وقول من قلده دينه ينزله على اقواله
ويتكلف حمله عليها ففي قلبه منه حرج ومن لم يحكمه ظاهرا وباطنا في
اصول الدين وفروعه ويسلم وينقاد لحكمه اين كان ففي قلبه
منه حرج ومن لم ياتمر باوامره وينزجر عن زواجره ويصدق جميع
اخباره ويحكم امره ونهيه وخبره ويرد له كل امر ونهي وخبر خالفه
ففي قلبه منه حرج وكل هؤلاء لم تمس قلوبهم معانيه ولا يفهمونه
كما ينبغي ان يفهم ولا يجدون من لذة حلاوته وطعمه ما وجده
الصحابة ومن تبعهم وانت اذا تأملت قوله لا يمسه الا المطهرون
واعطيت الآية حقها من دلالة اللفظ وايمائه واشارته وتنبيهه
وقياس الشيء على نظيره واعتباره بمشاكله وتاملت المشابهة التي
عقدها الله سبحانه وربطه بين الظاهر والباطن فهمت هذه المعاني
كلها من الآية وبالله التوفيق

فصل

ثم اكد ذلك وقرره واطده بقوله تنزيل من رب العالمين وكما انه
لازم لكونه قرآنا كريما في كتاب مكنون فهو ملزوم له
فهو دليل عليه ومدلول له واما كونه تنزيلا من رب العالمين ٥

مطلوبين

مطلوبين عظيمين من اجل مطالب الدين احدهما انه المتكلم وانه
منه نزل ومنه بدا وهو الذي تكلم به ومن هنا قال السلف منه
بدا ونظيره ولكن حق القول مني وقوله قل نزله روح القدس من ربك
والثاني علو الله سبحانه فوق خلقه فان النزول والتنزيل الذي تعقله
العقول وتعرفه الفطر هو وصول الشيء من اعلا الى اسفل والرب تعالى انما
يخاطب عباده بما تعرفه فطرهم وتشهد به عقولهم وذكر التنزيل مضافا الى
ربوبيته للعالمين المستلزمة لملكه لهم وتصرفه فيهم وحكمه عليهم و
احسانه وانعامه عليهم وان من هذا شانه مع الخلق كيف يليق
به مع ربوبيته التامة ان يتركهم سدى ويدعهم هملا ويخلقهم
عبثا لا يامرهم ولا ينهاهم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم فمن اقر بانه رب العالمين
اقر بان القرآن تنزيله على رسوله واستدل بكونه رب العالمين
على ثبوت رسالة رسوله وصحة ما جاء به وهذا الاستدلال اقوى واشرف
من الاستدلال بالمعجزات والخوارق وان كانت دلالتها اقرب الى الاذهان
عموم الناس وتلك انما تكون لخواص العقلا وقد اشار سبحانه
الى الطريقين في غير موضع من كتابه كقوله
سنريهم اياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق فهذا استدلال
بالآيات المعاينة المخلوقة ثم قال اولم يكف بربك
انه على كل شيء شهيد فهذا استدلال بكمال ربوبيته
وكمال اوصافه على صدق رسوله فيما جاء به وهذه الطريق اخص واقوى
واكمل واعلا والاول اعم واشمل وقد تقدم بيانها عند قوله تعالى ولو تقول
علينا بعض الاقاويل فاين الاستدلال باوصاف الرب تعالى وكماله المقدس
على ثبوت النبي وبعثه من الاستدلال عليه ببعض مخلوقاته وتامل

فرق ما بين استدلال سيدة نساء العالمين خديجة بصفات الرب تعالى وصفات
محمد صلى الله عليه وسلم واستنتاجها من بين هذين الامرين صحة نبوته
وانه رسول الله حقا وان من كانت هذه صفات ربه وخالقه تأبى ان يخزيه
وانه يؤيده ويعليه ويتم نعمته عليه وانت اذا تأملت هذه الطريقة
وهذا الاستدلال وجدت بينها وبين طريقة المتكلمين من
الفرق ما لا يخفى واذا حصل للعبد الفقه في الاسماء والصفات انتفع بها
في باب معرفة الحق والباطل من الاقوال والطرائق والمذاهب والعقائد اعظم
انتفاع واتمه وقد بينا في كتابنا المعالم بطلان التحيل وغيره من الحيل
الربوية من اسماء الرب وصفاته وانه يستحيل على الحكيم ان يحرم
الشيء ويتواعد على فعله باعظم انواع العقوبات ثم يبيح التوصل اليه بنفسه
بانواع التحيلات فاين ذلك الوعيد الشديد وجواز التوصل اليه بالطريق البعيد
اذ ليست حكمة الرب تعالى وكمال علمه و
اسمائه وصفاته تنتقض باحالة ذلك وامتناعه عليه فهذا
استدلال بالفقه الاكبر في الاسماء والصفات على الفقه
العملي في باب الامر والنهي وهذا باب حرام على الجهمي المعطل الا يلجه و
الجنة حرام عليه ريحها وان ريحها ليوجد من مسيرة خمسين الف سنة
والله العزيز الوهاب لا مانع لما اعطى ولا معطي لما منع وبه التوفيق

فصل ثم وبخهم سبحانه على وضعهم الادهان في
غير موضعه وانهم يداهنون بما حقه ان يصدع به ويفرق به ويعض عليه
بالنواجذ ويثنى عليه الخناصر وتعتقد عليه القلوب والافئدة و
يحارب ويسالم لاجله ولا يلتوى عنه يمنة ولا يسرة ولا يكون للقلب
التفات الى غيره ولا محاكمة الا اليه ولا مخاصمة الا به ولا اهتداء في طرق

المطالب

المطالب العالية الا بنوره ولا شفاء الا به فهو روح الوجود وحياة العالم و
مدار السعادة وقائد الفلاح وطريق النجاة وسبيل الرشاد ونور البصا
ير فكيف تطلب المداهنة بما هذا شانه ولم ينزل للمداهنة وانما انزل
بالحق وللحق والمداهنة انما تكون في باطل قوي لا يمكن ازالته او في حق
ضعيف لا يمكن اقامته فيحتاج المداهن الى ان يترك بعض الحق و
يلتزم بعض الباطل فاما الحق الذي قام به كل حق فكيف يداهن به ثم قال
سبحانه وتجعلون رزقكم انكم تكذبون لما كان قوام كل واحد من البدن
والقلب انما هو بالرزق فرزق البدن الطعام والشراب ورزق القلب
الايمان والمعرفة بربه وفاطره ومحبته والشوق اليه والانس بقربه
والابتهاج بذكره وكان لا حياة له الا بذلك كما ان البدن لا حياة له الا
بالطعام والشراب انعم سبحانه على عباده بهذين النوعين من الرزق
وجعل قيام ابدانهم وقلوبهم بهما ثم فاوت سبحانه بينهم في قسمة هذين
الرزقين بحسب ما اقتضاه علمه وحكمته فمنهم من وفر حظه من الرزقين
ووسع عليه فيهما ومنهم من قتر عليه في الرزقين ومنهم من وسع عليه رزق
البدن وقتر عليه رزق القلب وبالعكس وهذا الرزق انما يتم ويكمل با
الشكر والشكر مادة زيادته وسبب حفظه وبقائه وترك الشكر
سبب زواله وانقطاعه عن العبد فان الله تعالى تأذن انه لابد ان يزيد
الشكور من نعمه ولابد ان يسلبها من لم يشكرها فلما وضعوا الكفر والتكذيب
موضع الشكر والايمان جعلوا رزقهم نفسه تكذيبا فان التصديق
والشكر لما كانا سبب زيادة الرزق وهما رزق القلب حقيقة فهولاء
جعلوا مكان هذا الرزق التكذيب والكفر فجعلوا رزقهم التكذيب
وهذا المعنى هو الذي حام حوله من قال التقدير وتجعلون شكركم

رزقكم انكم تكذبون وقال اخرون التقدير وتجعلون بدل شكر رزقكم
انكم تكذبون فحذف مضافين معا وهؤلاء اطالوا اللفظ وقصروا المعنى
بالمعنى ومن بعض معنى الآية قوله مطرنا بنوء كذا وكذا فهذا الاصح
ان تدل عليه الآية ويراد بها والا فمعناها اوسع منه واعم واعلا
والله اعلم **فصل** ثم ختم السورة باحوالهم عند
القيمة الصغرى كما ذكر في اولها احوالهم في القيمة الكبرى وقسمهم
الى ثلاثة اقسام كما قسمهم هناك الى ثلاثة وذكر بين يدي هذا التقسيم
الاستدلال على صحته وثبوته بانهم مربوبون مدبرون مملوكون فوقهم
رب قاهر مالك يتصرف فيهم بحسب مشيئته وارادته وقهرهم على ذلك
بالا سبيل لهم الى دفعه ولا انكاره فقال فلولا اذا بلغت الحلقوم اي وصلت
الروح الى هذا الموضع بحيث فارقت ولم تفارق فهي برزخ بين الموت
والحياة كما انها اذا فارقت صارت في برزخ بين الدنيا والاخرة وملا
ئكة الرب تعالى اقرب الى المحتضر من حاضريه من
الانس ولكنهم لا يبصرونهم فلولا تردونها الى مكانها
من البدن ايها الحاضرون ان كان الامر كما تزعمون انكم غير
مجزيين ولا مدينين ولا مستوجبين ليوم الحساب فان قيل
اي ارتباط بين هذين الامرين حتى يلازم بينهما قيل هذا
من احسن الاستدلال وابلغه فانهم اما ان يقروا بانهم مربوبون مملو
كون عبيد لمالك قادر متصرف فيهم قاهر امر ناه او لا يقرون بذلك
فان اقروا به لزمهم القيام بحقه عليهم وشكره وتعظيمه واجلاله
وان لا يجعلوا له ندا ولا شريكا وهذا هو الذي جاءتهم به رسله ونزل
عليهم به كتابه وان انكروا ذلك وقالوا انهم ليسوا بعبيد ولا مملوكين ولا

مربوبين

بلغ

مربوبين وان الامر اليهم يردون الارواح الى مقارها اذا بلغت الحلقوم
فان المتصرف في نفسه الحاكم على روحه لا يمتنع منه ذلك بخلاف
المحكوم عليه المتصرف فيه العبد المدبر له سواه الذي هو عبد مملوك من
جميع الجهات وهذا استدلال لا محيد عنه ولا مدفع له ومن اعطاه
حقه من التدبر والبيان انتفع به غاية النفع وانقاد لاجله للعبودية
واذعن ولم يسعه غير التسليم للربوبية والالهية والاقرار بالعبودية
والله ما احسن جزالة هذه الالفاظ وفصاحتها وبلوغها اقصى مراتب
البلاغة والفصاحة والاختصار التام وندائها على معناها من اقرب
مكان واشتمالها على التوبيخ والتعجيز والالزام ودلائل الربوبية و
التوحيد والبعث وفصل النزاع في موقف الروح وانها تصعد وتنزل
وتنتقل من مكان الى مكان وما احسن اعادة لولا ثانيا قبل ذكر الفعل
الذي يقتضيه الاول وجعل الحرفين يقتضيانه اقتضاء واحدا وذكر
الشرطين بين لولا الثانية وما تقتضيه من الفعل ثم الموالاة بين الشرط
الاول والثاني مع الفصل بينهما بكلمة واحدة هي الرابط بين لولا الاولى و
الثانية والشرط الاول والثاني وهذا التركيب يستحلي العقل والسمع لمعناه
ولفظه فتضمنت الآيات تقريرا وتوبيخا واستدلالا على اصول الايمان من
وجود الخالق سبحانه وكمال قدرته ونفوذ مشيئته وربوبيته وتصرفه
في ارواح عباده حيث لا يقدرون على التصرف فيها بشيء وان ارواحهم بيده
يذهب بها اذا شاء ويردها اليهم اذا شاء ويخلي ابدانهم منها تارة ويجمع
بينها وبينها تارة واثبات المعاد وصدق رسوله فيما اخبر به عنه
واثبات ملائكته وتقرير عبودية الخلق واتى بهذا في صورة تحضيض
وتوبيخ وتقرير وجوابين وشرطين وجزائين منتظمة احسن
الانتظام ومتداخلة احسن التداخل متعلقا بعضها ببعض

وهذا كلام لا يقدر البشر على مثل نظمه ومعناه قال الفراء واجيبت فلولا
اذا بلغت وفلولا ان كنتم غير مدينين بجواب واحد وهو ترجعونها
ان كنتم صادقين قال ومثله قوله تعالى فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع
هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون اجيبا بجواب واحد وهما شرطان
قال الجرجاني قوله ترجعونها جواب لقوله فلولا المتقدمة والمتاخرة
على تاويل فلولا اذا بلغت النفس الحلقوم ترددونها الى موضعها ان كنتم
غير محاسبين ولا مجزيين كما تزعمون يقول تعالى ان كان الامر كما تز
عمون انه لا بعث ولا حساب ولا جزاء ولا اله ولا رب يقوم بذلك
فهلا تردون نفس من يعز عليكم اذا بلغت الحلقوم فاذا لم يمكنكم في ذلك
حيلة بوجه من الوجوه فهل دلكم ذلك على ان الامر الى مليك قادر قاهر
متصرف فيكم وهو الله الذي لا اله الا هو وقال ابو اسحق معناه فهلا
ترجعون الروح ان كنتم غير مملوكين مدبرين فهلا ان كان الامر كما
تزعمون في كما يقول قائلكم لو اطاعونا ما قتلوا ولو كانوا عندنا ما ما
توا وما قتلوا اي ان كنتم تقدرون تؤخرون الاجل فهلا ترجعون الروح
اذا بلغت الحلقوم وهلا تردون عن انفسكم الموت **قلت**
وكان هذا بلغت الى قوله تعالى قل كونوا حجارة او حديدا او خلقا مما يكبر
في صدوركم اي ان كنتم كما تزعمون لا تبعثون بعد الموت خلقا جديدا
فكونوا خلقا لا يفنى ولا يبلى اما من حجارة او من حديد او اكبر من ذلك
ووجه الملازمة ما تقدم ذكره وهو اما ان
تقروا بان لكم ربا متصرفا فيكم وحاكما عليكم تنفذ فيكم مشيته وقدرته
يميتكم اذا شاء ويحييكم اذا شاء فكيف تنكرون قدرته على اعادتكم
خلقا جديدا بعدما اماتكم واما ان تنكروا ان يكون لكم رب قادر قاهر
مالك نافذ المشيئة فيكم والقدرة فيكم فكونوا خلقا لا يقبل الفنا والموت

فاذا

فاذا لم تستطيعوا ان تكونوا كذلك فانكرون من قدرة من جعلكم خلقا
يموت ويحيا انا يحييكم بعدما اماتكم فهذا استدلال بعجزهم عن كونهم
خلقا لا يموت والذي في الواقعة استدلال بعجزهم عن رد الروح
الى مكانها اذا قاربت الموت وليس بعد هذا الاستدلال الا الاذعان
والانقياد او الكفر والعناد **فصل** فلما قام الدليل
ووضح السبيل وتم البرهان على انهم مملوكون مربوبون مجزيون
محاسبون ذكر طبقاتهم عند الحشر الاول والقيمة الصغرى وهي
ثلاثة طبقة المقربين وطبقة اصحاب اليمين وطبقة المكذبين فجعل
تحية المقربين عند الوفات الروح والريحان والجنة وهذه الكرامات
الثلاث التي يعطونها بعد الموت نظير الثلاث التي يعطونها يوم القيمة
فالروح الفرح والسرور والابتهاج ولذة الروح فهي كلمة جامعة لنعيم
الروح ولذتها وذلك فوقها وعنافها والريحان الرزق وهو الا
كل والشرب والجنة المسكن الجامع لذلك كله فيعطون هذه الثلاث
في البرزخ وفي المعاد الثاني ثم ذكر الطبقة الثانية وهي طبقة اصحاب
اليمين ولما كانوا دون المقربين في المرتبة جعل تحيتهم عند القدوم عليه
السلامة من الافات والشرور التي تحصل للمكذبين الضالين فقال
واما ان كان من اصحاب اليمين فسلام لك من اصحاب اليمين والسلام
مصدر من سلم اي فلك السلامة والخطاب له نفسه اي يقال لك سلامة
كما يقال للقادم لك الهنا ولك السلامة ولك البشرى ونحو ذلك من
الالفاظ كما يقولون خير مقدم ونحو ذلك فهذه تحية عند اللقا قال مقاتل
يسلم الله لهم امرهم ويتجاوز عن سياتهم ويتقبل حسناتهم وقال الكلبي
يسلم عليه اهل الجنة ويقولون السلامة لك وعلى هذا فقوله من اصحاب

اليمين اي هذه التحية حاصلة لك من اخوانك اصحاب اليمين فانه
اذا اقدم عليهم حيوه بهذه التحية وقالوا السلامة لك وفي الآية اقوال
اخر فيها تكلف وتعسف فلا حاجة الى ذكرها ثم
ذكر الطبقة الثالثة وهي طبقة الضال في نفسه المكذب لاهل الحق
وان له عند الموافاة نزل الحميم وتصلية الجحيم ثم اكد هذا الجزا بان جعله
كانه راي العين لمن آمن بالله ورسوله فقال ان هذا
لهو حق اليقين فرفع شانه عن درجة الظن والعلم الى اليقين وعن
درجة اليقين الى حقه ثم امر ان ينزه اسمه تبارك وتعالى عما لا يليق
به وتنزيه الاسم متضمن لتنزيه المسمى عما يقوله الكاذبون
والجاحدون

فصل ومن

ذلك قوله تعالى والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم
وما غوى وما ينطق عن الهوى اقسم سبحانه بالنجم عند هويه على تنزيه
رسوله وبرآءته مما نسبه اليه اعداؤه من الضلال والغي واختلف
الناس في المراد بالنجم فقال الكلبي عن ابن عباس اقسم بالقرآن
اذا انزل منجما على رسوله اربع ايات وثلاث والسورة وكان بين اوله
واخره عشرون سنة وكذلك روى عطا عنه وهو قول مقاتل والضحاك
ومجاهد واختاره الفرا وعلى هذا فسمى القران نجما لتفرقه في النزول والعرب
تسمي التفرق تنجيما والمفرق منجما ونجوم الكتابة اقساطها ويقول جعلت مالي
على فلان نجوما منجمة كل نجم كذا وكذا واصل هذا ان العرب كانت تجعل
مطالع منازل القمر ومساقطها مواقيت لحلول ديونها وآجالها
فيقولون اذا طلع النجم يريدون الثريا حل عليك الدين ومنه قول
زهير في دية جعلت نجوما على العاقلة

ينجمها

ينجمها قوم لقوم غرامة ولم يهريقوا بينهم ملء محجم
ثم جعل كل نجم تفريقا وان لم يكن موقتا بطلوع نجم وقوله هوى على هذا
القول اي نزل من علو الى سفل قال ابن زيد هوت العقاب تهوي
هويا بفتح الها اذا انقضت على صيد او غيره وكذلك قال ابن الاعرابي
وفرق بين الهوي لقوله والدلو في اصعادها عجل الهوي وقال الليث
العامة تقول الهوي بالضم في مصدر هوى يهوي وكذلك قال الاصمعي
هوى يهوي هويا بفتح الها اذا سقط الى اسفل قال وكذلك الهوي في
السير اذا مضى وهاهنا امر يجب التنبيه عليه غلط فيه ابو محمد بن حزم
اقبح غلط فذكر في اسماء الرب تعالى الهوي بفتح الها واحتج بما في الصحيح من حديث
عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في سجوده سبحان ربي الاعلى
الهوي فظن ابو محمد ان الهوي صفة للرب وهذا من غلطه رحمه الله وانما
الهوي على وزن فعيل اسم لقطعة من الليل يقال مضى هوي من الليل
على وزن فعيل ومضى هزيع منه اي طرف وجانب وكان يقول سبحان
ربي الاعلى في قطعة من الليل وجانب منه وقد صرحت بذلك في اللفظ
الاخر فقالت كان يقول سبحان ربي الاعلى الهوي من الليل عندنا الاول
والنجم اذا هوى وقال ابن عباس في رواية علي بن ابي طلحة وعطية يعني
الثريا اذا سقطت وغابت وهو الرواية الاخرى عن مجاهد والعرب
اذا اطلقت النجم تعني به الثريا قال فباتت تعد النجم وقال
ابو حمزة اليماني يعني النجوم اذا انتثرت يوم القيامة وقال ابن عباس
في رواية عكرمة يعني النجوم التي ترمى بها الشياطين
اذا سقطت في آثارها عند استراق السمع وهذا قول الحسن وهو
اظهر الاقوال ويكون سبحانه قد اقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة

من الليل

التي نصبها الله سبحانه آية وحفظاً للوحي من استراق الشياطين
له على أن ما أتى به رسوله حق وصدق لا سبيل للشيطان ولا طريق له
إليه بل قد احترس بالنجم إذا هوى رصداً بين يدي الوحي وحرساً له
وعلى هذا فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه في غاية الظهور وفي
المقسم به دليل على المقسم عليه وليس بالبين تسمية القرآن عند نزوله
بالنجم إذا هوى ولا تسمية نزوله هوياً ولا عهد في القرآن بذلك فيحمل هذا
اللفظ عليه وليس بالبين تخصيص هذا القسم بالثريا وحدها
إذا غابت وليس بالبين أيضاً القسم بالنجوم عند انتثارها يوم
القيامة بل هذا مما يقسم الرب عليه ويدل عليه بآياته فلا يجعله نفسه
دليلاً لعدم ظهوره للمخاطبين ولا سيما منكرو البعث فإنه سبحانه
إنما استدل بما لا يمكن جحده ولا المكابرة فيه فأظهر الأقوال قول الحسن والله
أعلم وبين المقسم به والمقسم عليه من التناسب ما لا يخفى فإن النجوم التي
ترمي الشياطين آيات من آيات الله يحفظ بها دينه ووحيه وآياته
المنزلة على رسوله بها ظهر دينه وشرعه وأسمائه وصفاته وجعلت
هذه النجوم المشاهدة خدماً وحرساً لهذه النجوم الهاوية ونفى سبحانه
عن رسوله الضلال المنافي للهدى والغي المنافي للرشاد ففي ضمن
هذا النفي الشهادة له بأنه على الهدى والرشاد فالهدى في علمه والرشاد
في عمله وهذان الأصلان هما غاية كمال العبد وبهما سعادته وفلاحه
وبهما وصف النبي صلى الله عليه وسلم خلفاءه فقال عليكم بسنتي وسنة
الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي فالراشد ضد الغاوي
والمهدي ضد الضال وهو الذي زكت نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح
وهو صاحب الهدى ودين الحق ولا يشتبه الراشد المهدي بالضال

الغاوي

الغاوي إلا على أجهل خلق الله وأعماهم قلباً وأبعدهم من حقيقة الإنسانية
ولله در القائل

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره ❁ إذا استوت عنده الأنوار والظلم

فالناس أربعة أقسام ضال في علمه غاو في قصده وعمله وهؤلاء شرار
الخلق وهم مخالفو الرسل الثاني مهتد في علمه غاو في قصده وعمله
وهؤلاء هم الأمة الغضبية ومن تشبه بهم وهو حال كل من عرف الحق
ولم يعمل به الثالث ضال في علمه ولكن قصده الخير وهو لا يشعر
الرابع مهتد في علمه راشد في قصده وهؤلاء ورثة الأنبياء وهم وإن
كانوا الأقلين عدداً فهم الأكثرون عند الله قدراً وهم صفوة الله من عباده
وحزبه من خلقه وتأمل كيف قال سبحانه ما ضل صاحبكم
ولم يقل ما ضل محمد تأكيداً لإقامة الحجة عليهم بأنه صاحبهم وهو أعلم
الخلق به وبحاله وأقواله وأعماله وأنهم لا يعرفونه بكذب ولا غي ولا ضلال
ولا ينقمون عليه أمراً واحداً قط وقد نبه على هذا المعنى بقوله أم لم يعرفوا
رسولهم وبقوله وما صاحبكم بمجنون

فصل

ثم قال سبحانه وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ينزه نطق
رسوله أن يصدر عن هوى وبهذا الكمال هداه ورشده وقال ما
ينطق عن الهوى ولم يقل وما ينطق بالهوى لأن نطقه عن الهوى أبلغ
فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى وإذا لم يصدر عن هوى فكيف
ينطق به فتضمن نفيه الأمرين نفي الهوى عن مصدر النطق ونفيه عن
النطق نفسه فنطقه بالحق ومصدره الهدى والرشاد لا الغي و
الضلال ثم قال إن هو إلا وحي يوحى فأعاد الضمير على المصدر المفهوم
من الفعل أي ما نطقه إلا وحي يوحى وهذا أحسن من قول من جعل

الضمير عايد الى القرآن فانه يعم نطقه بالقرآن والسنة وان كلاهما وحي يوحى
وقد احتج الشافعي لذلك فقال لعل من حجة من قال بهذا قوله تعالى
وانزل الله عليك الكتاب والحكمة قال ولعل من حجته ايضا
ان يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابي الزاني بامراة الرجل الذي صالحه
على الغنم والخادم والذي نفسي بيده لاقضين بينكما بكتاب الله
الغنم والخادم رد عليك الحديث وفي الصحيحين ان يعلى ابن امية
كان يقول لعمر ليتني ارى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ينزل عليه
الوحي فلما كان بالجعرانة سأله رجل فقال كيف ترى في رجل احرم بعمرة
في جبة بعد ما تضمخ بالخلوق فنظر اليه النبي صلى الله عليه وسلم ساعة
ثم سكت فجاءه الوحي فاشار عمر بيده الى يعلى فجاء فادخل راسه
فاذا النبي صلى الله عليه وسلم محمر يغط ثم سري عنه فقال اين السايل انفا
فجيء به فقال انزع عنك الجبة واغسل اثر الطيب واصنع في عمرتك ما
تصنع في حجك وقال الشافعي اخبرنا مسلم عن ابن جريج عن ابن
طاووس عن ابيه ان عنده كتابا نزل به الوحي وما فرض رسول الله
صلى الله عليه وسلم من صدقة وعقول فانما نزل به الوحي وذكر الاوزاعي
عن حسان بن عطية قال كان جبريل ينزل على رسول الله صلى الله عليه
وسلم بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن يعلمه اياه وذكر الاوزاعي ايضا عن ابي
عبيد صاحب سليمان اخبرني القسم بن مخيمرة حدثني ابن فضلة قال
قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم سعر لنا قال لا يسالني عن سنة احدثتها
فيكم لم يامرني بها ولكن سلوا الله من فضله وابن
فضلة هذا يسمى طلحة وقد صح عنه انه قال الا اني اوتيت الكتاب ومثله
معه وهذا هو السنة بلا شك وقد قال تعالى وانزل الله عليكم الكتاب

والحكمة

والحكمة وهي القرآن والسنة وبالله التوفيق

فصل

ثم اخبر تعالى عن وصف من علمه الوحي والقرآن مما يعلم انه مضاد لاوصاف
الشيطان معلم الضلال والغواية فقال علمه شديد القوى
وهذا نظير قوله ذي قوة عند ذي العرش وذكرنا هناك السر في
وصفه بالقوة وقوله ذو مرة اي جميل المنظر حسن الصورة ذو جلالة
ليس شيطانا اقبح خلق الله واشوههم صورة بل هو من اجل الخلق واقوا
هم واعظمهم امانة ومكانة عند الله وهذا تعديل
لسند الوحي والنبوة وتزكية له كما تقدم نظيره في سورة التكوير
فوصفه بالعلم والقوة وجمال المنظر وجلالته وهذه كانت اوصاف
الرسول البشري والملكي فكان رسول الله صلى الله
عليه وسلم اشجع الناس واعلمهم واجملهم واجلهم والشياطين وتلامذتهم بضد
من ذلك فهم اقبح الخلق صورة ومعنى واجهل الخلق واضعفهم همما و
نفوسا ثم ذكر استواء هذا المعلم بالافق الاعلى ودنوه وتدليه وقربه
من رسول الله صلى الله عليه وسلم وايحاءه اليه ما اوحى فصور سبحانه لاهل
الايمان صورة الحال من نزول جبريل من عنده الى ان استوى بالافق
ثم دنا وتدلى وقرب من رسوله فاوحى اليه ما امره الله بايحائه حتى كانهم
يشاهدون صورة الحال ويعاينونها هابطا من السماء الى ان صار بالافق
الاعلى مستويا عليه ثم نزل وقرب من محمد صلى الله عليه وسلم وخاطبه بما امره
الله به قايلا ربك يقول لك كذا وكذا واخبر سبحانه عن مسافة هذا
القرب بانه قدر قوسين او ادنى من ذلك وليس هذا على وجه الشك
بل تحقيق لقدر المسافة وانها لا تزيد على قوسين البتة كما قال تعالى و
ارسلناه الى مائة الف او يزيدون تحقيق لهذا العدد وانهم لا ينقصون

عن مائة الف رجل واحدًا ونظيره قوله ثم قست قلوبكم من بعد
ذلك فهي كالحجارة او اشد قسوة اي لا تنقص قسوتها عن قسوة
الحجارة بل ان لم تزد على قسوة الحجارة لم تكن دونها وهذا المعنى احسن
والطف وادق من قول من جعل او في هذه المواضع بمعنى بل ومن قول
من جعلها للشك بالنسبة الى الرائي وقول من جعلها بمعنى الواو فتأمله

فصل ثم اخبر تعالى عن تصديق فؤاده لما رأته
عيناه وان القلب صدق العين وليس كمن رأى شيئا على خلاف ما هو عليه
فكذب فؤاده بصره بل ما رآه ببصره صدقه الفؤاد وعلم انه كذلك وفيها
قراءتان احدهما بتخفيف كذب والثانية بتشديدها تقول كذبته
عينه وكذبه قلبه وكذبه حسه اذا اخلف ما ظنه وحدسه قال الشاعر

كذبتك عينك ام رأيت بواسط غلس الظلام من الرباب خيالا

اي اريتك ما لا حقيقة له فنفى هذا عن رسوله واخبر ان فؤاده لم يكذب
ما رآه وما اما ان تكون مصدرية فيكون المعنى ما كذب فؤاده رؤيته
واما ان تكون موصولة فيكون المعنى ما كذب الفؤاد الذي رآه بعينه
وعلى التقديرين فهو اخبار عن تطابق رؤية القلب لرؤية البصر وتوافقهما
وتصديق كل منهما لصاحبه وهذا ظاهر جدا في قراءة التشديد وقد
استشكلها طائفة منهم المبرد وقال في هذه القراءة بعد قال لانه
اذا رآه بقلبه فقد علمه البصر بقلبه واذا وقع العلم فلا كذب معه فانه اذا كان
الشيء في القلب معلوما فكيف يكون معه تكذيب قلت
وجواب هذا من وجهين احدهما ان الرجل قد يتخيل الشيء على خلاف
ما هو به فيكذبه قلبه اذ يريه صورة المعلوم على خلاف ما هي عليه
كما تكذبه عينه فيقال كذبه قلبه وكذبه ظنه وكذبته

عينه

عينه فنفى سبحانه ذلك عن رسوله واخبر انما رآه الفؤاد فهو كما رآه
كمن رأى الشيء على حقيقة ما هو به فانه يصح ان يقال لم تكذبه عينه
الثاني ان يكون الضمير في رأى عائد الى الرائي لا الى الفؤاد ويكون
المعنى ما كذب الفؤاد ما رآه البصر وهذا بحمد الله لا اشكال فيه والمعنى
ما كذب الفؤاد ما رآه البصر بل صدقه وعلى القراءتين فالمعنى ما اوهمه
الفؤاد انه رأى ولم ير ولا اتهم بصره ثم انكر سبحانه عليهم مكابرتهم وجحد
هم له على ما رآه كما ينكر على الجاهل مكابرة العالم ومماراته له على ما علمه وفيها
قراءتان افتمارونه وافتمرونه وهذه المماراة اصلها من الجحد والدفع
يقول مريت الرجل حقه اذا جحدته كما قال الشاعر

لئن هجرت اخا صدق ومكرمة لقد مريت اخا ما كان يمريكا

ومنه المماراة وهي المجادلة والمكابرة ولهذا عدي هذا الفعل بعلى وهي
على بابها وليست بمعنى عن كما قال المبرد بل الفعل متضمن معنى المكابرة
وهذا في قراءة الالف اظهر ورجح ابو عبيدة قراءة من قرأ افتمرونه قال
وذلك ان المشركين انما شأنهم الجحود لما كان يأتيهم من الوحي وهذا
كان اكثر من المماراة منهم يعني ان من قرأ افتمارونه فمعناه افتجادلونه
ومن قرأ افتمرونه معناه افتجحدونه وجحودهم لما جاء به كان هو شأنهم
وكان اكثر من مجادلتهم له وخالفه ابو علي وغيره واختاروا قراءة افتما
رونه قال ابو علي من قرأ افتمارونه فمعناه افتجادلونه جدالا ترومون
به دفعه عما علمه وشاهده ويقوي هذا الوجه قوله تعالى يجادلونك
في الحق بعد ما تبين ومن قرأ افتمرونه كان المعنى افتجحدونه قال والمجادلة
كأنها اشبه في هذا لان الجحود كان منهم في هذا وغيره وقد جادله المشركون
في الاسراء قلت القوم جمعوا بين الجدال والدفع وان كان

دون جدالهم جدال جحود ودفع لا جدال استرشاد وتبيين للحق وإثبات
الألف يدل على المجادلة والإتيان بعلى يدل على المكابرة فكانت قراءة الأ
لف منتظمة للمعنيين جميعا فهي أدل وبالله التوفيق

فصل ثم أخبر سبحانه عن رؤيته لجبريل
مرة أخرى عند سدرة المنتهى فالمرة الأولى كانت دون السماء بالأفق
الأعلى والثانية كانت فوق السماء عند سدرة المنتهى وقد صح عنه
صلى الله عليه وسلم أنه جبريل عليه الصلاة والسلام رآه على صورته التي
خلق عليها مرتين كما في الصحيحين عن زر بن حبيش أنه سئل عن
قوله تعالى فكان قاب قوسين أو أدنى قال أخبرني ابن مسعود أن
النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل له ستمائة جناح وفي الصحيحين أيضا
عن عبد الله بن مسعود ما كذب الفؤاد ما رأى قال رأى جبريل في
صورته التي خلق عليها له ستمائة جناح وقال البخاري يعني رأى رفرفا
أخضر يسد الأفق وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ولقد رآه نزلة
أخرى قال رأى جبريل عليه السلام وفي صحيح أيضا عن مسروق قال كنت
متكئا عند عائشة فقالت ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد
أعظم على الله الفرية قلت ما هن قالت من زعم أن محمدا رأى ربه فقد
أعظم على الله الفرية قال وكنت متكئا فجلست فقلت يا أم المؤمنين
انظريني ولا تعجليني ألم يقل الله عز وجل ولقد رآه بالأفق المبين ولقد
رآه نزلة أخرى فقالت أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها
غير هاتين المرتين رأيته منهبطا من السماء سادا عظم خلقه
ما بين السماء والأرض فقالت أولم تسمع أن الله عز وجل يقول لا تدركه

الأبصار

الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير أولم تسمع أن الله
عز وجل يقول وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب
أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم قالت ومن زعم أن
محمدا كتم شيئا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية والله عز وجل يقول
يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته
قالت ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية
والله عز وجل يقول قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله
ولو كان محمد كاتما شيئا مما أنزل عليه لكتم هذه الآية وإذ تقول للذي
أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في
نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه وفي
الصحيحين عن مسروق أيضا قال سألت عائشة رضي الله عنها
هل رأى محمد ربه فقالت سبحان الله لقد قف شعري مما قلت وفيهما
أيضا قال قلت لعائشة فأين قوله عز وجل ثم دنا فتدلى فكان
قاب قوسين أو أدنى قالت إنما ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجال
وإنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته فسد الأفق وفي
صحيح مسلم أن أبا ذر سأل النبي صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك فقال نور أنى
أراه وفي صحيح مسلم أيضا من حديث أبي موسى الأشعري قال قام
فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات فقال إن الله لا ينام ولا
ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل النهار
وعمل النهار قبل الليل حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه
ما انتهى إليه بصره من خلقه وهذا الحديث ساقه مسلم بعد حديث
أبي ذر المتقدم عقيبه وهو كالتفسير له ولا بد في هذا قوله في حديث

الصحيح حديث الرؤية يوم القيمة فيكشف الحجاب فينظرون اليه فان
النور الذي هو حجاب الرب تعالى يراد به الحجاب الادنى اليه وهو لو
كشف لم يقم له شيء كما قال ابن عباس في قوله عز وجل لا تدركه
الابصار قال ذلك نوره الذي هو نوره اذا تجلى به لم يقم له شيء وهذا
الذي ذكره ابن عباس يقتضي ان قوله لا تدركه الا
بصار على عمومه واطلاقه في الدنيا والاخرة ولا يلزم من ذلك ان لا
يرى بل يرى في الاخرة بالابصار من غير ادراك واذا كانت ابصارنا
لا تقوم لادراك الشمس على ما هي عليه وان راتها مع القرب الذي بين
المخلوق والمخلوق فالتفاوت الذي بين الابصار والخلايق وذات
الرب جل جلاله اعظم واعظم ولهذا لما حصل للجبل ادنى شيء من تجلي الرب
تسافي الجبل واندك لسبحات ذلك القدر من التجلي وفي الحديث
الصحيح المرفوع جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما وجنتان
من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما وما بين القوم وبين ان ينظروا الى ربهم
الا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن فهذا يبين ان رداء الكبرياء على
وجهه تبارك وتعالى هو المانع من رؤية الذات ولا يمنع من اصل الرؤية
فان الكبرياء والعظمة امر لازم لذاته تعالى فاذا تجلى سبحانه لعباده يوم
القيمة وكشف الحجاب بينهم وبينه فهو الحجاب المخلوق واما انوار
الذات الذي يحجب عن ادراكها فذلك صفة للذات لا تفارق ذات الرب
جل جلاله ولو كشف ذلك الحجاب لاحرقت سبحات وجهه ما ادركه
بصره من خلقه وتكفي هذه الاشارة في هذا المقام للمصدق الموقن واما
المعطل الجهمي فكل هذا عنده باطل ومحال والمقصود ان المخبر عنه بالرؤية
في سورة النجم هو جبريل واما قول ابن عباس رأى محمد ربه بفؤاده مرتين

معاذ بن جبل احتبس عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاة الصبح حتى
كدنا نتراءى عين الشمس ثم خرج فصلى بنا ثم قال رأيت ربي البارحة في
احسن صورة فقال يا محمد فيم يختصم الملأ الاعلى وذكر الحديث فهذا كان
بالمدينة والاسراء كان بمكة وليس عن الامام احمد ولا عن النبي صلى الله
عليه وسلم نص انه رآه بعينه يقظة وانما حمل القاضي كلام احمد ما لا يحتمله
واحتج لما فهم منه بما لا يدل عليه وكلام احمد يصدق بعضه بعضا والمسئلة
رواية واحدة عنه فانه لم يقل بعينه وانما قال رآه واتبع في ذلك قول ابن
عباس رأى محمد ربه ولفظ الحديث رأيت ربي وهو مطلق وقد جاء بيانه
في الحديث الاخر ولكن في رد احمد قول عائشة ومعارضته بقول النبي
صلى الله عليه وسلم اشعار بانه اثبت الرؤية التي انكرتها عائشة وهي لم
تنكر رؤية المنام ولم تقل من زعم ان محمدا رأى ربه في المنام فقد اعظم على
الله الفرية وهذا يدل على احد امرين اما ان يكون الامام احمد انكر قول
من اطلق نفي الرؤية اذ هو مخالفة للحديث واما ان يكون رواية
عنه باثبات الرؤية وقد صرح بانه رآه رؤيا حلم بقلبه وهذا تقييد منه
للرؤية واطلق انه رآه وانكر قول من نفى مطلق الرؤية واستحسن قول
من قال رآه ولا يقول بعينه ولا بقلبه وهذه النصوص عنه متفقة
لا مختلفة وكيف يقول احد رآه بعيني رأسه يقظة ولم يجئ ذلك في حديث
قط فاحمد انما اتبع الفاظ الحديث كما جاءت وانكار قول من قال
لم يره اصلا لا يدل على اثبات رؤية اليقظة بعينه والله اعلم

فصل وقوله تعالى ما زاغ البصر وما طغى قال ابن عباس
ما زاغ البصر يمينا ولا شمالا ولا جاوز ما امر به وعلى هذا
المفسرون فنفى عن نبيه ما يعرض للرائي الذي لا ادب له بين يديه

الملوك والعظما من التفاته يمينا وشمالا ومجاوزة بصره لما بين يديه
واخبر عنه بهذا الادب في ذلك المقام وفي تلك الحضرة اذ لم يلتفت جا
نبا ولم يمد بصره الى غير ما اري من الايات وما هناك من العجايب بل
قام مقام العبد الذي اوجب ادبه اطراقه واقباله على ما اري دون
التفاته الى غيره ودون تطلعه الى ما لم يره مع ما في ذلك من ثبات الجاش
وسكون القلب وطمانينته وهذا غاية الكمال وزيغ البصر التفاته
جانبا وطغيانه مده امامه الى حيث ينتهي فنزه في هذه السورة علمه
عن الضلال وقصده وعمله عن الغي ونطقه عن الهوى وفواده عن
تكذيب بصره وبصره عن الزيغ والطغيان وهكذا يكون المدح

تلك المكارم لا قعبان من لبن ◆ شيبا بماء فعادا بعد ابوالا ◆

فصل ولما ذكر روية لجبريل عند
سدرة المنتهى استطرد منها وذكر ان جنة الماوى عندها وانه يغشا
ها من امر خلقه ما يغشى وهذا من احسن الاستطراد وهو
اسلوب لطيف جدا في القران وهو نوعان احدهما ان يستطرد من
الشي الى لازمه مثل هذا ومثل قوله ولين سالتهم من خلق السموات
والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم ثم استطرد من جوابهم الى قوله
الذي جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون
والذي نزل من السماء ماء بقدر فانشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون
والذي خلق الازواج كلها وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون
لتستووا على ظهوره وهذا ليس من جوابهم ولكن تقرير له واقامة الحجة
عليهم ومثل قوله تعالى قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذي اعطى كل شي
خلقه ثم هدى قال فما بال القرون الاولى قال علمها عند ربي

في كتب

منشور غير مسجور واما البيت المعمور فالمشهور انه الضراح الذي في
السماء الذي رفع للنبي صلى الله عليه وسلم ليلة الاسري يدخله كل يوم سبعون
الف ملك ثم لا يعودون اليه اخر ما عليهم وهو بحيال البيت المعمور في
الارض وقيل هو البيت الحرام ولا ريب ان كلا منهما معمور فهذا معمور
بالملائكة وعبادتهم وهذا معمور بالطايفين والقايمين والركع السجود
وعلى كلا القولين فكل منهما سيد البيوت ثم اقسم سبحانه بمخلوقين
عظيمين من بعض مخلوقاته وهما مظهر اياته وعجايب صنعته وهما
السقف المرفوع وهو السماء فانها من اعظم اياته قدرا وارتفاعا وسعة
وسمكا ولونا واشراقا وهي محل ملايكته وهي سقف العالم وبها انتظامه
ومحل النيرين الذين بهما قوام الليل والنهار والسنين والشهور والا
يام والصيف والشتاء والربيع والخريف ومنها تنزل البركات واليها
تصعد الارواح واعمالها وكلماتها الطيبة والثاني البحر المسجور وهو اية
عظيمة من اياته وعجايبه لا يحصيها الا الله واختلف في هذا البحر
هل هو الذي فوق السموات او البحر الذي نشاهده على قولين فقالت
طايفة هو البحر الذي عليه العرش وبين اعلاه واسفله مسيرة خمسماية
عام كما في الحديث الذي رواه ابو داود من حديث سماك عن عبد الله بن عميرة
عن الاحنف بن قيس قال كنت بالبطحا في عصابة فيهم رسول الله صلى الله عليه
وسلم فمرت بهم سحابة فنظر اليها فقال ما تسمون هذه قالوا السحاب قال والمزن
قالوا والمزن قال والعنان قالوا والعنان قال هل تدرون ما بين السماء و
الارض قالوا لا ندري قال ان بعد ما بينهما اما واحدة او اثنتان او ثلاث
وسبعون سنة ثم السماء فوقها كذلك حتى عد سبع سموات ثم فوق السابعة
بحر بين اسفله واعلاه مثل ما بين سماء الى سماء ثم فوق ذلك ثمانية اوعال

بين اصلافهم وركبهم مثل ما بين سماء الى سماء ثم على ظهورهم العرش ما بين
اسفله واعلاه مثل ما بين سماء الى سماء ثم الله فوق ذلك وهذا لا ينافي
ما في جامع الترمذي ان بين كل سمائين مسيرة خمسمائة عام اذ
المسافات تختلف مقاديرها باختلاف المقدر به فالخمسمائة مقدرة
بسير الابل والسبعون بسير البريد وهو يقطع بقدر ما تقطعه الابل
سبعة اضعاف وهذا القول في البحر الذي تحت العرش يحكى عن
علي ابن ابي طالب والثاني انه بحر الارض واختلف في المسجور فقيل
المملو هذا قول جميع اهل اللغة قال الفرا المسجور في كلام العرب المملو
يقال سجرت الاناء اذا ملأته قال لبيد

فتوسطا عرض السري وصدعا مسجورة متجاورا قلامها

وقال المبرد المسجو المملو عند العرب وانشد للنمر ابن تولب

اذا شاء طالع مسجورة يرى حولها النبع والساسما

يريد عينا مملوة ماء وكذا قال ابن عباس المسجور
المملي وقال مجاهد المسجور الموقد قال الليث السجر ايقادك في التنور
تسجره سجرا والسجر اسم الحطب وهذا قول الضحاك وكعب وغيرهما قال البحر
يسجر فيزاد في جهنم وحكى هذا القول عن علي ابن ابي طالب
رضي الله عنه وقال مسجور قال الفراء وهذا يرجع الى القول الاول لانك
تقول سجرت التنور اذا ملأته حطبا وروى ذو الرمة الشاعر
عن ابن عباس ان المسجور اليابس الذي قد نضب ماؤه وذهب
وليس لذي الرمة رواية عن ابن عباس غير هذا الحرف وهذا القول
اختيار ابي العالية قال ابو زيد المسجور المملو والمسجور الذي ليس
فيه شيء جعله من الاضداد وقد روي عن ابن عباس ان المسجور
المحبوس ومنه ساجور الكلب وهو القلادة من عود او حديد تمسكه

والمعنى

والمعنى على هذا انه محبوس بقدرة الله ان يفيض على الارض فيغرقها فان ذلك
مقتضى الطبيعة ان يكون الماء غامرا للارض فوقها كما ان الهوى فوق الماء
ولكن امسكه الذي يمسك السموات والارض ان تزولا وفي هذا حديث
ذكره احمد مرفوعا ما من يوم الا والبحر يستاذن ربه ان يغرق
بني آدم وهذا الموضع مما هدم اصول الملاحدة والدهرية فانه ليس في الطبيعة
ما يقتضي حبس الماء عن بعض جوانب الارض مع كون كرة الماء عالية على
كرة الارض بالذات ولو فرض ان في الطبيعة ما يقتضي بروز جوانبها
لم يكن فيها ما يقتضي تخصيص هذا الجانب بالبروز دون غيره
وما ذكره الطبائعيون والمتفلسفة ان العناية الالهية
اقتضت ذلك لمصلحة العالم فنعم هو كما ذكروا ولكن عناية من يفعل
بقدرته ومشيئته وهو بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير وهو احكم
الحاكمين غير معقولة فان العناية الالهية تقتضي حياته
وقدرته ومشيئته وعلمه وحكمته ورحمته واحسانه
الى خلقه وقيام الافعال به فاثبات العناية الالهية مع نفي هذه الامور
ممتنع وبالله التوفيق واقوى الاقوال في المسجور انه الموقد وهذا هو
المعروف في اللغة من المسجور ويدل عليه قوله تعالى واذا البحار سجرت
قال علي وابن عباس اوقدت فصارت نارا ومن قال يبست وذهب
ماؤها فلا ينافي كونها نارا موقدة وكذا من قال ملئت فانها تملأ
نارا واذا اعتبرت اسلوب القرآن ونظمه ومفرداته رايت اللفظة تدل
على ذلك كله فان البحر محبوس بقدرة الله وتملؤ ماء ويذهب ماؤه
يوم القيمة ويصير نارا فكل من المفسرين اخذ معنا من هذه
المعاني والله اعلم

فصل

والقسم بالطور

هذه الامور على المعاد والجزاء فقال ان عذاب ربك لواقع ما له من دافع والواقع
الذي يقع قد يمكن دفعه اخبر سبحانه انه لا دافع له وهذا يتناول
امرين احدهما انه لا دافع لوقوعه والثاني انه لا دافع له اذا وقع ثم ذكر
سبحانه وقت وقوعه فقال يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا
والمور قد فسر بالحركة وفسر بالدوران وفسر بالتموج والاضطراب و
التحقيق انه حركة في تموج وتكفؤ وذهاب ومجيء ولهذا فرق بين حركة
السماء وحركة الجبال فقال وتسير الجبال سيرا وقال واذا الجبال
سيرت من مكان الى مكان واما السماء فانها تتكفأ وتموج وتذهب
وتجيء قال الجوهري مار الشيء يمور مورا تردد اي تحرك وجاء و
ذهب كما تتكفأ النخلة العيدانة اي الطويلة ومنه قوله يوم تمور
السماء مورا قال الضحاك تموج موجا وقال ابو عبيدة والاخفش تكفأ وانشد
للاعشى كأن مشيتها من بيت جارتها مور السحابة لا ريث ولا عجل
ثم ذكر وعيد المكذبين بالمعاد والنبوة وذكر اعمالهم وعلومهم التي كانوا
عليها وهي الخوض الذي هو كلام باطل واللعب الذي هو سعي ضائع فلا
علم نافع ولا عمل صالح بل علومهم خوض بالباطل واعمالهم لعب ولما كانت
هذه العلوم والاعمال مستلزمة لدفع الحق بعنف وقهر ادخلوا جهنم
وهم يدعون اليها دعا اي يدفعون في اقفيتهم واكتافهم دفعا بعد دفع فاذا
وقفوا عليها وعاينوها وقفوا وقيل لهم هذه النار التي كنتم بها
تكذبون وتقولون لا حقيقة لها ولا من اخبر بها صادق ثم يقال
افسحر هذا الان كما كنتم تقولون للحق اي جاءكم
به الرسل انه سحر وانهم سحرة فهذا الان سحر لا حقيقة له كما قلتم ام على ابصا
ركم غشاوة فلا تبصرونها كما كان عليها غشاوة في

الدنيا

الدنيا فلا تبصرون الحق انعميت ابصاركم اليوم عن رؤية هذا الحق
كما عميت في الدنيا فلا تبصرون الحق ثم سلب عنهم نفع البصر الذي كانوا في
الدنيا اذا دهمتهم الشدائد واحاطت بهم لجأوا اليه وتعللوا بانقضاء
البلية وامدها فقيل لهم يومئذ اصبروا او لا تصبروا كلاهما سواء عليكم
لا يجدي عنكم الصبر ولا الجزع فلا الصبر يخفف عنكم
حمل هذا العذاب ولا الجزع يعطف عليكم قلوب الخزنة ولا يستنزل
لكم الرحمة ثم اعلموا ان الرب تعالى لم يظلمهم بذلك وانما هو نفس اعمالهم
صارت عذابا فلم يجدوا من اقترانهم به بدا بل صارت عذابا لازما لهم
كما كانت ارادتهم وعقائدهم الباطلة واعمالهم القبيحة لازمة لهم ولزوم
العذاب لاهل النار بحسب لزوم تلك الارادات الفاسدة والعقا
يد الباطلة وما يترتب عليها من اعمالهم في الدنيا فاذا زال ذلك
اللزوم في وقت ما يصلح وبالتوبة النصوح زوالا كليا لم يعذبوا عليه
في الاخرة الان اثره قد زال من قلوبهم والسنتهم وجوارحهم ولم يبق له
اثر يترتب عليه فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له والمادة الفاسدة اذا
زالت مع البدن بالكلية لم يبق هناك الم ينشا عنها وان لم تزل تلك الا
رادة والاعمال ولكن عارضها معارض اقوى منها كان التاثير للمعارض
وغلب الاقوى الاضعف وان تساوى الامران تدافعا وقام كل منها الا
خر فكان محل اصحاب الاعراف بين الجنة والنار فهذا حكم الله وحكمته
في خلقه وامره ونهيه وعقابه ولا يظلم ربك احدا

فصل

ثم ذكر سبحانه ارباب العلوم النافعة والاعمال الصالحة والا
عتقادات الصحيحة وهم المتقون فذكر مساكنهم ثم
وهم في الجنات وحالهم في المساكن وهو النعيم وذكر نعيم قلوبهم وراحتهم

لتقضاء

لكونهم فاكهين بما آتاهم ربهم والفاكه المعجب بالشيء المسرور المغتبط به
وفعله فكه بالكسر يفكه فهو فكه وفاكه اذا كان طيب النفس والفاكه
ايضا ومنه الفاكهة وهي المزح الذي ينشأ عن طيب النفس وتفكهت بالشيء اذا
تمتعت به ومنه الفاكهة التي يتمتع بها ومنه قوله فظلتم تفكهون قيل
تندمون وهذا تفسير بلازم المعنى وانما الحقيقة تزيلون عنكم التفكه
واذا زال التفكه خلفه ضده يقال تحنث اذا زال الحنث عنه
وتحرج وتحوب وتأثم ومنه تفكر وهذا البنا يقال للداخل في الشيء
كتعلم وتحلم وللخارج منه كتحرج وتأثم والمقصود انه سبحانه جمع لهم
بين النعيمين نعيم القلب بالتفكه ونعيم البدن بالأكل والشرب و
النكاح ووقاهم عذاب الجحيم فوقاهم ما يكرهون واعطاهم
ما يحبون جزاء وفاقا لانهم توقوا ما يكره واتوا بما يحب فكان
جزاؤهم مطابقا لأعمالهم ثم اخبر عن دوام ذلك لهم بما اشعر قوله هنيئا
لو علموا زواله وانقطاعه لنغص عليهم ذلك نعيمهم ولم يكن هنيئا لهم ثم ذكر
مجالسهم وهيئاتهم فيها فقال متكئين على سرر مصفوفة
وفي ذكر اصطفافها تنبيه على كمال النعمة عليهم بقرب
بعضهم من بعض ومقابلة بعضهم بعضا كما قال تعالى متكئين
عليها متقابلين فان من تمام اللذة والنعيم ان يكون مع الانسان في
بستانه ومنزله من يحب معاشرته ويؤثر قربه ولا يكون بعيدا
منه قد حيل بينه وبينه بل سريره الى جانب سرير من يحبه وذكر
ازواجهم وانهم الحور العين وقد تقدم وصفهن في القرآن بما يدعو
الصفتين قال ابو عبيدة جعلناهم ازواجا كما يزوج النعل بالنعل جعلن
هم اثنين اثنين وقال يونس قرناهم بهن وليس من عقد التزويج و

احتج

واحتج على هذا بان العرب لا تقول تزوجت بها وانما تقول تزوجتها قال
تعالى فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها وفي الحديث زوجتكها بما معك
من القرآن وقال غيره العرب تقول تزوجت بامرأة وقال الازهري
العرب تقول زوجته امرأة وتزوجت امرأة وليس في كلامهم تزوجت
بامرأة ومنه قوله تعالى وزوجناهم بحور عين اي قرناهم وعلى هذا فزو
جناهم عند هؤلاء من الاقتران والشفع اي شفعناهم وقرناهم بهن
وقالت طائفة منهم مجاهد زوجناهم بهن اي انكحناهم اياهن
قلت وعلى هذا فيكون فعل التزويج قد دل على النكاح وتعديته
بالباء المتضمنة معنى الاقتران والضم فالقولان واحد والله اعلم
واما الحور العين فقال مجاهد التي يحار فيها الطرف باديا مخ سوقهن من
وراء ثيابهن ويرى الناظر وجهه في كبد احداهن كالمرآة من رقة
الجلد وصفاء اللون وقال قتادة بحور اي بيض وكذا قال
ابن عباس وقال مقاتل الحور البيض الوجوه العين الحسان الاعين
وعين حوراء شديدة السواد نقية البياض طويلة الاهداب
مع سوادها كاملة الحسن ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون مع حور عينيها
بياض لون الجسد فوصفهن بالبياض والحسن والملاحة كما قال خيرات
حسان فالبياض في الوانهن والحسن في وجوههن والملاحة
في عيونهن وقد وصف الله سبحانه نساء اهل الجنة باحسن الصفات
ودل بما وصف بما سكت عنه فان شئت التفصيل فالذي يحمد و
يستحب من وجه المرأة وبدنها واخلاقها البياض في اربعة اشيا
اللون وبياض العين والفرق والثغر والسواد في اربعة
سواد العين وسواد شعر الراس والجفن وسواد الحاجبين

والحمرة في اربعة اللسان والشفتين والوجنتين وحمرة تشوب
البياض فتحسنه وتزينه ومن التدوير اربعة اشيا الوجه
والراس والكعب والمقعد ومن الطول اربعة القامة
والعنق والشعر والحاجب والسعة في اربعة الجبهة والعين
والوجه والصدر ومن الصغر في اربعة الثدي والفم و
الكف والقدم ومن الطيب في اربعة الفم والانف والعرق
والفرج ومن الضيق في موضع واحد ومن الاخلاق كما قال تعالى
عربا اترابا اذ العرب جمع عروب وهي المراة المتحببة الى زوجها باخلاقها
ولطافتها وشمايلها قال ابن الاعرابي العروب من النسا المطيعة
لزوجها المتحببة اليه وقال ابو عبيدة هي الحسنة التبعل قال المبرد
هي العاشقة لزوجها وقال البخاري في صحيحه هي الغنجة وتقال
الشكلة فهذا وصف اخلاقهن وذاك وصف خلقهن وانشاذا يا
ملت الصفات التي وصفهن الله بها رايتها مستلزمة لهذه الصفات
ولما ولاها والله المستعان **فصل** ثم اخبر سبحانه
عن تكميل نعيمهم بالحاق ذرياتهم بهم في الدرجة وان لم يعملوا اعمالهم
لتقر اعينهم بهم ويتم سرورهم وفرحهم واخبر سبحانه انه لم ينقص الابا
من عملهم من شي بهذا الالحاق فينزلهم من الدرجة العليا الى الدرجة
السفلى بل الحق الابنا بالابا ووفر على الابا اجورهم ودرجاتهم ثم
اخبر سبحانه ان هذا انما هو فعله في اهل الفضل واما اهل العدل
فلا يفعل بهم ذلك بل كل امرئ بما كسب رهين ففي هذا رفع لتوهم
التسوية بين الفريقين بهذا الالحاق كما في قوله وما التناهم
من عملهم من شي دفع لتوهم حط الابا الى درجة الابنا وقسمة اجور

الابا

الابا بينهم وبين الابنا فينتقص اجر اعمالهم فدفع هذا التوهم بقوله وما
التناهم من عملهم من شي اي ما نقصناهم ثم ذكر امدادهم باللحم والفاكهة والشراب
وانهم يتعاطون كوس الشراب بينهم يشرب احدهم ويناول صاحبه ليتم بذلك
فرحهم وسرورهم ثم نزه ذلك الشراب عن الافات من اللغو واهل
عليه ولحوق الاثم لهم فقال لا لغو فيها ولا تاثيم فنفى باللغو السباب والتخاصم
والهجر والفحش في المقال والعربدة ونفى بالتاثيم جميع الصفات المذمومة
التي اثبت شارب الخمر وقال سبحانه ولا تاثيم ولم يقل ولا اثم اي ليس فيها
ما يحمل على الاثم ولا يؤثم بعضهم بعضا بشربها ولا يؤثمهم الله بذلك ولا
الملايكة فلا يلغون ولا ياثمون قال ابن قتيبة لا يذهب بعقولهم فيلغوا ولا
يقع منهم ما يؤثمهم ثم وصف خدمهم الطايفين عليهم بانهم كاللؤلؤ في بيا
ضهم وللمكنون المصون الذي لا تدنسه الايدي فلم تذهب الخدمة تلك
المحاسن وذلك اللون والصفا والبهجة بل مع انتصابهم لخدمتهم كانهم لولو
مكنون ووصفهم في موضع اخر اذا رايتهم حسبتهم لولوا منثورا ففي ذكر
المنثور اشارة لانفرقهم في حوايج ساداتهم وخدمتهم وذهابهم ومجيهم
وسعة المكان بحيث لا يحتاجون ان ينضم بعضهم الى بعض فيه لضيقه
ثم ذكر سبحانه ما يتحدثون به هناك وانهم يقولون انا كنا قبل في اهلنا
مشفقين اي كنا خايفين في محل الامن بين الاهل والاقارب والعشا
ير فاوصلنا ذلك الخوف والاشفاق الى ان من الله علينا فامننا مما نخاف
ووقانا عذاب السموم وهذا ضد حال الشقي الذي كان في اهله مسرورا
فهذا كان مسرورا مع اساته وهولا كانوا مشفقين مع احسانهم فبدل
الله سبحانه اشفاقهم باعظم الامن وبدل امن اوليك باعظم المخاوف
فالله المستعان ثم اخبر عن حالهم في الدنيا وانهم كانوا يعبدون الله

بلغ

فيها فاوصلهم عبادته وحده الى قربه وجواره ومحل كرامته والذي جمع لهم
ذلك كله بره ورحمته فانه هو البر الرحيم فهنا هو المقسم عليه بتلك الاقـ
قسام الخمسة في اول السورة والله اعلم

فصل

ومن ذلك قوله والذاريات ذروا فالحا
ملات وقرا فالجاريات يسرا فالمقسمات امرا اقسم بالذاريات
وهي الرياح تذروا المطر وتذروا التراب وتذروا النبات اذا تهشم كما قال
تعالى فاصبح هشيما تذروه الرياح اي تفرقه وتنشره ثم بما فوقها وهي
السحاب الحاملات وقرا اي ثقلا من الماء وهي روايا الارض يسوقها
الله سبحانه على متون الرياح كما في جامع الترمذي من حديث
الحسن عن ابي هريرة قال بينما نبي الله صلى الله عليه وسلم جالس في اصحابه اذا اتى
عليهم سحاب فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم هل تدرون ما هذا قالوا الله ورسوله
اعلم قال هذا العنان هذه روايا الارض يسوقها الله تبارك وتعالى الى قوم
لا يشكرونه ولا يدعونه ثم اقسم سبحانه بما فوق ذلك وهي الجاريات يسرا وهي
النجوم التي من فوق الغمام ويسرا اي مسخرة مذللة منقادة وقال جماعة
من المفسرين انها السفن تجري ميسرة في الماء جريا سهلا ومنهم من لم يذكر
غيره واختار شيخنا رحمه الله القول الاول وقال هو احسن في التر
تيب والانتقال من السافل الى العالي فانه بدا بالرياح وفوقها السحاب
وفوقه النجوم وفوقها الملائكة المقسمات امر الله الذي امرت به بين خلقه
والصحيح ان المقسمات امرا لا تختص باربعة وقيل هم جبريل يقسم الوحي و
العذاب وانواع العقوبة على من خالف الرسل وميكائيل على القطر والبرد والثلج
والنبات يقسمها بامر الله وملك الموت يقسم المنايا بين الخلق بامر الله
واسرافيل يقسم الارواح على ابدانها عند النفخ في الصور وهم المدبرات

امرا وليس في اللفظ ما يدل على الاختصاص بهم والله اعلم واقسم سبحانه
بهذه الامور الاربعة لمكان العبرة والاية والدلالة الباهرة على ربوبيته
ووحدانيته وعظم قدرته ففي الرياح من العبر هبوبها وسكونها ولينها
وشدتها واختلاف طبائعها وصفاتها ومهابها وتصريفها وتنوع
منافعها وشدة الحاجة اليها فللمطر خمس رياح ريح ينشر سحابه وريح تؤلف
بينه وريح تلقحه وريح تسوقه حيث يريد الله وريح تذروا ماءه وتفرقه
وللنبات ريح وللسفن ريح وللرحمة ريح وللعذاب ريح الى غير ذلك من انواع
الرياح وذلك يقتضي بوجود خالق مصرف لها مدبر لها يصرفها كيف
يشاء ويجعلها رخاء تارة وعاصفة تارة ورحمة تارة وعذابا تارة فتارة يحيي
بها الزروع والثمار وتارة يعطبها بها وتارة ينجي بها السفن وتارة يهلكها
بها وتارة ترطب الابدان وتارة تذيبها وتارة عقيما وتارة لاقحة وتارة
جنوبا وتارة دبورا وتارة صبا وتارة شمالا وتارة حارة وتارة باردة وهي
مع غاية قوتها الطف شيء واقبل المخلوقات لكل كيفية سريعة التاثر والتا
ثير لطيفة المسارق بين السماء والارض اذا قطع عن الحيوان الذي على وجه
الارض هلك كالماء الذي اذا فارقه حيوان الماء هلك يحبسها الله سبحانه
اذا شاء ويرسلها اذا شاء تحمل الاصوات الى الاذن والرائحة الى الانف
والسحاب الى الارض الجرز وهي من روح الله تاتي بالرحمة ومن عقوبته
تاتي بالعذاب وهي اقوى خلق الله كما رواه الترمذي في جامعه من حديث
انس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما خلق الله الارض جعلت تميد
فخلق الجبال فقال بها عليها فاستقرت فعجبت الملائكة من شدة الجبال
وقالوا يا رب هل من خلقك شيء اشد من الجبال قال نعم الحديد قالوا يا رب فهل
من خلقك شيء اشد من الحديد قال نعم النار قالوا يا رب فهل من خلقك

اشد من النار قال نعم الماء قالوا يا رب فهل من خلقك اشد من الماء قال
نعم الريح قالوا يا رب فهل من خلقك اشد من الريح قال نعم ابن ادم تصدق
بصدقة بيمينه يخفيها من شماله ورواه الامام احمد في مسنده وفي
الترمذي في حديث قصة عاد انه لم يرسل عليهم من الريح الا قدر
حلقة الخاتم فلم تذر من شيء اتت عليه الا جعلته كالرميم وقد وصفها الله
بانها عاتية قال البخاري في صحيحه عتت على الخزنة فلم يستطيعوا ان
يردوها والمقصود ان الرياح من اعظم ايات الرب الدالة على عظمته
وربوبيته وقدرته

فصل

ثم اقسم بالسحاب
وهو من اعظم ايات الله في الجو في غاية الخفة ثم يحمل الماء والبرد فيصير
اثقل شيء فيأمر الرياح فتحمله على متونها وتسير به حيث امرت فهو مسخر
بين السماء والارض حامل لارزاق العباد والحيوان فاذا افرغ حيث امر
به اضمحل وتلاشى بقدرته اذ لو بقي لاضر النبات والحيوان فانشاه
سبحانه في زمن يصلح انشاؤه فيه وحمله من الماء ما يحمله وساقه الى بلد شديد
الحاجة اليه فسل السحاب من انشاه بعد عدمه وحمله الماء والثلج والبرد
ومن حمله على ظهور الرياح ومن امسكه بين السماء والارض بغير عماد
ومن اغاث بقطره العباد واحيى به البلاد وصرفه بين خلقه كما اراد
واخرج ذلك القطر بقدر معلوم وانزله منه وافناه بعد ان استغنا عنه
ولو شاء لادامه عليهم فلم يستطيعوا الى دفعه سبيلا ولو شاء لامسكه
عنهم فلا يجدون اليه وصولا فان لم يجبك حوارا اجابك اعتبارا وسل
الرياح من انشاها بقدرته وصرفها بحكمته وسخرها بمشيئته
وارسلها بشرا بين يدي رحمته جعلها سببا لتمام نعمته وسلطانا على من
شاء بعقوبته ومن جعلها رخاء وذارية ولاقحة ومثيرة ومؤلفة

ومغذية

ومغذية لابدان الحيوان والشجر والنبات وجعلها قاصفا وعاصفا
ومهلكة وعاتية الى غير ذلك من صفاتها فهل ذلك لها من نفسها وذاتها
ام بتدبير مدبر شهدت الموجودات بربوبيته واقرت المصنوعات بوحدانيته
بيده النفع والضر وله الخلق والامر تبارك الله رب العالمين وسل
الجاريات يسرا من السفن من امسكها على وجه الماء ومن سخر لها البحر ومن
ارسل لها الرياح التي تسوقها الى الماء سوق السحاب على متون الرياح ومن
حفظها في مجراها ومرساها من طغيان الماء وطغيان الريح ومن الذي
جعل الريح لها بقدر لو زاد عليها لاغرقها ولو نقص عنه لعاقها ومن الذي
اجرى لها ريحا واحدة تسيرها ولم يسلط على تلك الريح ما يصادمها ويقاومها
فتتموج في البحر يمينا وشمالا تتلاعب بها الرياح ومن الذي علم الخلق
الضعيف صنعة هذا البيت العظيم الذي يمشي على الماء ويقطع المسافة
البعيدة ويعود الى بلده يشق الماء ويمخره مقبلا ومدبرا بريح واحدة تجري
في موج كالجبال ومن اياته الجوار في البحر كالاعلام ان يشا يسكن الريح
فيظللن رواكد على ظهره ان في ذلك لايات لكل صبار شكور
او يوبقهن بما كسبوا ويعفو عن كثير ومن الذي حمل في
هذا البيت نبيه واولياءه خاصة واغرق جميع اهل الارض سواهم وسل
الجاريات يسرا من الكواكب والشمس والقمر
الذي خلقها واحسن خلقها ورفع مكانها وزين بها قبة العالم وفاوت
بين اشكالها ومقاديرها والوانها وحركاتها واماكنها من
السماء فمنها الكبير ومنها الصغير والمتوسط وان بعضها وان
حمر والزجاجي اللون والدري اللون والمتوسط في قبة الفلك
والمنحرف في جوانبها وبين ذلك ومنها ما يقطع الفلك في شهر ومنها ما

ما يقطعه في عام ومنها ما يقطعه في ثلاثين عاما ومنها ما يقطعه في اضعاف
ذلك ومنها ما لا يزال ظاهرا لا يغيب بحال منها ابدا ومنها ابدا الخفا
ومنها ما له حالتان ظهور واختفاء ومنها ما له حركتان حركة عرضية
من المشرق الى المغرب وحركة ذاتية من المغرب الى المشرق فحال ما ياخذ
الكوكب في الغروب فاذا كوكب
اخر في مقابلته وكوكب اخر قد طلع وهو اخذ في الارتفاع
والتصاعد وكوكب اخر في الربع الشرقي وكوكب
اخر في وسط السما وكوكب اخر قد مال عن الوسط واخر
قد دنا من الغروب وكان رقيبه ينتظر بطلوعه غيبته وانت
اذا تاملت احوال هذه الكواكب وجدتها تدل على المعاد كما تدل
على المبدا وتدل على وجود الخالق وصفات كماله وربوبيته وحكمته ووحدانيته
اعظم دلالة وكما دل على صفات جلاله ونعوت كماله دل على صدق رسله فقد جعل
الله النجوم هداية في طريق البر والبحر فهي هداية في طرق العلم بالخالق سبحانه
وقدرته وعلمه وحكمته وللمبدا والمعاد والنبوة ودلالتها على هذه المطالب
لا تنقص عن دلالتها على طرق البر والبحر بل دلالتها المعقولة على ذلك اظهر
من دلالتها على الطرق الحسية فهي هداية في هذا وهذا

فصل واما دلالة المقسمات امرا فهم الملائكة
فلان ما نشاهد من تدبير العالم العلوي والسفلي وما لا نشاهد انما هو
على ايدي الملائكة فالرب تعالى يدبر بهم امر العالم وقد وكل
بكل عمل من الاعمال طائفة منهم فوكل بالشمس والقمر والنجوم والافلاك
طائفة منهم ووكل بالقطر والسحاب طائفة ووكل بالنبات طائفة ووكل
بالاجنة والحيوان طائفة ووكل بالموت طائفة وبحفظ بني ادم طائفة
وباحصاء

وباحصاء اعمالهم وكتابتها طائفة وبالوحي طائفة وبالجبال طائفة
وبكل شان من شؤون العالم طائفة هذا مع ما في خلق الملائكة
من البهاء والحسن وما فيهم من القوة والشدة ولطافة الجسم وحسن الخلقة
وكمال الانقياد لامره والقيام في خدمته وتنفيذ اوامره في اقطار العالم ثم
اقسم سبحانه على ان موعده صدق ووعده ووقوع جزائه بالثواب والعقاب
فقال انما توعدون لصادق اي ما توعدون من امر الساعة والثواب
والعقاب لحق كائن وهو وعد صدق لا كذب وان الدين لواقع اي ان الجزاء
لكائن لا محالة ويجوز ان تكون ما موصولة والعائد محذوف والمعنى ان
الذي توعدونه لصادق اي كائن وثابت وان تكون مصدرية اي ان
وعدكم لحق وصدق ووصف الوعد بكونه صادقا ابلغ من وصفه
بكونه صدقا ولا حاجة الى تكلف جعله بمعنى مصدوق
فيه بل هو صادق نفسه كما يوصف المتكلم بانه صادق في كلامه
فوصف كلامه بانه صادق وهذا مثل قولهم سر كاتم وليل قائم ونهار
صائم وماء دافق ومنه عيشة راضية وليس ذلك بمجاز ولا مخالف لمقتضى
التركيب واذا تاملت هذا التناسب والارتباط بين المقسم به والمقسم
عليه وجدته دالا عليه مرشدا اليه ثم اقسم سبحانه بالسماء ذات الحبك
اصل الحبك في اللغة اجادة النسج يقال حبك الثوب اذا اجاد نسجه
وحبل محبوك اذا كان شديد الفتل وفرس محبوك الكفل اي مدمجه وقال
سهم المحبوك في اللغة ما اجيد عمله ودابة محبوكة اذا كانت مدمجة الخلق
وقال ابو عبيدة والمبرد الحبك الطرائق واحدها حباك وحباك الحمام
طرائق على جناحيه وحبك الماء طرائقه وقال الفرا الحبك تكسر كل شي كالرمل
اذا مرت به الريح والماء الدائم اذا مرت به الريح وتجعد الشعر حبك ايضا واحدها

حبكة مثل طريقة وحباك مثل مثال ومثل والمقصود بهنا كل قول
ما افصح به ابن عباس فقال يريد الخلق الحسن وروى سعيد بن جبير عنه
قال الحبك حسنها واستواؤها وقال قتادة ذات الخلق
الشديد وقال مجاهد متقنة البنيان وقال الفراء ذات الطرائق ولكنها
بعيدة من العباد فلا يرونها كحبك الماء اذا ضربته
الريح وكحبك الرمل وكحبك الشعر وقال
عكرمة بنيانها كالبرد المسلسل قلت وفي الحديث
في صفة الدجال شعر راسه حبك اي جعد الشعر ومن احسن ما قيل في تفسير
الحبك ما ذكره الترمذي في تفسير الجامع من حديث الحسن عن ابي هريرة ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال هل تدرون ما فوقكم قالوا الله ورسوله اعلم قال فانها
الرقيع سقف محفوظ وموج مكفوف وذكر الحديث

فصل

ثم ذكر المقسم عليه فقال انكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من افك فالقول
المختلف اقوالهم في القرآن وفي النبي صلى الله عليه وسلم فهو خرص كله فانهم لما كذبوا
بالحق اختلفت مذاهبهم وآراؤهم وطرائقهم واقوالهم فان الحق شيء واحد
وطريق مستقيم فمن خالفه اختلفت به الطرق والمذاهب كما قال تعالى بل
كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في امر مريج اي مختلط ملتبس وفي ضمن هذا
الجواب انكم في اقوال باطلة متناقضة يكذب بعضها بعضا بسبب تكذيبهم
بالحق ثم اخبر سبحانه انه يصرف بسبب ذلك القول المختلف من صرف
فعن ههنا فيها طرف من معنى التسبيب كقوله وما نحن بتاركي آلهتنا
عن قولك اي بسبب قولك وقوله من افك اي من سبق في علم الله انه
يضل ويؤفك كقوله فانكم وما تعبدون ما انتم عليه بفاتنين الا من هو
صال الجحيم وقالت طائفة الضمير يرجع الى القرآن وقيل الى الايمان وقيل

الرسول

بلغ

الرسول والمعنى يصرف عنه من صرف حتى يكذب به ولما كان هذا
القول المختلف خرصا وباطلا قال قتل الخراصون اي المكذبون
الذين هم في غمرة ساهون وجهالة وغمرة قلوبهم اي غطاها وغشاها كغمرة
الماء وغمرة الموت فغمرات ما غطاها من جهل او هوى او سكر او
او غفلة او حب او بغض او خوف او غم ونحو ذلك قال تعالى بل قلوبهم في
غمرة من هذا اي غفلة وقيل جهالة ثم وصفهم بانهم ساهون في غمرتهم
والسهو الغفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه والفرق بينه وبين
النسيان ان النسيان الغفلة بعد الذكر والمعرفة والسهو لا يستلزم
ذلك ثم قال يسألون ايان يوم الدين استبعادا للوقوع وجحدا فا
خبر تعالى ان ذلك يومهم على النار يفتنون والمشهور في تفسير هذا الحرف
انه بمعنى يحرقون ويكون لفظة على لفظي معنى زائدا على ما ذكروه ولو
كان المراد نفس الحرق لقيل يومهم في النار يفتنون ولهذا لما علم هؤلاء
ذلك قال كثير منهم على بمعنى في كما تكون في بمعنى على والظاهر ان فتنتهم
على النار قبل فتنتهم فيها لهم عند عرضهم عليها ووقوفهم عليها فتنة
وعند دخولهم والتعذيب بها فتنة اشد منها فهم ومن جعل الفتنة
ههنا من الحريق اخذه من قوله تعالى ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤ
منات ثم لم يتوبوا واستشهد على ذلك ايضا بهذه اللفظة التي في
الذاريات وحقيقة الامر ان الفتنة تطلق على العذاب وسببه
ولهذا سمى الله الكفر فتنة فهم لما اتوا بالفتنة التي هي اسباب العذاب
في الدنيا سمي جزاؤهم فتنة ولهذا قال ذوقوا فتنتكم وكان وقوفهم على النا
ر وعرضهم عليها من اعظم فتنتهم واخر هذه الفتنة دخول النار والتعذ
يب بها ففتنوا اولا باسباب الدنيا وزينتها ثم فتنوا بارسال ه

لعله القلوب

الرسل اليهم ثم فتنوا بمخالفتهم وتكذيبهم ثم فتنوا بعذاب الدنيا ثم فتنوا
بعذاب الموت ثم يفتنون في موقف القيمة ثم اذا حشروا الى النار وقفوا
عليها وعرضوا عليها وذلك من اعظم فتنتهم ثم الفتنة الكبرى
التي انستهم جميع الفتن قبلها **فصل** ثم ذكر سبحانه
جزا من خلص من هذه الفتن بالتقوى وهو الجنات والعيون وانهم
آخذون ما آتاهم ربهم من الخير والكرامة وفي ذلك دليل على امور منها قبولهم
له ومنها رضاهم به ومنها وصوله اليهم بلا مانع ولا معاوق ومنها
ان جزاهم من جنس عملهم فكما اخذوا ما امرهم به في الدنيا وقابلوه بالرضا
والتسليم وانشراح الصدر اخذوا ما اتاهم من الجزا كذلك ثم ذكر السبب
الذي اوصلهم الى ذلك وهو احسانهم المتضمن لعبادته وحده لا شريك
له والقيام بحقوقه وحقوق عباده ثم ذكر ليلهم وانهم قليل هجوعهم منه
وقد قيل ان ما نافية والمعنى ما يهجعون قليلا من الليل فكيف بالكثير وهذا
ضعيف لوجوه احدها ان هذا ليس بلازم لوصف المتقين الذين يستحقون
هذا الجزا الثاني ان قيام من نام من الليل نصفه احب الى الله من قيام
من قامه كله الثالث انه لو كان المراد بذلك احياء الليل
جميعه لكان اولى الناس بهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما قام ليلة حتى
الصباح الرابع ان الله سبحانه انما امر رسوله ان يتهجد بالقران من
الليل لا في الليل كله فقال ومن الليل فتهجد به الخامس
انه سبحانه لما امره بقيام الليل في سورة المزمل انما امره بقيام النصف
او الانتقاص منه او الزيادة عليه فذكر له هذه المراتب
الثلاثة ولم يذكر قيامه كله السادس انه صلى الله عليه
وسلم لما بلغه عن عثمان ابن مظعون انه لا ينام من الليل بعث اليه

فجاء

فجاء فقال يا عثمان ارغبت عن سنتي قال لا والله يا رسول الله ولكن سنتك
اطلب قال فاني انام واصلي واصوم وافطر وانكح النسا فاتق الله يا عثمان
فان لاهلك عليك حقا وان لضيفك عليك حقا وان لنفسك عليك
حقا فصم وافطر وصل ونم ولما بلغه عن زينب بنت جحش انها تصلي
الليل كله حتى جعلت حبلا بين ساريتين اذا فترت تعلقت به
انكر ذلك وامر بحله السابع ان الله اثنى عليهم بانهم كانت تتجافى
وتقلق عنها حتى يثوبوا الى الصلاة وهذا جزاهم عن هذا التجافي والذي
سببه قلق القلب واضطرابه حتى يقوم الى الصلاة بقرة الاعين
الثامن ان الصحابة بل هم الذين اول واولى من دخل في هذه الاية بل
لم يفهموا منها عدم نومهم بالليل اصلا فروى بجير بن سعد عن سعيد عن
قتادة عن انس في قوله كانوا قليلا من الليل ما يهجعون قال كانوا
يصلون ما بين المغرب والعشا التاسع ان في هذا التقدير تفكيكا للكلام
وتقديما لمعمول العامل المنفي عليه لانك تجعل قليلا معمولا ليهجعون وهو
منفي والبصريون لا يجيزون ذلك وان اجازه الكوفيون وفصل بعضهم
فاجازه في الظرف ولم يجزه في غيره **فصل** وقيل
ما زائدة وخبر كان يهجعون وقليلا منصوب اما على المصدرية اي هجوعا
قليلا واما على الظرف اي زمنا قليلا واستشكل هذا بان نوم نصف
الليل وقيام ثلثه ثم نوم سدسه احب القيام الى الله فيكون وقت الهجوع اكثر
من وقت القيام فكيف يثني عليهم بالافضل خلافه واجيب عن ذلك
بان من قام هذا القيام فزمن هجوعه اقل من زمن يقظته قطعا فانه
مستيقظ من المغرب الى العشا ومن الفجر الى طلوع الشمس فيبقى ما بين
العشا الى طلوع الفجر يقسمونه نصف ذلك الوقت فيكون زمن الهجوع

اقل من زمن الاستيقاظ وقيل ما مصدرية وهي في موضع رفع بقليل
اي كانوا قليلا هجوعهم وهو قول الحسن وقيل انها موصولة بمعنى
الذي والعائد محذوف اي قليل من الليل الوقت الذي يهجعون وفيه
تكلف وقيل ما يهجعون بدل اشتمال من اسم كان والتقدير كان هجوعهم
من الليل قليلا ويرد عليه ان من الليل متعلق بيهجعون ومعمول المصدر
لا يتقدم عليه واجيب عنه انه منصوب على التفسير ومعناه ان يعمل فيه
فعل محذوف ينصبه يفسره هذا المذكور وقليلا خبر كان وتم الكلام
بذلك والمعنى كانوا صنفا او جنسا قليلا ثم قال من الليل ما يهجعون
واصحاب هذا القول يجعلون ما نافية فيعود الكلام الى نفي هجوعهم شيئا
من الليل وقد تقدم ما فيه ثم اخبر عنهم بانهم مع صلاتهم بالليل كانوا
يستغفرون الله عند السحر فختموا صلاتهم بالاستغفار والتوبة فباتوا
لربهم سجدا وقياما ثم تابوا اليه واستغفروا عقيب ذلك وكان النبي
صلى الله عليه وسلم اذا سلم من صلاته استغفر ثلاثا وامر الله سبحانه الحجيج
عقبه بالاستغفار وامر عباده ان يختموا اذا افضتم من عرفات بالا
ستغفار وشرع صلى الله عليه وسلم للمتوضي ان يختم وضوءه بالتوبة فاحسن
ما ختمت به الاعمال التوبة والاستغفار ثم اخبر سبحانه عن احسانهم
الى الخلق مع اخلاصهم لربهم فجمع لهم بين الاخلاص والاحسان ضد
الذين هم يراءون ويمنعون الماعون واكد اخلاصهم في هذا الاحسان
بان مصرفه للسائل والمحروم الذي لا يقصد باعطائه الجزاء منه
ولا الشكور والمحروم المتعفف الذي لا يسأل وتأمل حكمة الرب تعالى في كونه
حرمه بقضائه وشرع لاصحاب الجدة اعطاه وهو اغناه عنه
واجود الاجودين فلم يجمع عليه بين الحرمان بالقدر وبالشرع شرع عطا

بامره

بامره وحرمه بقدرته فلم يجمع عليه حرمانين

فصل

ثم ذكرهم سبحانه باياته الافقية والنفسية فقال وفي الارض
ايات للموقنين وفي انفسكم افلا تبصرون فايات الارض انواع كثيرة
منها خلقها وحدوثها بعد عدمها وشواهد الحدوث والافتقار الى الصانع
عليها لا تجحد فانها شواهد قائمة بها ومنها بروز هذا الجانب منها عن
الماء كون مقتضى الطبيعة ان يكون مغمورا به ومنها سعتها
وكبر خلقها ومنها تسطيحها كما قال تعالى والى الارض كيف سطحت ولا ينافي
ذلك كونها كرة فهي كرة في الحقيقة لها سطح
يستقر عليه الحيوان ومنها انه جعلها فراشا لتكون مستقر الحيوان ومسا
كنه وجعلها قرارا وجعلها مهادا وجعلها ذلولا توطا بالاقدام
وتضرب بالمعاول والفؤوس وتحمل على ظهرها الابنية الثقال فهي ذلول
مسخرة لما يريد العبد منها وجعلها بساطا وجعلها كفاتا للاحياء تضمهم
على ظهرها وللاموات تضمهم في بطنها وطحاها فمدها وبسطها ووسعها
ودحاها فهياها لما يراد منها بان اخرج منها ماءها ومرعاها وشق
فيها الانهار وجعل فيها السبل والفجاج ومنها انه جعلها مهادا وفراشا
على حركتها جعلها الله ساكنة وذلك اية اخرى اذ لا دعامة
تحتها تمسكها ولا علاقة فوقها ولكنها لما كانت على وجه الماء كانت تكفا
فيها تكفا السفينة فاقتضت العناية الازلية و
الحكمة الالهية ان وضع عليها رواسي يثبتها بها لئلا تميد ولتستقر
عليها الانام وجعلها ذلولا على الحكمة في انها لم تكن في غاية
الصلابة والشدة كالحديد فيمتنع حفرها وشقها والبناء فيها
والغرس والزرع ويصعب النوم عليها والمشي فيها ومنه بكونها قرارا

على الحكمة في انها لم تختلف في غاية اللين والرخاوة والدماثة فلا تمسك
بنا ولا يستقر عليها الحيوان ولا الاجسام الثقيلة بل جعلها بين الصلابة
والدماثة واشرف الجواهر عند الانسان الذهب والفضة والياقوت
والزمرد فلو كانت الارض من هذه الجواهر لفاتت مصالح العباد
والحيوان منها وتعطلت المنافع المقصودة منها وبهذا يعلم ان جوهر
التراب اشرف من هذه الجواهر وانفع وابرك وان كانت تلك اعلا
واعز لغلائها وعزتها لقلتها والا فالتراب انفع منها وابرك وانفس
وكذلك لم يجعلها شفافة فان الجسم الشفاف لا يستقر عليه النور وما كان
كذلك لم يقبل السخونة فيبقى في غاية البرد فلا يستقر عليه الحيوان ولا ينبـ
ـت فيه النبات وكذلك لم يقبل السخونة فيبقى في غاية البرد ولم يجعلها صقيلة
براقة لئلا يحترق ما عليها بسبب انعكاس اشعة الشمس كما يشاهد
من احتراق القطن ونحوه عند انعكاس شعاع الجسم الصقيل الشفاف
فاقتضت حكمته سبحانه ان جعلها كثيفة غبرا فصلحت ان تكون مستقرا
للحيوان والانام والنبات ولما كان الحيوان الهوائي لا يمكنه ان يعيش
في الماء كالحيوان المائي ابرز له جانبها كما تقدم وجعله مهادا ووفق الهيئات
لمصالحه وانشاه منها وانشا منها طعامه وقوته وكذلك خلق
منها النوع الانساني واعاده اليها ويخرجه منها

فصل ومن اياته ان جعلها مختلفة
الاجناس والصفات والمنافع مع انها قطع متجاورات متلاصقة
فهذه سهلة وهذه حزن تجاورها وتلاصقها وهذه طيبة تنبت
وتلاصقها اخرى سبخة لا تنبت وهذه تربة وتلاصقها رمال وهذه صلبة
وتلاصقها وتليها رخوة وهذه سودا وتليها ارض بيضا وهذه حمرا

كلها

172

كلها وتجاورها ارض لا يوجد فيها حجر وهذه تصلح للنبات كذا وكذا
وهذه لا تصلح له بل تصلح لغيره وهذه سبخة مالحة وهذه بضدها وهذه
ليس فيها جبل ولا معلم وهذه مشحونة بالجبال وهذه لا تصلح الا على المطر
وهذه لا ينفعها المطر بل لا تصلح الا على سقي الانهار فيمطر الله سبحانه الارض
البعيدة ويسوق الماء اليها على وجه الارض فلو سالتها من نوعها هذا
التنوع ومن فرق اجزاءها هذا التفريق ومن خصص كل
قطعة منها بما خصها به ومن القى عليها رواسيها وفتح فيها السبل
واخرج منها الماء والمرعى ومن امسكها عن الزوال ومن بارك
فيها وقدر فيها اقواتها وانشا منها حيواناتها ونباتها ومن وضع فيها
معادنها وجواهرها ومنافعها ومن هياها مسكنا ومستقرا
للانام ومن يبدا الخلق منها ثم يعيده اليها ثم يخرجه منها ومن جعلها
ذلولا غير مستصعبة ولا تمتنع ومن وطا مناكبها وذلك مسا
لكها ووسع مخارجها وشق انهارها وانبت اشجارها واخرج ثمارها
ومن صدعها عن النبات واودع فيها جميع الاقوات ومن بسطها وفرشها
ومهدها وذللها وطحاها ودحاها وجعل ما عليها زينة لها ومن
الذي يمسكها ان تتحرك فتتزلزل فيسقط ما عليها من بناء ومعالم او
يخسفها بمن عليها فاذا هي تمور ومن الذي انشا منها النوع الانسا
ني الذي هو ابدع المخلوقات واحسن المصنوعات بل انشا منها ادم
ونوحا وابراهيم وموسى وعيسى ومحمدا صلى الله عليه وسلم وعليهم اجمعين و
انشا منها اولياءه واحبابه وعباده الصالحين ومن جعلها حا
فظة لما استودع فيها من المياه والارزاق والمعادن والحيوان
ومن جعل بينها وبين الشمس والقمر هذا القدر من المسافة فلو زادت

يعلم
وذلل

على ذلك لضعف تأثيرها بحرارة الشمس ونور القمر فتعطلت المنفعة
الواصلة الى الحيوان والنبات بسبب ذلك ولو زادت في القرب لاشتدت الحرارة والسخونة
كما تنشأ هي في الصيف فاحترقت ابدان الحيوان والنبات وبالجملة
فكانت تفوت هذه الحكمة التي بها انتظام العالم ومن الذي جعل فيها
الجنات والحدائق والعيون ومن الذي جعل باطنها بيوتا للأموات
وظاهرها بيوتا للأحياء ومن الذي يحييها بعد موتها فينزل عليها الماء
من السماء ثم يرسل عليها الريح ويطلع عليها الشمس فتأخذ في الحبل فاذا
كانت وقت الولادة تمخضت للوضع واهتزت وانبتت من كل زوج
بهيج فسبحان من جعل السماء كالأب والأرض كالأم والقطر كالماء الذي
ينعقد منه الولد فاذا حصل الحب في الأرض ووقع عليه الماء اثرت
نداوة الطين فيه واعانتها السخونة المحتقنة في باطن الأرض فوصلت
النداوة والحرارة الى باطن الحبة فاتسعت الحبة وربت وانتفخت و
انفلقت عن ساقين ساق من فوقها وهو الشجر وساق من تحتها
وهو العرق ثم عظم ذلك الولد حتى لم يبق لابيه نسبة اليه ثم وضع من الأ
ولاد بعدد ابيه الاف مؤلفة كل ذلك صنع الرب الحكيم
في حبة واحدة لعلها تبلغ في الصغر الى الغاية وذلك من البركة
التي وضعها الله سبحانه في هذه الأم فيا لها من آية تكفي وحدها في
الدلالة على وجود الخالق وصفات كماله وافعاله وعلى صدق رسله فيما اخبروا
به عنه باخراج من في القبور ليوم البعث والنشور فتأمل اجتماع هذه
العناصر الأربعة وتجاورها وامتزاجها وحاجة بعضها الى بعض وانفعال
بعضها عن بعض وتأثيره فيه وتأثره به بحيث لا يمكن الانفكاك من
التأثر والانفعال ولا يستقل الآخر بالتأثير ولا يستغني عن صاحبه

وفي ذلك

وفي ذلك اظهر دلالة على انها مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة حادثة
بعد عدمها فقيرة الى موجد غني عنها مؤثر غير متأثر قديم غير حادث
تنقاد المخلوقات كلها لقدرته وتجيب داعي مشيئته وتلبي داعي وحدا
نيته وربوبيته وتشهد بعلمه وحكمته وتدعو عباده الى ذكره
وشكره وطاعته وعبوديته ومحبته وتحذرهم من بأسه ونقمته
وتحثهم على المبادرة الى رضوانه وجنته فانظر الى الماء والأرض كيف
لما اراد الرب تعالى امتزاجهما وازدواجهما انشأ الرياح فحركت
الماء وساقته الى ان قذفته في عمق الأرض ثم انشأ لها حرارة لطيفة
سماوية وحصل بها الانبات ثم انشأ لها حرارة اخرى اقوى منها
حصل بها الانضاج وكانت حالته الأولى تضعف عن الحرارة الثانية
فادخرت الى وقت قوته وصلابته فحرارة الربيع للاخراج وحرارة
الصيف للانضاج هذا وان الأم واحدة والأب واحد واللقاح واحد
والأولاد في غاية التباين والتنوع كما قال تعالى وفي الأرض قطع
متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى
بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ان في ذلك لآيات لقوم
يعقلون فهذا بعض آيات الأرض ومن الآيات التي فيها وقايعه
سبحانه التي اوقعها بالأمم المكذبين لرسله المخالفين لأمره وابقى آثارهم
دالة عليهم كما قال تعالى وعادا وثمود وقد تبين لكم من مسا
كنهم وقال في قوم لوط وانكم لتمرون عليهم مصبحين
وبالليل افلا تعقلون وقال فاخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها
سافلها وامطرنا عليهم حجارة من سجيل ان في ذلك لآيات للمتوسمين
وانها لبسبيل مقيم اي بطريق ثابت لا يزول عن حاله فان وان كان

اصحاب الايكة لظالمين فانتقمنا منهم وانهما لبامام مبين اي ديارهما بين
الاميين لبطريق واضح يمر به السالكون وقال تعالى وسكنتم في مساكن
الذين ظلموا انفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وقال
عن قوم عاد فاصبحوا لا يرى الا مساكنهم وقال الم يهد لهم كم
اهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم فاي دلالة اجل من رجل يخرج و
حده لا عدة له ولا عدد ولا مال فيدعو الامة العظيمة الى توحيده و
الايمان به وطاعته ويحذرهم من باسه ونقمته فتتفق كلمتهم او
اكثرهم على تكذيبه ومعاداته فيذكرهم انواع العقوبات الخارجة
عن قدرة البشر فتفرق المكذبين كلهم تارة ويخسف بغيرهم الارض تارة
ويهلك اخرين بالريح واخرين بالصيحة واخرين بالمسخ واخرين بالحجارة
واخرين بظلة من النار من فوقهم واخرين بالصواعق واخرين بانواع العقو
بات وينجو داعيهم ومن معه والهالكون اضعاف اضعاف اضعافهم
عددا وقوة ومنعة واموالا

فما لك من آيات حق لو اهتدى ❊ بهن مريد الحق كن هواديا
ولكن على تلك القلوب اكنة ❊ فليست وان اصغت تجيب المناديا

فهلا منعوا ان كانوا على الحق وهم اكثر عدد واقوى شوكة بقوتهم وعددهم
من باسه وسلطانه وهلا اعتصموا من عقوبته كما
اعتصم من هو اضعف منهم من اتباع الرسل ومن الايات التي في الارض
ما يحدثه تعالى فيها كل وقت مما يصدق رسله فيما اخبرت به
فلا تزال ايات الرسل واعلام صدقهم وادلة نبوتهم يحدثها الله
سبحانه وتعالى في الارض اقامة للحجة على من لم يشاهد تلك الايات
التي قارنت عصر الرسل حتى كان اهل كل قرن يشاهدون ما شاهده

الاولون

من غير تكلف لتبقى هذه المراة نقية صافية من جميع الكدورات
ولهذا لما يخلق لعين الذبابة اجفانا لا تزال تراها تنظف عينيها بيديها من
اثار الغبار والكدورات

فصل

وكما جعل سبحانه العينين مؤديتين للقلب ما يريانه فيؤديانه اليه كما تراه جعلهما
مراتين للقلب يظهر فيهما ما هو مودع فيه من الحب والبغض والخير
والشر والبلادة والفطنة والزيغ والاستقامة فيستدل باحوال العين
على احوال القلب وهو احد انواع الفراسة الثلاثة وهي فراسة العين وفرا
سة الاذن وفراسة القلب فالعين مراة للقلب وطليعة ورسول
ومن عجيب امرها انها من الطف الاعضا وابعدها تاثرا بالحر والبرد
على ان الذقن على صلابتها وغلظها ليتاثر بهما اكثر من
تاثر العين على لطافتها وليس ذلك بسبب الغطا الذي عليها من
الاجفان فانها ولو كانت منفتحة لم تتاثر بذلك تاثر الاعضا التي

فصل

ومن ذلك الاذنان شقهما تبارك وتعالى في
جانبي الوجه واودعهما من الرطوبة ما يكون معينا على ادراك السمع واود
عهما القوة السمعية وجعل سبحانه في هذه الصدفة انحرافات واعوجاجات
لتطول المسافة قليلا فلا يصل الهوى الا بعد انكسار حدته فلا يصدمها وهلة
واحدة فيوذيها وايضا فليلا يفجاها الداخل اليها من الدبيب والحشرات
بل اذا دخل الى عوجة من تلك الانعطافات وقف هناك فيسهل اخراجه وكانت
العينان في وسط الوجه والاذنان في جانبيه لان العينين محل الملاحة
والزينة والجمال وهما بمنزلة النور الذي يمشي بين يدي الانسان وايضا
فلان جعلهما في الجانبين يكون ادراكهما لما خلف الانسان وامامه
وعن يمينه وعن شماله سواء فتاتي المسموعات اليهما على نسبة واحدة

وخلقت العينان بغطاء والأذنان بغير غطاء وهذا في غاية الحكمة
إذ لو كان للأذنين غطاء لمنع الغطاء إدراك الصوت فلا يحصل إلا بعد ارتفاع
الغطاء والصوت عرض لا ثبات له فكان يزول قبل كشف الغطاء بخلاف ما
تراه العين فإنه أجسام وأعراض لا تزول فيما بين كشف الغطاء وفتح العين
وجعل سبحانه الأذن عضواً غضروفياً ليس بلحم مسترخ ولا عظم صلب
بل هي بين الصلابة واللين فتقبل بلينها وتحفظ بصلابتها ولا تنصدع
انصداع العظام ولا تتأثر بالحر والبرد والشمس والسموم تأثر اللحم إذ
المصلحة في بروزها لتتلقى ما يرد عليها من الأصوات والأخبار

فصل ومن ذلك الأنف نصبه سبحانه في وسط
الوجه قائماً معتدلاً في أحسن شكل وفتحه للمنفعة وأودع فيه
حاسة الشم التي يدرك بها الروائح وأنواعها وكيفياتها ومنافعها و
مضارها ويستدل بها على مضار الأغذية والأدوية ومنافعها او
الضر فإنه ينشق بالمنخرين الهواء البارد الرطب فيؤديه إلى القلب
فيتروح به فيستغني بذلك عن فتح الفم أبداً وجعل تجويفه بقدر
الحاجة فلم يوسعه عن ذلك فيدخله هواء كثير ولم يضيقه
فلا يدخله من الهواء ما يكفيه وجعل ذلك التجويف مستطيلاً لينحصر
فيه الهواء وينكسر برده وحدته قبل أن يصل إلى الدماغ فلولا ذلك
لصدمه بحدته وقوته والهواء الذي يستنشقه الأنف
ينقسم شطرين شطراً يصعد إلى الدماغ وشطراً ينزل إلى الرئة وهو
أكثر من آلات النطق فإن له إعانة على تقطيع الحروف وكان تجويفه
محلاً لاستنشاق الهواء فإنه جعل مصباً لفضلات الدماغ تنحدر
منه في تلك القصبة فتخرج فيستريح الدماغ ولذلك جعل عليها

ستراً

ستراً ولم يجعلها بارزة فتستقبحها العيون وجعل فيها تجويفين فإنه
قد ينسد أحدهما أو يعرض له آفة تمنعه من الإدراك والاستنشاق فيبقى
التجويف الثاني نائباً عنه يعمل عمله كما اقتضت الحكمة مثل ذلك في العينين
ثم تأمل الهواء الذي يستنشقه هناك الأنف كيف يدخل أولاً من المنخرين
وينكسر برده هناك ثم يصل إلى الحلق فيعتدل مزاجه هناك ثم يصل
إلى الرئة ألطف ما يكون ثم تبعثه الرئة إلى القلب فيروح عن الحرارة
الغريزية التي فيه ثم ينفذ من القلب إلى العروق المتحركة ويبلغ إلى أقاصي
أطراف البدن ثم إذا سخن في الباطن وخرج عن حد الانتفاع عن تلك
الأقاصي إلى البدن ثم إلى الرئة ثم الحلقوم ثم إلى المنخرين خارجاً فيخرج منهما
ويعود عوضه هواء بارداً نافعاً والنفس الواحد من أنفاس العبد إنما يتم
بمجموع هذه الأمور والقوى والأفعال وهو في اليوم والليلة أربعة
وعشرون ألف نفس بين في كل نفس عدة نعم قد وقع القليل منها فما ظنك
بما وراء التنفس من الأعضاء والقوى ومنافعها وتمام النعمة بها

فصل وأما الفم فمحل العجائب وباب الطعام والشراب
والنفس والكلام ومسكن اللسان الناطق الذي هو آلة العلوم وترجمان
القلب ورسوله المؤدي عنه ولما كان القلب ملك البدن ومعدن الحرارة
الغريزية فإذا دخل الهواء البارد وصل إليه فاعتدلت حرارته وبقي هنالك
ساعة فيسخن ويحترق فاحتاج القلب إلى دفعه وإخراجه فجعل أحكم
الحاكمين إخراجه سبباً لحدوث الصوت في الحنجرة والحلق واللسان
والشفتين والأسنان مقاطع ومخارج مختلفة بسبب اختلافها تميزت
الحروف بعضها عن بعض ثم ألهم العبد تركيب تلك الحروف ليؤدي بها عن
القلب بأمره فتأمل الحكمة الباهرة حيث لم يضع سبحانه ذلك النفس المستغني

المحتاج الى دفعها واخراجها بل جعل فيها اذا استغنى عنها منفعة
ومصلحة هي من اكمل المنافع والمصالح فان المقصود الاصلي من النفس
هو ايصال النسيم البارد الى القلب فاما اخراج النفس فهو جار مجرى دفع الفضلة
الفاسدة فصرف ذلك سبحانه الى رعاية تصلحه ومنفعة اخرى فجعلها
سببا للاصوات والحروف والكلام ثم انه سبحانه جعل الحناجر مختلفة
الاشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة لتختلف الاصوات
باختلافها فلا يتشابه صوتان كما لا تتشابه صورتان وهذا من
اظهر الادلة فان هذا الاختلاف الذي بين الصور والاصوات على كثرتها
وتعددها فلما يشبه صوتان او صورتان ليس في الطبيعة ما يقتضيه
وانما هو صنع الله الذي اتقن كل شيء واحسن كل شيء خلقه فتبارك الله رب العالمين
واحسن الخالقين ليميز سبحانه بين الاشخاص بما يدركه السمع والبصر

فصل واودع اللسان من المنافع منفعة الكلام وهي
اعظمها ومنفعة الذوق والادراك وجعلها دليلا على اعتدال مزاج
القلب وانحرافه كما جعلها دليلا على استقامتها واعوجاجها فترا
الطبيب يستدل بما يبدو ويظهر على اللسان من الخشونة والملا
سة والبياض والحمرة والتشقق وغيره على حال القلب والمزاج وهو دليل
قوي على احوال المعدة وان معا كما يستدل السامع بما يبدو عليه من الكلام
على ما في القلب فيبدو عليه صحة القلب وفساده معنى وحسا

فصل وجعل سبحانه اللسان عضو الحس لا عظم فيه
ولا عصب لتسهل حركته ولهذا لا تجد في الاعضاء من لا يكترث بكثرة الحركة
سواه فان اي عضو من الاعضاء حركته كما تحرك اللسان لم يطق ذلك
ولم يلبث ان يكل ويخلو الى السكون الا اللسان وايضا فانه من اعدل

الاعضا

قال نعم اذا رات الماء قالت فقلت لها افترى المرأة ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم وهل يكون الشبه الا من ذلك اذا علا ماؤها ماء الرجل اشبه الولد اخواله
واذا علا ماء الرجل ماءها اشبه اعمامه لفظ مسلم وقد ذكر جالينوس التشنيع
على ارسطاليس حيث قال ان المرأة لا مني لها فلنجر هذه المسئلة طبقا كما ورد
شرعا فنقول مني الذكر من جملة الرطوبات والفضلات التي في البدن وهذا
امر مشترك بين الذكر والانثى وبواسطته تخلق الولد وبواسطته يكون
الشبه ولو لم يكن للمرأة مني لما اشبهها ولدها ولا يقال ان الشبه بسبب دم
الطمث فانه لا ينعقد مع مني الرجل ولا يتحد به قد اجرى الله العادة بان التولد
لا يكون الا بين اصلين يتولد من بينهما ثالث ومني الرجل وحده لا يتولد منه
الولد ما لم ينضم اليه مادة اخرى من الانثى وقد اعترف ارباب العقول
الاخر بذلك وقالوا لابد من وجود مادة يصنعها رحم المرأة تصير مادة البدن
الجنين ويكون نازعوا هل فيها قوة عاقدة كما في مني الرجل وقد ادخل النبي صلى الله
عليه وسلم هذه المسئلة في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه من حديث
ثوبان مولاه حيث سأله اليهود عن الولد فقال ماء الرجل ابيض وماء المرأة
اصفر فاذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة اذكرا باذن الله واذا علا مني
المرأة مني الرجل انثا باذن الله ثم لمني الرجل خاصة الغلظ والبياض
والخروج بدفق ودفع فان اراد من نفى مني المرأة انتفاء ذلك عنها اصاب ومني
المرأة خاصة الرقة والصفرة والسيلان بغير دفع فان نفى ذلك عنها اخطأ
وفي كل من المائين قوة فاذا انضم احدهما الى الاخر اكتسبا قوة ثالثة وهي
من اسباب تكون الجنين واقتضت حكمة الخلاق العليم سبحانه ان جعل داخل
الرحم خشنا كالسفنج وجعل فيه طلبا للمني وقبولا له كطلب الارض
الشديدة العطش للماء وقبولها له فجعله طالبا حافظا مشتاقا اليه
بالعطش فلذلك اذا ظفر به امده ولم يضيعه بل يشتمل عليه ثم الاشتمال وينضم

محل اشكال

اعظم انضمام لئلا يفسده الهوى فيتقوى القوة والحرارة التي هناك باذن الله تعالى
الرحم اذا اشتمل على المني ولم يقذف الى الخارج استدار المني على نفسه وصار
كالكرة واخذ في الشدة الى تمام ستة ايام فاذا اشتد نقط فيه نقطة في الوسط
وهو موضع القلب ونقطة في اعلاه وهي نقطة الدماغ والتي على اليمين وهي
نقطة الكبد ثم تتباعد تلك النقط ويظهر بينها خطوط حمر الى تمام ثلاثة
ايام اخر ثم تنفذ الدموية في الجميع بعد ستة ايام اخر فيصير ذلك خمسة
عشر يوما ويصير المجموع سبعة وعشرين يوما ثم ينفصل الراس عن المنكبين
والاطراف عن الضلوع والبطن عن الجنبين وذلك في تسعة ايام فتصير
ستة وثلاثين يوما ثم يتم هذا التمييز بحيث يظهر للحس ظهورا بينا في تمام
اربعة ايام فيصير المجموع اربعين يوما يجمع خلقه وهذا مطابق لقول النبي
صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته ان احدكم يجمع خلقه في بطن امه اربعين
يوما واكتفى النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الاجمال عن التفصيل وهذا يقتضي
انه قد جمع فيها خلقها جمعا خفيا وذلك الخلق في ظهور خفي على التدريج ثم
يكون مضغة اربعين يوما اخرى وذلك التخليق يتزايد شيئا فشيئا الى
ان يظهر للحس ظهورا لا خفاء به كله والروح لم تتعلق به بعد
فانها انما تتعلق به في الاربعين الرابعة بعد مائة وعشرين يوما كما اخبر
به الصادق وذلك مما لا سبيل الى معرفته الا بالوحي اذ ليس في الطبيعة
ما يقتضيه فلذلك حار فضلاء الاطباء واذكياء الفلاسفة في ذلك وقالوا ان
هذا مما لا سبيل الى معرفته الا بحسب الظن البعيد قال ووقفت على نهايات
كلامهم في ذلك وآداب فيه حتى كل وهو صاحب الطب الكبير فذكر مناسبات
خيالية ثم قال وحقيقة العلم فيه عند الله تعالى لا مطمع لاحد من الخلق الوقوف
عليه قلت قد وقفنا عليه الصادق المصدوق الذي لا ينطق
عن الهوى بما ثبت في الصحيحين ان خلق احدكم يجمع في بطن امه اربعين يوما

فيه اشكال

ثم يكون

ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث اليه الملك فينفخ فيه
الروح ويؤمر باربع يكتب رزقه واجله وعمله وشقي او سعيد

فصل

ورايت لبعض الاطباء كلاما ذكر فيه سبب تفاوت زمن الولادة فاذكره
واذكر ما فيه قال اذا تم خلق الجنين مدة معينة فانها اذا زاد عليها مثلها
تحرك الجنين فاذا انضاف الى المجموع مثلاه انفصل الجنين قال فاذا تم خلقه
في ثلاثين يوما فاذا صار له ستون يوما تحرك فاذا انضاف الى الستين مثلا
ها صارت مائة وثمانين يوما وهي ستة اشهر وهي مدة ينفصل لها الحمل
واذا تم خلقه في خمسة وثلاثين يوما تحرك لسبعين وانفصل لسبعة اشهر
واذا تم خلقه لاربعين تحرك لثمانين وانفصل لثمانية اشهر واذا تم لخمسة و
اربعين تحرك لتسعين وانفصل لتسعة اشهر وعلى هذا الحساب ابدا وهذا الذي
ذكره هذا القائل يقتضي حركة الجنين قبل الاربعين وهذا خطا قطعا فان
الروح انما تتعلق به بعد الاربعين الثالثة وحينئذ يتحرك فلا تثبت له
حركة قبل مائة وعشرين يوما وما يقدر من حركة قبل ذلك فليست حركة ذاتية
اختيارية بل لعلها حركة عارضة بسبب الاغذية والرطوبات وما ذكره من
الحساب لا يقوم عليه دليل ولا تجربة مطردة فربما زاد على ذلك او نقص منه
ولكن الذي نقطع به ان الروح لا تتعلق به الا بعد الاربعين الثالثة وما يقدر
من حركة قبل ذلك ان صحت لم بسبب الروح والله اعلم

فصل

واما اقل مدة الحمل فقد تظاهرت الشريعة والطبيعة على انها ستة اشهر قال
تعالى وحمله وفصاله ثلاثون شهرا وقال تعالى والوالدات يرضعن اولادهن
حولين كاملين لمن اراد ان يتم الرضاعة وقال جالينوس كنت شديد
الفحص عن مقادير ازمنة الحمل فرايت امراة واحدة ولدت في مائة واربع
وثمانين ليلة وزعم صاحب الشفا انه شاهد ذلك واما اكثره فقال في
الشفا بلغني من حيث وثقت انه امراة وضعت بعد الاربع من راس الحمل

والاولاد بنت اسنانه وعاش **فصل** فان قيل فما سبب
الاذكار والايناث قيل الذي نختاره الله سبحانه مشيئة الرب الفاعل
باختياره وليس بسبب طبيعي وكل ما ذكره اصحاب الطبايع من الاسباب
فستنتقض مثل حرارة الرجل ورطوبته قالوا وفساد المزاج ايضا يوجب ايلاد
الاناث واستقامته يوجب الاذكار وهذا تخليط وهذيان فليس للاذكار
والايناث الا قول الله الملك العلام وقد استاذن ربه يا رب ذكر يا رب انثى
يا رب شقي ام سعيد فما الرزق فما الاجل والاذكار والايناث قرين السعادة
والشقاوة والرزق والاجل فان قيل فتلك ايضا باسباب قلنا نعم
ولكن باسباب بعد الولادة ولا سبب للاذكار والايناث قبل الولادة فان
قيل فما تصنعون بحديث ثوبان الذي رواه مسلم في صحيحه ان يهوديا
سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الولد فقال ماء الرجل ابيض وماء المرأة اصفر
فاذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة اذكرا باذن الله واذا علا مني المرأة مني
الرجل انثا باذن الله فقال اليهودي صدقت وانك لنبي قيل هذا الحديث
تفرد به مسلم في صحيحه وقد تكلم فيه بعضهم وقال لفظة هذا الحديث وهم فيه
بعض الرواة وانما كان السؤال عن الشبه وهو الذي سأله عبد الله ابن
سلام في الحديث المتفق على صحته فاجابه بسبق الماء وان الشبه يكون
للسابق فلعل بعض الرواة انقلب عليه شبه الولد بالمرأة بكونه انثى وشبهه
بالولد بكونه لاشبها والشبه التام انما هو بذلك وقالت طايفة الحديث
صحيح لا مطعن في سنده ولا منافاة بينه وبين حديث عبد الله ابن
سلام وليست الواقعة واحدة بل هما قضيتان ورواية كل منهما غير
رواية الاخرى وفي حديث ثوبان قصة ضبطت وحفظت قال ثوبان
كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء حبر من احبار اليهود فقال
السلام عليك يا محمد فدفعته دفعة كاد يصرع منها فقال لي لم تدفعني فقلت

الا تقول

اشكال

وهي لا بد لها من متعلق تتعلق به ولا بد ان يتقدم متعلقها عليها وهو القلب
قالوا وهذا هو اللايق والانسب بحكمة الرب تعالى فان القلب ملك والاعضا
جنود له وخدم فاذا صلح القلب صلحت جنوده واذا فسد فسدت وقد اشار
النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الى ما يرشد الى ذلك فقال ان في الجسد
مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد لها سائر الجسد
الا وهي القلب فاولى بهذه المضغة ان تكون متقدمة في وجودها على ساير
الاعضا وسايرها تبع لها في الوجود كما هي تبع لها في الصلاح والفساد
قالوا وقد شاهد اصحاب التشريح في المني عند انعقاده نقطة في وسطه فقال
اصحاب الدماغ شاهدنا الفراخ في البيض اول ما يتكون منها روسها وسنة
الله في بروز الجنين اول ما يبدو منه الى الوجود راسه قال اصحاب الكبد لما كان
المني محتاجا الى قوة غاذية تزيد في جوهره حتى يصير بحيث يمكن ان تكون
الاعضا فيه كان اول الاعضا واسبقها اليه وهو محل القوة الغاذية وهو الكبد
قال اصحاب السرة حاجة الجنين الى جذب الغذا اشد من حاجته الى الاقوات
وادراكه من السرة يجذب الغذا واولى هذه الاقوال القول الاول وهو بيت
القلب ومنزلته وشرفه ومحله الذي وضعه الله به يقتضي انه المبدو به قبل
سائر الاعضا المقدم عليها بالوجود والله اعلم **فصل** فان قيل
الجنين قبل نفخ الروح فيه هل كان فيه حركة واحساس ام لا قيل كان فيه حركة
النمو والاغتذا كالنبات ولم يكن له حركة نمو واغتذاء والارادة فلما نفخت
فيه الروح انضمت حركة حسية وارادية الى حركة نموه واغتذائه فان قيل قد ثبت
ان الولد يتخلق من ماء الابوين فهل يمتزجا ويختلطا حتى يصيرا ماء واحدا
او يكون احدهما هو المادة والاخر بمنزلة الانفحة التي تعقده قيل هو موضع
اختلف فيه ارباب الطبيعة فقالت طايفة منهم مني الاب لا يكون جزءا من
الجنين وانما هو مادة الروح الساري في الاعضا واجزاء البدن كلها

من مني الام ومنهم من قال بل هو ينعقد من مني الانثى ثم يتحلل ويفسد
قالوا ولهذا كان الولد جزءا من امه ولهذا جاءت الشريعة بتبعيته لها في
الحرية والرق قالوا ولهذا لو نزى فحل رجل على حجرة اخر فاولدها فالولد لمالك
الام دون مالك الفحل لانه تكون من اجزائها واحشائها ولحمها ودمها وماء
الاب بمنزلة الماء الذي سقي الارض قالوا والحس يشهد ان الاجزاء التي
في المولود من امه اضعاف اضعاف الاجزاء التي فيه من ابيه فثبت
ان تكوينه من مني الام ودم الطمث ومني الاب عاقد له كالانفحة ونازعهم
الجمهور وقالوا انه يتكون من مني الرجل والانثى ثم لهم قولان احدهما ان يكون
من مني الذكر اعضاؤه واجزاؤه ومن مني الانثى صورته والثاني ان الا
عضاء والاجزاء والصورة تكونت من مجموع المائين وانهما امتزجا و
اختلطا وصارا ماء واحدا وهذا هو الصواب لانا نجد الصورة والتشكيل
تارة الى الاب وتارة الى الام والله اعلم وقد دل على هذا قوله تعالى يا ايها الناس
انا خلقناكم من ذكر وانثى والاصل هو الذكر لانه البذر ومنه السقي والانثى
وعاء ومستودع للولد تربيه في بطنها كما تربيه في حجرها ولهذا كان الولد
للاب حكما ونسبا واما تبعيته للام في الحرية والرق فلانه انما تكون وصار ولدا
في بطنها وغذيته لبانها مع الجزء الذي فيه منها وكان الاب احق بنسبه وتعصيبه
لانه اصله ومادته ونسخته وكان اشرفهما دينا اولى به تغليبا لدين الله
وشرعه فان قيل فهلا طردتم هذا وقلتم لو سقط بذر رجل في ارض
اخر ويكون الزرع لصاحب الارض دون مالك البذر قيل الفرق بينهما ان البذر
مال متقوم في ارض اخر فهو مالكه وعليه اجرة الارض او هو بينهما بخلاف
المني فانه ليس بمال ولهذا نهى الشارع عن المعاوضة واتفق الفقهاء على ان الفحل
لو نزا على رمكة كان الولد لصاحب الرمكة **فصل**
فان قيل يتكون الجنين من مائين وما طبيين قيل هذه مسألة شرعية

فصل

كونه